سلسلة القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الخامس عشر

سلسلة القصص القرآنى

المجلد الخامس عشر

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى د. عبد الحميد مصطفى




غزوة تبوك

- أين تقع تبوك ؟
- أسباب الغزوة
- متى حدثت تلك الغزوة ؟
- النبى ﷺ يستنفر المسلمين
- تنافس المسلمين فى الانفاق
- قصة البكائين
- المخلفون
- تخلف عبدالله بن أبى وأصحابه
- استخلاف علىّ على المدينة
- المرور على الحجر
- دعاء النبى ﷺ لأصحابه
- عين تبوك تفيض بالماء
- نجاح عظيم فى تبوك



اين تقع تبوك ؟

تبوك بلدة فى الطريق الممتدة من دمشق إلى المدينة[1] .

وهى واقعة على مرتفع فى سهل رملى ، وبها بئر صالح ـ عليه السلام ـ وأهم مبانيها الآن حصن الحجاج الذى بنى عام ١٠٦٤ هـ : ١٦٥٤ م كما ورد فى الكتابات المنقوشة عليه ، وبجانبه مسجد جديد مشيد من أحجار جميلة منحوتة .

كانت تبوك أيام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تقع على الحدود الشمالية لبلاد العرب ، وتبدأ بعدها حدود الدولة البيزنطية ـ دولة الروم ـ وأخذت تبوك شهرتها من هذه الغزوة التى قام بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها لإخضاع عرب الشمال . . وذلك فى السنة التاسعة من الهجرة .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية : لقد هرب سكان تبوك من الروم وقبائل عاملة ولخم وجذام عند وصول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها[2]

وتبوك ـ على وزن تقول ـ تمنع من الصرف للعلمية والتأنيث . وإن كان بعضهم صرفها على إرادة المكان ، وتمنع من الصرف أيضاً للعلمية والعجمة . وللعلمية ووزن الفعل .

ولكن بعضهم يقول : إن التسمية جاءت من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجلين سبقاه الى عين بها ـ وكان قد نهى أن يقرب أحد ماءها ـ : « مازلتما تبوكانها منذ اليوم[3] »

---

(١) هى على مسيرة أربعة أيام من الحجر واثنى عشر يوما من المدينة ـ ياقوت ـ

(٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٩ ص ٢١٠

(٣) شرح الزرقانى للمواهب اللدنية جـ ٣ ص ٦٠

قال ابن قتيبة : فمن ذلك سميت العين تبوك ، وسمى المكان باسم العين

والبوك معناه النقش والحفر .

ولكن هذا الحديث رواه مالك ومسلم بغير هذا اللفظ عن معاذ ـ رضى الله عنه ـ قال : إنهم خرجوا مع رسول ـ صلى اله عليه وسلم ـ فقال : « إنكم تأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك ، فمن جاءها فلايمس من مائها شيئا » قال : فجئناها وقد سبق اليها رجلان ، والعين مثل الشراك تبضُّ بشيء من ماء . .

فدل ذلك على أن تبوك اسم لذلك الموضع الذى فيه العين المذكورة ، فالتسمية سابقة على كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

اسباب الغزوة

ذكر العلماء لهذه الغزوة أسبابا عدة منها :

●● أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلغه عن طريق التجار الذين يقدمون إلى بلاد العرب من الشام بالزيت والتجارة إلى المدينة أن الروم جمعوا جموعهم مع هرقل لغزو العرب ، وأن هرقل جمع أصحابه وحلفاءه ، وأقبلت معهم قبائل لخم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من نصارى العرب ، ووصلت مقدمتهم إلى البلقاء .

وربما لم يكن هذا الخبر قد تحرى فيه أصحابه الصدق ، أولم يستوثقوا من حقيقته ، فقد رأوا جموعا فتوهموا أنها للزحف ، وحاكوا حولها مازعموه من إضافات .

ولكن هذا الخبر وحده كان كافيا للدعوة للتجهز تحسباً لأدنى الاحتمالات .

وهناك سبب آخر أشار إليه الطبرانى قال فيه :

كانت نصارى العرب قد كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذى خرج يدَّعى النبوة قد هلك ، وأنهم ـ يقصدون العرب ـ أصابتهم سنون قحط ـ فهلكت أموالهم ، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن . .

فانتدب هرقل رجلا من قواده اسمه قُباذ ، وجهز معه أربعين ألفا لغزو بلاد العرب ، وبسط سلطان الروم فيها . بعد الإرجاف بهذا الخبر السابق . .

. . . ويعد هذا سبقاً إلى السياسة التى ظهرت أخيراً باسم « ملء الفراغ » . . فمادامت الجزيرة العربية خلت من قائدها فليحل الروم محله ـ هكذا توهم هرقل ـ

وقد بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبأ هذه التحركات ، فندب الناس للاستعداد لها ووأدها فى مكانها .

●● ومن الأسباب التى أشار إليها بعض العلماء أيضاً . . . مارووه حول سبب نزول قوله ـ تعالى ـ

« وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها »

فقد قال هؤلاء الرواة فى سند إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :

حسدت بقايا اليهود مقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة ، فقالوا له : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام فإن كنت نبيا فالحق بها ، فإنك إن خرجت

اليها صدقناك وآمنا بك ، فوقع ذلك فى قلبه لمايحب من إسلامهم ، فرحل من المدينة على مرحلة من الشام فأنزل الله هذه الآية

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (٤)

وعلى ذلك فكانت هذه الغزوة طريقا للحوق بالشام ..

ولكن أكثر العلماء يقولون : إن هذه الآية مكية وليست مدنية ، والمقصود بالأرض فيها أرض مكة ، لا أرض المدينة . وقد نزلت حين هم أهل مكة بإخراجه ، ولم يخرجوه ، ولكن الله أمره بالهجرة ، وما قبل هذه الآية خبر عن أهل مكة ولم يجر لليهود ذكر (٥) .

●● ومن الأسباب التى أشار إليها بعض العلماء ماذكروه من أن قريشا حين نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٦)

قالت : لقد قُطِعتْ عنا المتاجر وذهبت الأسواق ، وضاع ماكنا نصيبه من هؤلاء القادمين ، فعوضهم الله عن ذلك بما غنموه من أهل الكفر فى

---

(٤) الاسراء ٧٦
(٥) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٠١ . سورة الاسراء
(٦) التوبة ٢٨

حربهم ، ونزل فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٧)

فكانت الجزية عوضاً عما منعوا منه من التجارة فى الحرم مع أهل الكفر ». (٨)

هذه هى الأسباب التى ذكرها الرواة ، وأقواها السبب الأول الذى أشرنا إليه ، لأنه وحده الكفيل بأن يحرك همة المسلمين للتصدى لهذا العدوان الخارجى ، وقد علمنا أنفة العرب من العدوان عليهم . . ، فإذا أضيف إلى ذلك ما أودعه الإسلام فى نفوسهم من غيرة على الحق ورغبة فى إشاعة العدل ، ونشر نور الإسلام كان ذلك داعيا الى التحرك نحو تبوك لوقف هذا العدوان .

وقد أيد ذلك الخبراء العسكريون حيث قالوا عن أسباب هذه الغزوة :

هناك أسباب مباشرة هى . . أن قوات الروم قد حشدت لغزو حدود العرب الشمالية والقضاء على سلطة الاسلام هناك . . . فقد بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأن القيصر هرقل قد أعطى أصحابه العطايا لسنة كاملة ، وأجلبت معه لخم

---

(٧) التوبة ٢٩

(٨) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠٩ ـ شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ ٣ ص ٦٤

وجذام وعاملة وغسان وقدمت جموعهم إلى البلقاء .

وهناك أسباب غير مباشرة هى :

●● التأكيد على حماية حرية نشر الاسلام خارج شبه الجزيرة العربية بعد انتشاره داخلها .

● تقوية معنويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم . . . تلك القبائل التى أخذت تقبل على اعتناق الاسلام على الرغم من معارضة الروم لهذا الاتجاه .

●● محو آثار انسحاب المسلمين من مؤتة من النفوس .

وإذا كانت هناك أهداف لكل من المسلمين والروم ، فإن هدف المسلمين هو حماية نشر الإسلام فى بلاد الشام ، لأنها المنفذ المهم لنشره خارج شبه الجزيرة العربية ، كما أنها المتنفس الحيوى للتجارة العربية .

أما هدف الروم فكان القضاء على منافسة المسلمين للامبراطورية الرومانية فى السيطرة على العرب الخاضعين للروم ، والوقوف ضد انتشار الدعوة الاسلامية فى بلاد الشام(٩) .

ويؤكد هذا خبير عسكرى آخر حيث يقول :

فى فصل الصيف الحار من عام ٦٣٠ م وصلت التقارير الى المدينة المنورة بخصوص حشد الروم لقوات كبيرة فى سورية ، وأنهم دفعوا بعناصر المقدمة الى الأردن ، وأن هرقل الامبراطور البيزنطى نفسه موجود فى حمص .

---

(٩) الرسول القائد ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب ص ٣٨٩

وفى منتصف تشرين الأول عام ٦٣٠ م أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتهيؤ لغزو الروم لم يكن هدف الحملة محاربة الروم ، لأن ذلك يمكن أن يحدث فيها بعد عندما يتحسن الطقس . لكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يمتحن قوة إيمان المسلمين بجعلهم يسيرون فى حر الصيف اللاهب ، ولا يستطيع أن يستجيب لنداء النبى فى مثل هذه الظروف سوى المؤمنين الصادقين (١٠)

اسماء الغزوة

ولغزوة تبوك أسماء أخرى غير هذا الاسم

فقد سميت بغزوة العسرة ـ وهذا الاسم جاء من قوله ـ تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١١)

والعسرة صعوبة الأمر .

قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظَّهْر ، وعسرة الزاد ، وعسرة الماء ، يضاف الى ذلك عسرة الجو ، فقد خرجوا فى قيظ شديد .

قال الحسن : كانت العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يتناوبونه بينهم . . .

---

(١٠) خالد بن الوليد جنرال أ أكرم ص ١٣٩

(١١) آية رقم ١١٧ سورة التوبة

وكان زادهم التمر الردىء والشعير المتغير والإهالة القليلة(١٢)وكان النفر يخرجون مامعهم من التمرات يقسمونه بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء ، وهكذا حتى لايبقى من التمرة الا النواة .

لقد خرجوا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصدق والوفاء واليقين ، وسئل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن ساعة العسرة فقال : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد . حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش . فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا .

قال : أتحب ذلك ؟

قال : نعم :

فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ، ثم سكبت فملأوا مامعهم .

قال عمر : ثم ذهبنا ننظر فلم نجد السحابة جاوزت العسكر .

وقال ابن عرفة : سمى جيش تبوك جيش العسرة لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ندب الناس الى الغزو فى شدة القيظ ، فغلظ عليهم وعسر .

وإنما ضرب المثل بجيش العسرة ـ فى الآية الكريمة ـ لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يغز قبله فى عدد مثله ، وكان أصحابه يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، ويوم أحد سبعمائة ، ويوم خيبر ألفا وخمسمائة ، ويوم

---

(١٢) الإهالة : الشحم

الفتح عشرة آلاف ويوم حنين اثنى عشر ألفا ، وكان جيشه فى غزوة تبوك ثلاثين ألفا وزيادة ، وهى آخر غزواته ـ صلى الله عليه وسلم ـ[١٣]

الغزوة التى فضحت المنافقين :

ولغزوة تبوك اسم آخر ، فقد سميت بالغزوة التى كشفت المنافقين وفضحتهم . . وذلك أن المنافقين قد فضحوا فيها بما نزل فيهم من الآيات الدالة على كذبهم كقوله تعالى ـ حكاية عنهم ـ

« وقالوا لاتنفروا فى الحر »

وقوله :

« ومنهم من يقول ائذن لى ولاتفتنى »

وقوله :

« ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب »

وكقوله تعالى تبكيتا لهم :

« لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة »

وسيأتى حديث مفصل ـ ان شاء الله ـ عن موقف المنافقين فى هذه الغزوة .

متى كانت الغزوة :

كانت تلك الغزوة فى منتصف رجب من العام التاسع الهجرى . . .

---

(١٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٧٩

انطلق المسلمون بقيادة نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك . .

وقد سبق الخروج إعدادلهذه الغزوة .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عادته أنه لايعلن عن وجهته فى الغزو ، إلا فى هذه الغزوة فإنه أعلن عن وجهته ليكون المسلمون على بينة من أمرهم . وليعدوا أنفسهم لسفر طويل ومشقة كبيرة وعدو شديد . .

ولم يكن المسلمون على أهبة الاستعداد حين دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للجهاد ، فقد كانوا مجهدين ماليا . ينتظرون الثمرة ويرجون المحصول الذى لم ينضج بعد . .

النبى يستنفر المسلمين :

لقد أذن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجهاد . وأمر الناس بالتجهز ، وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحث أهل الغنى على البذل والانفاق وحمل المجهدين والمعسرين فى سبيل الله ، وكان المسلمون عند حسن ظن نبيهم فنفروا خفافا وثقالا ، وأقبلوا على الله بأرواحهم ، وجادوا بأموالهم وتنافسوا فى البذل والعطاء فكانوا جديرين بكل شكر وثناء .

لقد انفق عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها قبل ؛ إنه جهز عشرة آلاف مقاتل أنفق عليهم عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل ـ وهى تسعمائة بعير ومائة فرس ـ والزاد وماتعلق بذلك حتى ماتربط به الأسقية(١٤)

---

(١٤) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٠٠

وقال بعضهم : إنه أعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرسا ، وعند ذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض .

روى أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أول الليل الى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان ويقول : اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه .

تنافس المسلمين فى الصدقة والبذل :

وفى الحق لقد ضرب المسلمون الصادقون أروع الأمثلة فى البذل والعطاء فهذا عثمان بن عفان ـ كما رأينا يقدم هذا البذل الذى تحدثنا عنه . . وأضاف الى ذلك أيضا مارواه الرواة من أنه جاء بعشرة آلاف دينار فصبها بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فجعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذها بيديه ويقلبها ظهرا لبطن ، ويقول : غفر الله لك ياعثمان ماأسررت وماأعلنت وماكان منك وماهو كائن منك وماهو كائن الى يوم القيامة مايبالى عثمان ماعمل بعدها .

وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ لقد جاء بجميع ماله فوضعه بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان مقداره أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماذا أبقيت لأهلك ياأبا بكر ؟

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بنصف ماله ، فقدمه للنبى ـ

صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : ماذا أبقيت لأهلك ياعمر ؟

قال عمر : أبقيت لهم النصف ..

وحين علم عمر أن أبا بكر جاء بكل ماله قال له : لا أنافسك بعد ذلك أبدا .

لقد علم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن هذا العمل من أبى بكر لايقدر عليه الا من كان فى مثل أبى بكر .. ومن كأبى بكر الذى يقول الحق فيه :

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١٥)

قال المفسرون :

فالذى جاء بالصدق هو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذى صدق به هو أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية . وعبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ كان أحد الصحابة الموسرين المنفقين فى سبيل الله .

روى معمر عن الزهرى قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشطر ماله تصدق بأربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألفا . ثم تصدق بأربعين ألف دينار أخرى ، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله ، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله ، وكان عامة ماله من التجارة ..

وظل على عادته من الانفاق فى سبيل الله بعد وفاة الرسول ـ صلى الله

---

(١٥) الزمر ٣٣

عليه وسلم ـ فقد روى أنه قَدِمَتْ له سبعمائة راحلة تحمل القمح . . وتحمل الدقيق والطعام . . فلما دخلت المدينة سُمِعَ لأهل المدينة رجة فقالت عائشة : ما هذه الرجة ؟

فقيل لها : عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف . . سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام .

فقالت عائشة : سمعت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبوا .

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن قال : ياأُمَّة ، إنى أشهدك أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها(١٦) فى سبيل الله ـ عز وجل ـ(١٧)

وقال الزهرى : أوصى عبد الرحمن لمن بقى ممن شهد بدرا لكل رجل أربعمائة دينار وكانوا مائة فأخذوها ، وأخذها عثمان ـ وهو أمير المؤمنين ـ فيمن أخذ ، كما أوصى بألف فرس فى سبيل الله .

لقد كان عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنهما ـ مثلين رائعين فى الاستهانة بالمال وتقديمه طواعية . من غير مَنٍّ فى سبيل الله ، ولذلك ورد فيهما الأثر : هما خزانتان من خزائن الله فى الأرض ينفقان فى طاعة الله ـ تعالى ـ

وجاء العباس ـ رضى الله عنه ـ بمال كثير وقدمه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك فعل طلحة بن عبيد الله ـ رضى الله عنه ـ

---

(١٦) الأحلاس جمع حلس : الكساء الذى يلى ظهر البعير ، والأقتاب جمع قتب هو بمثابة البردعة للحمار

(١٧) أسد الغابة جـ ٣ ص ٤٨١ ـ وأخرج الامام أحمد مثل هذا الخبر فى مسنده ٦ / ١١٥

وقدمت النساء مايملكن من حلى وجواهر طواعية لله عز وجل ، فحين دعا النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الجهاد بالمال . وكانت النساء يسمعن ذلك جعلت إحداهن تخلع ما فى يديها وأذنيها من أقراط وخواتم وأساور وتلقى بها إلى بلال - رضى الله عنه - فيجمعها بلال فى ثوبه حتى جمع من ذلك قدرا كبيرا .

وكان كل رجل يحاول أن يقدم شيئا لله ، فتصدق عاصم بن عدى - رضى الله عنه - بسبعين وسقا من تمر .

وبات الحبحاب أبو عقيل الأنصارى يجر الماء بالحبل من البئر للناس ، على صاعين من تمر . ثم جاء للنبى - صلى الله عليه وسلم - بصاع منها وهو يقول : يارسول الله ، بت أجر بالحبل على صاعين من تمر ، فأما صاع فأمسكته لأهلى ، وأما صاع فها هو ذا . فلمزه المنافقون وقالوا : هذا رياء ، وان الله ورسوله غنيان عن صاع أبى عقيل فأنزل الله - تعالى قوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١٨)

وقيل نزلت فيه وفى عبد الرحمن بن عوف حين أتى للنبى - صلى الله عليه وسلم - بنصف ماله . . وفى رجل آخر من الأنصار جاء بنصف صبرة من تمر فقال المنافقون : « ماأغنى الله عن هذا ! (١٩)

---

(١٨) التوبة ٧٩

(١٩) أسد الغابة جـ ١ ص ٤٣٨

وكان علبة بن زيد من فقراء المسلين لامال له ولاراحلة ، وكان على شوق لأن يخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجاهدا ويتصدق بشيء فى سبيل الله . وتحير ماذا يصنع ؟

فخرج من الليل فصلى من ليلته ماشاء الله ، ثم بكى وقال : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى مأأتقوى به مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تجعل فى يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مايحملنى عليه ، وإنى أتصدق على مسلم بكل مظلمة أصابنى فى مال أو جسد أو غير ذلك . .

وأصبح علبة فشهد الصبح مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ
فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أين المتصدق هذه الليلة ؟
فلم يقم أحد . ثم قال : أين المتصدق ؟ فليقم .
فقام علبة فأخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما قال .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبشر فو الذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة(٢٠).

قصة البكّائين

لقد كان عُلبة هذا أحد البكائين من المسلمين . . فما قصة هؤلاء البكائين ؟

البكاءون هم جماعة من المسلمين الصادقين الذين يحرصون على الجهاد مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصدق وإخلاص . .

(٢٠) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢١٨ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٥

وجاءت الدعوة إلى هذه الغزوة فى ساعة عسرة وجهد ، وليس لدى هؤلاء رواحل تعينهم على السفر الطويل فى الحر الشديد ، وليس معهم من المال ما يستطيعون أن يعدوا به أنفسهم للجهاد . .

لقد كان المجاهد وقتئذ هو الذى يعد العدة للجهاد من زاد وراحلة وسلاح ، وليست الدولة مسئولة عن ذلك كما حدث فيما بعد . وهذا يدل على صدق أولئك المجاهدين الذين باعوا أرواحهم وأموالهم لله . . ونظر هؤلاء القوم إلى أنفسهم فإذا بهم لا يستطيعون الخروج مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحاجتهم إلى العدة وإلى ما يحملهم .

كانوا سبعة من المؤمنين الصادقين هم : سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف ، وعُلبة بن زيد الذى أشرنا إليه آنفاً ، وأبو ليلى عبد الرحمن ابن كعب من بنى النجار ، وعمرو بن الحمام من بنى سلمة ، وعبد الله ابن المغفل المزنى ، وهرمى بن عبد الله من بنى واقف ، وعرباض بن سارية الفزارى . . وذكر بعض الرواة أسماء غير هذه ، أو أحلوا أسماء مكان أسماء . . وبعضهم قال : هم سبعة أخوة أشقاء ، وليس فى الصحابة سبعة أخوة غير هؤلاء وهم : النعمان ، ومعيقل ، وعُقيل ، وسويد ، وسنان ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ـ أولاد مقرن المزنى ـ وعلى أى الروايات فقد جاء هؤلاء النفر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلين : يا نبى الله ، قد جئنا للخروج معك فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغز معك .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أجد ما أحملكم عليه .

وقال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج

إلى بعيرين بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده لبعد الطريق .

فتولى هؤلاء النفر وهم يبكون أسفاً على فوات فرصة الغزو منهم ، ونزل في ذلك قوله - تعالى

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٢١)

كان بكاء هؤلاء صادقاً يشهد بما في قلوبهم من رغبة قوية في الجهاد في سبيل الله . .

ورأى يامين بن عمير بن كعب النضرى - وهو من مسلمى أهل الكتاب من بنى النضير - عبد الله بن مغفل وأبا ليلى يبكيان - فقال لهما : ما يبكيكما ؟

قالا : جئنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه .

فأعطاهما ناضحاً له(٢٢)، فارتحلاه ، وزودهما شيئاً من تمر فخرجا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم(٢٣).

(٢١) التوبة ٩١ ، ٩٢

(٢٢) الناضح : الجمل الذى يستقى عليه الماء

(٢٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٣١

وفى يامين هذا نزل قوله ـ تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٢٤)

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هذه الآية نزلت فى عبد الله ابن سلام ، وأسد وأسيد ابنى كعب ، وثعلبة بن قيس ، وسلام بن أخت عبد الله بن سلام ، وسلمة ابن أخى عبد الله بن سلام ، ويامين ابن يامين . هؤلاء مؤمنو أهل الكتاب . . . هؤلاء مؤمنوا أهل الكتاب أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا رسول الله ، نؤمن بك وبموسى والتوراة وعزير ، ونكفر بما سوى ذلك .

فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آمنوا بالله ورسوله محمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب ورسول كان قبل .

فقالوا : نفعل ذلك ، فأسلموا (٢٥).

وكان هناك قوم غير هؤلاء البكائين قد تخلفوا أيضاً بسبب الجهد وقلة النفقة منهم أبو موسى الأشعرى .

وقد حدث أبو موسى عن نفسه قائلاً : أرسلنى أصحابى الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسأله لهم الحملان ، إذ هم معه فى جيش العسرة ، فقلت : يا نبى الله ، إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم .

---

(٢٤) النساء ١٣٦

(٢٥) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٦٨

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس عندى ما أحملكم عليه . . قالها رسول الله بشدة ، وكان الغضب يبدو عليه ـ قال أبو موسى : فرجعت حزيناً من منع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن مخافة أن يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد وَجِد فى نفسه علىَّ .

فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بالذى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادى فأجبته . فقال : أجب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوك . فلما أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : خذ هذين القرنين ، وهذين القرنين ، وهذين القرنين . لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد فقال : انطلق بهن إلى أصحابك ، فقل : إن الله أو إن رسول الله يحملكم على هؤلاء .

ـ فأخذها أبو موسى إلى أصحابه ـ

قال : فقلت : ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحملكم على هؤلاء ، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سألته لكم ، ومنعه لى فى أول مرة ، ثم إعطائه إياى بعد ذلك ، حتى لا تظنوا أنى حدثتكم شيئاً لم يقله .

فقالوا : والله إنك عندنا لمصدق ولنفعلن ما أحببت .

قال فانطلق ابو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا مقالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من منعه إياهم ثم إعطائه بعد ، فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء(٢٦).

---

(٢٦) دلائل النبوة للبيهقى ، البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٦

وفى هذه القصة دلالة على إصرار أبي موسى ـ رضى الله عنه ـ أن يكون الحديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقاً لا ريب فيه ، وقد خشى على قلوب أصحابه أن تتغير من جهته ، أو أن يظن واحداً منهم أنه حدثهم بغير الواقع . . نظراً لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : انه لن يحملهم ، ثم إنه بعد ذلك حملهم . . لقد خشى أبو موسى أن يظن أصحابه أنه لم يؤد الرسالة كما ينبغى . أو أنه قد أساء السماع أو أساء الأداء . . فصمم على أن يزيل هذا الظن عن نفوس أصحابه . . وجاء هؤلاء الأصحاب الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكروا له ذلك ، فقال : أنا ما حملتكم ، الله حملكم . .

المخلفون

وجاء بعض الناس يعتذرون عن الخروج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقعد قوم بدون عذر . . وفى هؤلاء نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ (٢٧)

ومن الأعراب رهط عامر بن الطفيل جاءوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا رسول الله ، لو غزونا معك أغارت الأعراب من طىء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا . فعذرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لقد قرئت كلمة « المعذرون » بالتخفيف والتشديد فمن قرأها بالتخفيف

---

(٢٧) التوبة ٩٠

فهمها على أن هؤلاء الذين قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عذرهم لأن المعْذَرْ هو الذى يقبل عذره .

ومن قرأها بالتشديد « المعذِّرون » فقد حملها على عدم قبول العذر وهؤلاء هم أعراب بنى غفار الذين جاءوا إلى النبى ـ صلى الله عليه. وسلم ـ يعتذرون إليه بغير عذر مقبول فلم يقبل عذرهم . هو من الفعل « عذَّر » وعذَّره تعذيراً ، أى وبخه وعاقبه على تقصيره .

ولكن قوماً تخلفوا لأعذار قاهرة قبلها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن للمنافقين عذر فى تخلفهم . واعتذروا بأعذار واهية أشار إليها القرآن الكريم وسجلها عليهم ، وبقيت غل عار وشنار فى أعناقهم الى يوم القيامة .

وكان هناك ثلاثة من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم تابوا عن تخلفهم . . . ولهم قصة ستتعرض لها إن شاء الله ـ تعالى ـ بعد .

أمثلة من اعتذارات المنافقين

كانت اعتذارات المنافقين يظهر فيها الادعاء والكذب ، فمن ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال للجد بن قيس : يا جد ، هل لك فى جلاد بنى الأصفر ـ يقصد الروم ـ فقال الجد : قد عرف قومى أنى مغرم بالنساء ، وانى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فلا تفتنى ، وأذَنْ لى فى القعود وأعينك بمالى فأعرض عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : قد أذنت لك .

ونزل قوله تعالى - :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (٢٨)

لم يكن للجد بن قيس عذر إلا نفاقه ، وكان نفاقه واضحاً ، وهو الذى امتنع عن البيعة تحت الشجرة فى الحديبية ، واختبأ خلف بعيره .

وكان الجد رئيساً فى قومه بنى سلمة ، فلما نزلت هذه الآية قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لبنى سلمة : من سيدكم يا بنى سلمة ؟

قالوا : جد بن قيس - غير أنه بخيل جبان .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - وأى داء أدوى من البخل ؟ بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور . وفى ذلك قال حسان بن ثابت :

وسُوِّد بشر بن البراء لجوده ... وحق لبشر بن البرا ان يُسَوَّدا

إذا ما أتاه الوفد اذهب ما له ... وقل : خذوه اننى عائد غداً (٢٩)

أما تسمية الروم ببنى الأصفر فلأن الحبشة غلبت مرة على الروم ،

---

(٢٨) التوبة ٤٩ ، ٥٠

(٢٩) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥٨

وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة فكنَّ صُفْراً لُعْساً[30]» .

واعتذر بعض المنافقين بشدة الحر ، وبعد الشقة وطول المسافة ، ووعثاء السفر ، فنزل قوله - تعالى -

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[31]

ونزل أيضاً قوله - تعالى -

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾[32]

إلى غير ذلك من الأعذار الواهية التى تكشفت عن نيات خبيثة ونفوس مريضة .

ولقد كان المنافقون يجتمعون فى بيت واحد من اليهود اسمه سُوَيلم - وهدفهم من الاجتماع تثبيط الناس عن الجهاد ، وبث الفرقة فى صفوف

(٣٠) اللعس : سواد يعلو شفة المرأة البيضاء ، وقيل : سواد فى حمرة

(٣١) التوبة ٤٢ ، ٤٣

(٣٢) التوبة ٨١

المسلمين ، وتخويفهم من الخروج فى هذا الحر الشديد للقاء قوم لا يمكن التغلب عليهم . فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه للقضاء على ما يدبرونه من مؤامرات فذهب طلحة مع أصحابه ، وهاجموهم فاقتحم الضحاك بن خليفة وقفز من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا .

تخلف عبد الله بن أبى

وخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ وكان عبد الله بن أبى بن سلول ، وهو زعيم المنافقين قد خرج أيضاً مصاحباً النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه المنافقون وهم كارهون .

كان هؤلاء المنافقون يرجفون فيما بينهم بهزيمة المسلمين شر هزيمة ، وكانوا يهمسون فى آذان بعضهم بأن جلاد بنى الأصفر مستحيل ، ولن يعود أحد من هؤلاء سالماً .

وفى اجتماعهم فى بيت سُويلم الذى أشرنا إليه كانوا يقولون ذلك ، بل كانوا يقولون : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنهم ـ يعنى أصحاب الرسول ـ غدا مقرنون فى الحبال ، يقولون ذلك إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . . فلما كثر منهم الكلام أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمهاجمة البيت عليهم . . كما ذكرنا .

ويبدو أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أرسل عمار بن ياسر إليهم أيضاً .

فقال له : أدرك القوم فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل لهم : بل قلتم كذا وكذا . .

فانطلق إليهم عمار - رضى الله عنه - فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذرون إليه وقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب . . وقد فضحهم الله بقوله :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (٣٣)

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى مناسبة أخرى فى غزوة تبوك أيضاً . روى قتادة قال : بينما النبى - صلى الله عليه وسلم - يسير فى غزوة تبوك وَرَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه ، فقالوا : انظروا ، هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بنى الأصفر ، فأطلعه الله - سبحانه على ما فى قلوبهم وما يتحدثون به .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : احبسوا على الركب ، ثم أتاهم فقال : قلتم كذا وكذا .

فحلفوا وقالوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب ، يريدون كنا غير مجدين .

قال عبد الله بن عمر : رأيت قائل هذه المقالة - وديعة بن ثابت - معلقاً بحقب ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يماشيها ، والحجارة تنكبه وهو يقول ؛ إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : أبالله ورسوله كنتم تستهزئون ؟

ووقف النبى - صلى الله عليه وسلم - عند ثنية الوداع لعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ودفع

---

(٣٣) التوبة ٦٥

الراية العظمى للزبير - رضى الله عنه - وأعطى راية الأوس لأسيد ابن حضير ، وراية الخزرج للحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواء أو راية .

ومن هذا المكان انسل عبد الله بن أبيّ بمن معه عائداً . وهو يقول : يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر الشديد والبلد البعيد ؟

يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال .

وكانت هذه خيرة الله . . . فما بقاء أمثال هؤلاء مع النبى - صلى الله عليه وسلم - بذى فائدة ، بل هو عبء على النبى والمسلمين . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فقال :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣٤)

وعلى الرغم من ذلك فمازالت بعض شراذم من المنافقين تصاحب

---

(٣٤) التوبة ٤٦ : ٤٨

المسلمين فى وجهتهم ، ولكنهم لا يريدون قتالاً ، ولا يبتغون تكثيراً للمسلمين ، وإنما يطلبون الغنيمة إن كانت ، وبث الفتنة لو أمكنهم ذلك .

الوالى على المدينة

واستخلف النبى - صلى الله عليه وسلم - على المدينة على بن أبى طالب - رضى الله عنه

قال الحافظ زين الدين العراقى فى ترجمة على بن أبى طالب : لم يتخلف على عن المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا تبوك ، فإن النبى - صلى الله عليه وسلم - خلفه على المدينة .

وكذلك روى عبد الرزاق فى مصنفه بسند صحيح عن سعد بن أبى وقاص ، قال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خرج إلى تبوك استخلف على بن أبى طالب على المدينة(٣٥).

وأرجف المنافقون قائلين : ما خلّف علياً إلا استثقالاً له وتخففاً منه ، فأخذ علىّ - رضى الله عنه - سلاحه ، ولحق بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وهو نازل بالجرف . فقال : يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى لأنك استثقلتنى وتخففت منى .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - كذبوا ولكن خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى » ؟

فرجع على - رضى الله عنه - إلى المدينة ، ومضى - صلى الله عليه وسلم - فى طريقه . لقد كان فى ذلك تكريماً لعلى - رضى الله عنه - وبياناً لمنزلته ،

---

(٣٥) شرح المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٦٩

وقمعاً للمنافقين ، وقطعاً لألسنة السوء .

ولا حجة للشيعة فى هذا الحديث بأنه نص فى الخلافة لعلى ، وأنه أوصى له بها . . فإنه كما استخلف علياً فى هذه الغزوة فقد استخلف غيره فى غزوات أخرى .

بل إن هناك روايات تقول إنه استخلف مع على ـ رضى الله عنه ـ محمد ابن مسلمة الأنصارى . وكان استخلاف على خاصاً بالأهل والذرية . . ولكنا نقول : بأنه لم تجر هذه العادة قبل ذلك . يعنى بأن يكون هناك خليفتان أحدهما على أهل النبى خاصة . . والمعهود أن يكون هناك خليفة واحد يقوم بشئون المدينة كلها ، وقد يكون معه آخر كعبد الله بن أم مكتوم ليؤم الناس فى الصلاة .

أما قوله : أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، فهو تشبيه يقتضى أن قوة الصلة بينهما كقوة الصلة بين الأخوين . وقد نفى التشبيه فى النبوة صراحة بقوله : غير أنه لا نبى بعدى .

وكان موسى ـ عليه السلام ـ حين مضى لميقات ربه قد استخلف أخاه هارون فى قومه . وقد أشار الحق إلى ذلك فى قوله

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (٣٦)

---

(٣٦) الأعراف ١٤٢

ويذكر بعض الرواة الحوار الذى دار بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى ـ كرم الله وجهه ـ بصيغة أخرى .

عن على ـ كرم الله وجهه ـ قال : خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة فخلفنى ـ أى فى غزوة تبوك ـ فقلت : يا رسول الله ، ماذا تقول قريش ؟ أليس يقولون : ما أسرع ما خذل ابن عمه وجلس عنه ؟ وأمر آخر أنى أبتغى الفضل من الله الذى يقول

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٣٧)

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما قولك أن تقول قريش : ما أسرع ما خذل ابن عمه وجلس عنه فقد قالوا : إنى ساحر وإنى كاهن وإنى كاذب . وأما قولك تبتغى الفضل من الله فلك بى أسوة ـ أى حيث تخلفت عن بعض مواطن القتال . أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ـ عليهما السلام(٣٨) ؟

---

(٣٧) التوبة ١٢٠

(٣٨) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٠٤

بعض المتخلفين يلحق بالنبي

وكان ممن تخلف عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبو خيثمة . واسمه : عبد الله بن خيثمة ، وقيل : بل اسمه مالك بن قيس بن ثعلبة بن العجلان من بني الخزرج .

ودخل أبو خيثمة على أهله يوماً في يوم حار ، فوجد امرأتيه ، كل واحدة في عريشتها في الحائط الذي يملكه أبو خيثمة ، قد رشت العريشة وأعدت الطعام وبردت الماء ، وأعدت من الطعام مالذ وطاب .

ونظر أبو خيثمة إلى امرأتيه وماصنعتا ثم قال ـ رضي الله عنه ـ ياسبحان الله . رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحر الشديد ، وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء؟ ماهذا بالنصف .

ثم قال : والله لاأدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهيئا لي زادا ففعلتا ، ثم جهز ناضحة فارتحل ، وقد أخذ سيفه ورمحه .

وخرج لايلوى على شيء حتى لحق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تبوك ـ وكان أبو خيثمة قد أدرك في الطريق صحابيا آخر يسير في أثر القوم هو عمير بن وهب ، فترافقا حتى دنوا من تبوك ، فقال أبو خيثمة لعمير : ان لي ذنبا فلاعليك ان تتخلف عني حتى آتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففعل .

ولما دنا أبو خيثمة ولمح المسلمون خياله من بعيد ، قالوا : هذا ركب مقبل . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كن أبا خيثمة .

فقالوا : يارسول الله هو والله أبو خيثمة فلما أناخ راحلته . أقبل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلماً .

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أولى لك ياأبا خيثمة »

وكلمة أولى لك تحمل معنى التهديد والوعيد ، وقد استعملها القرآن الكريم فى هذا المعرض حيث يقول : « أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى »(٣٩)

ولكن أباخيثمة دنا من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره الخبر واعتذر اليه ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيرا ودعا له بخير .

وقال أبو خيثمة فى ذلك شعرا يترجم به عن حاله :

لما رايت الناس فى الدين قد نافقوا أتيت التى كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدى لمحمد فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما
تركت خضيبا فى العريش وصرمة صفايا كراما بسرها قد تحمما
وكنت اذا شك المنافق أسمحت الى الدين نفسى شطره حيث يمما(٤٠)

وكان أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ على جمل مسن . . وأبو ذر هو جندب بن جنادة من بنى غفار ، وهو مشهور بكنيته ونسبته . أكثر من اسمه الذى اختلف فيه اختلافا كبيرا .

وحين أعيا به جمله ، وضعف عنه السير ، أخذ أبو ذر متاعه ووضعه على

(٣٩) القيامة ٣٤ ، ٣٥ وقيل : إن أولى اسم فعل ومعناها كما قال المفسرون : دنوت من الهلكة . هامش دلائل النبوة جـ ٥ ص ٢٢٣

(٤٠) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢٢٣ هامش ـ نقلا عن البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٨

ظهره ، وخرج يتبع أثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماشيا . وحده فى هذه الفلاة الموحشة التى لاظل فيها ولاثمر . ومازال يسير وعزيمته تستحثه وايمانه الصادق يقوده ويقينه القوى يحمله حتى دنا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو نازل فى بعض المنازل .

ونظر الصحابة سوادا مقبلا من بعيد . . فأخبروا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : هذا أبو ذر

وكان الصحابة قبل مجىء أبى ذر قد قالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يارسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : دعوه فسيلحقه الله بكم . .

وكان أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ مليئا بالخير ، يقول فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ماأقلت الغبراء ولاأظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر »

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفيه يقول أيضاً : أبو ذر فى أمتى على زهد عيسى بن مريم[41] وحين رآه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد جاء يمشى وحده وعلى ظهره متاعه وقد أعياه السفر قال « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده .

وصدقت نبوءة الذى لاينطق عن الهوى . فقد مرت الأيام ، وتولى عثمان ـ رضى الله عنه الخلافة ـ وكان معاوية فى عهده واليا بالشام .

فأغلظ أبو ذر على معاوية فى بعض الأمور ونصح للمسلمين بعدم الاكثار

---

(٤١) أسد الغابة جـ ٦ ص ١٠١

من متاع الدنيا . فشكاه معاوية لعثمان . فَنُفِيَ أبو ذر الى الربذة ، ولم يكن معه الا امرأته وغلامه .

وحضرته الوفاة فأوصى الزوجة والغلام قائلا : اذا مت فغسلانى وكفنانى ثم قفا على عرض الطريق ، فأول من يمر بكما قولا له هذا أبو ذر صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعينونا على دفنه ..

ومات أبو ذر ، وفعلت زوجته وغلامه به كما أوصى ـ فقد غسلاه وكفناه . وحملاه على قارعة الطريق ..

وتصادف أن كان عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فى رهط من أهل العراق فى طريقهم الى عمرة ، فوقف على المرأة والغلام وقد رأى الجنازة أمامه ..

فقال الغلام : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعينونا على دفنه .

فاستهل عبد الله بن مسعود يبكى وهو يقول : صدق رسول الله .. صدق رسول الله .. تمشي وحدك وتموت وحدك . وتبعث وحدك .. ونزل هو وأصحابه فواروه التراب ، وحدث أصحابه بخبره .

وروت أم ذر هذه القصة قائلة :
لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت ، فقال : مايبكيك ؟

قلت : ومالى لاأبكى وانت تموت بفلاة من الأرض ولابد لنا من معين على دفنك ، وليس معنا ثوب يسعك كفنا .

فقال لها : لاتبكى وأبشرى ، فإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لنفر أنا فيهم : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده جماعة من المؤمنين ، وليس من أولئك النفر أحد الا وقد مات ـ ولم يبق إلا أنا ـ وإنى أنا الذى أموت بالفلاة ، والله ماكذب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاكذبت ، فانظرى الطريق .

فقالت : قد ذهب الحاج وتقطعت السبل .

فقال : انظرى .

قالت : فكنت أشتد الى الكثيب فأقوم عليه ، ثم أرجع إليه فأمرضه فبينما أنا كذلك إذ أنا برجال على رواحلهم فلوحت لهم بثوب . فأسرعوا إلىَّ

فقالوا : مالك يأمة الله ؟

فقلت : رجل من المسلمين يموت تكفنونه .

قالوا : ومن هو ؟

قلت : هو أبو ذر

قالوا : صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

قلت : نعم .

فأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه فسلموا . فرحب بهم . وقال : أبشروا فإنكم عصابة من المؤمنين وحدثهم الحديث .

وقال : والله لو كان لى أو ـ لها مايسعنى كفنا ماكفنت الا فيه ، وإن أنشدكم الله والاسلام لايكفننى منكم رجل كان أميرا أو عريفا ، ولابريدا أو نقيبا .

ولم يكن منهم أحد سلم من ذلك الا فتى من الأنصار ، فقال : والله لم أصب مما ذكرت شيئا . . وإنى أكفنك فى ردائى هذا وثوبين معى من غزل أمى .

فمات فكفنه الأنصارى ودفنه هو والنفر الذين معه .

وقد يكون عبد الله بن مسعود قدم حينذاك بعد أن كفنه الأنصارى حتى لايكون هناك تعارض بين الروايتين . . ونعود بعد هذا الاستطراد القصير عن وفاة أبى ذر الى ماكنا فيه من الحديث عن غزوة تبوك . .

شروط وضعها النبى للخروج معه :

لقد حرص النبى - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة تبوك أن يبين للناس الوجهة التى سوف يخرج اليها على خلاف عادته فى ذلك ، حتى يتهيأوا لذلك ويعدوا أنفسهم لهذه الرحلة الطويلة . ولذلك أمر مناديا ينادى فى الناس : لايخرج معنا إلا مقو(٤٢). كما أمر الا يخرج أحد إلا مأذونا له من ولى أمره أو سيده إن كان عبدا .

والدليل على ذلك أنه رأى برأس ثنية الوداع عبدا لامرأة وهو متسلح . فسأله ، فقال : أخرج لأقاتل معك .

فقال له : ارجع لسيدتك فاستأذنها . . لأنه علم أنه خرج بغير إذن سيدته وهى مالكته وولية أمره ، فلابد من الحصول على إذنها فى الخروج ، ولو عصاها وخرج بدون إذنها فهو آبق . .

---

(٤٢) ذكره ابن منظور فى اللسان ، وقال : رجل مقو : ذو دابة قوية .

وخرج رجل على بكر صعب ـ أى جمل شديد ـ فصرعه بالسويداء[٤٣] فقال الناس : الشهيد ، الشهيد .

فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مناديا ينادى : يجب على كل رجل أن يكون على أهبة كاملة ، وأن يحسن اختيار جمله ، وأن يكون قادرا على قيادته ، لأنه إذا لم يكن على دراية من أمره ، عرض نفسه للخطر ، فكان موته بسبب إهماله وليس جهادا فى سبيل الله ، والله جل وعلا يقول :

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [٤٤]

وليس معنى الدعوة الى اتخاذ الدابة القوية أن تكون غير ذلول .. فغير الذلول ليست قوية بل هى شرسة وهى وبال على صاحبها وعبء عليه . والدابة القوية هى المرنة . التى تستجيب لرغبة صاحبها فى الإقدام والاحجام وفى الكر والفر .

وكان دليل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الغزوة علقمة الخزاعى ..

المرور على الحجر

ومر المسلمون فى طريقهم بديار ثمود التى يطلق عليها الحجر ـ وهو واد بين المدينة والشام . وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ألا يشربوا من المياه التى يجدونها ولا يستعملوا هذه المياه فى شىء من طعام أو عجن

---

(٤٣) السويداء : موضع على ليلتين من المدينة

(٤٤) البقرة ١٩٥

وطبخ . . حتى لايورثهم ذلك قسوة فى قلوبهم أو ضررا فى أبدانهم . وقال : لاتتوضأوا منه للصلاة ، وماكان من عجين عجنتموه فاعلفوه الابل ولاتأكلوا منه شيئا . .

وقال لهم أيضا : لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ماأصابهم إلا أن تكونوا باكين .

ثم قَنَّعَ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسه ـ أى لبس القناع ـ وأسرع فى السير حتى جاز الوادى

وكان بعض المسلمين قد سبق الى هذا المكان ولم يسمع ماأخبر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين . ويريقوا ذلك الماء . وأمر الناس أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح ـ عليه السلام ـ

وروى الحاكم بإسناد جيد عن جابر ـ رضى الله عنه ـ لما مر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحجر قال : « لاتسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، فكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، وكانت تشرب يوما ويشربون لبنها يوما ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهلكهم الله بها إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله ، وهو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ماأصاب قومه .[٤٥]

لقد علم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريق الوحى مكان البئر ومكان ورود الناقة وصرورها ، وأعلم أصحابه بذلك . وهذا أيضا من

---

(٤٥) شرح المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٧٣

دلائل النبوة ومعجزات الرسالة .

وكان المسلمون حين علموا بأنهم قريبون من ديار ثمود تسارع بعضهم اليها فأصدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحذيره الذى أشرنا إليه . .

روى البيهقى

قال : لما كانت غزوة تبوك تسارع قوم الى الحجر يدخلون عليهم . فنودى فى الناس : الصلاة جامعة .

قال رواة الحديث : فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ممسك ببعيره ، وهو يقول : علام تدخلون على قوم غضب الله ـ تعالى ـ عليهم فناداه رجل فقال : نعجب منهم يارسول الله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك ؟

رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدكم ، استقيموا وسددوا ، فإن الله ـ عز وجل ـ لا يعبأ بكم شيئاً ، وسيأتى الله ـ عز وجل ـ بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا(٤٦)

تحذير نبوى

وكما حذر النبى ـ ﷺ ـ أصحابه عن مياه ثمود والمرور بديارهم غير مبالين . حذرهم من ريح شديدة ستهب ، وأمرهم أن يأخذوا حذرهم . قال ـ فيما يرويه ـ ابن إسحاق : لا يخرجن أحد منكم الليلة الا ومعه

---

(٤٦) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢٣٥ ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ / ١٩٤

صاحب له . وعلل ذلك بأنه « ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم فيها أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله » .

وفعلا هبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح فألقته فى جبلى طيىء ، وكان الرجل قد قام يطلب بعيرا له ندَّ .

وقام رجل آخر يقضى حاجته فأصيب فى المكان الذى يقضى فيه حاجته .

وأخبر النبى - ﷺ - بذلك ، فقال : ألم أنهكم .

ثم دعا للذى أصيب فشفى ، وأما الآخر فأعادته طيىء للنبى - ﷺ - حين عاد الى المدينة (٤٧).

النبى يدعو لأصحابه ويرشدهم

لقد مر بنا أن النبى - ﷺ - دعا الله لأصحابه حين اشتد عطشهم ولم يعد لديهم ماء يشربون منه فأمطرت السماء عليهم ، فشربوا واستقوا وملأوا أوعيتهم ، وماجاوزت السحابة معسكرهم .

وحين رأى المسلمون ذلك ازداد إيمانهم بالله وحبهم لرسول الله ، وقال أنصارى لرجل كان معه من قومه ، وكان يتهم بالنفاق : ويحك قد ترى مادعا - ﷺ - فأمطر الله علينا السماء .

فقال المنافق : إنما مطرنا بنوء كذا وكذا .

فأنزل الله - تعالى قوله -

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤٨)

---

(٤٧) شرح المواهب اللدينة جـ ٣ ص ٧٣

(٤٨) الواقعة ٨٢

لقد كان المنافقون يَرَوْنَ الآية تلو الآية تؤكد صدق رسالة النبى - ﷺ - ولا يزدادون مع ذلك الا عتوا ونفورا . .

ويصدد نزول الآية المتقدمة أشار العلماء إلى أقوال حولها .

جاء فى صحيح مسلم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : مطر الناس على عهد النبى - ﷺ - فقال النبى - ﷺ - : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا - أى المؤمنون - هذه رحمة الله ، وقال غيرهم : لقد صدق نوء كذا وكذا .

فنزلت الآيات

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤٩)

وروى أن النبى - ﷺ - خرج فى سفر ، فعطشوا ، فقال لأصحابه : « أرأيتم إن دعوت الله لكم فسقيتم لعلكم تقولون : هذا المطر بنوء كذا ؟

فقالوا : يارسول الله ماهذا بحين الأنواء

فصلى ركعتين ودعا ربه ، فهاجت ريح ، ثم هاجت سحابة فمطروا .

---

(٤٩) الواقعة ٧٥ : ٨٢

فمر النبي ـ ﷺ ـ ومعه جماعة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول : سقينا بنو كذا ، ولم يقل : هذا من رزق الله . فنزلت الآية :

﴿وتجعلون رزقكم انكم تكذبون﴾

وهذا يعنى أن شكرهم لله على رزقه إياهم أنهم يكذبون بالنعمة ، ويقولون : سقينا بنوء كذا ، كما يقال : جعلت إحسانى اليك إساءة منك إلىَّ وجعلت إنعامى عليك أن اتخذتنى عدوا .

وللامام الشافعى ـ رحمه الله ـ تعبير بديع يدل على ذوق رفيع قال : لا أحب أحدا أن يقول : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وإن كان النوء عندنا ، فالنوء لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر ، والذى أحب أن يقول :

مطرنا وقت كذا ، كما تقول : مطرنا شهر كذا . ومن قال : مطرنا بنوء كذا وهو يريد أن النوء أنزل الماء ـ كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله ـ فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتب .

وفى التعبيرات الجارية على اللسان مايوهم الخروج عن جادة الصواب كقولك : وهبت الطبيعة كذا ، وكست الطبيعة الأرض سندسا . . فمثل هذه التعبيرات لابد أن تحمل على التجوز لأنها لو حملت على الحقيقة لأدت إلى ضلال صاحبها ، وذهابه مذهب الملاحدة الذين لا يعترفون بوجود إله هو الذى خلق هذه الطبيعة ومنحها هذا الجمال الذى نرى مظهره فى كل شىء . . . ولعلماء البلاغة فى توجيه أمثال هذه العبارات مجال وأى مجال .

وقد علم النبى - ﷺ - أن اقتلاع مثل هذه التعبيرات من أفواه الناس وأذهانهم أمر عسير ، ولذلك نبه إلى خطئها وضرورة تصويبها وقال فى ذلك : ثلاث لن يزلن فى أمتى : التفاخر فى الأحساب والأنواء والنياحة » .

ورواه مسلم بقوله « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر فى الأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »

وسمع النبى - ﷺ - فى بعض أسفاره رجلا يقول : مطرنا ببعض عثانين الأسد »(٥٠) .

فقال النبى - ﷺ - : « كذبت ، بل سقيا الله عز وجل »(٥١)

ولئن كان استسقاء النبى - ﷺ - لأصحابه قد أثمر باستجابة الله له سريعا ، فأمطرت السماء مطرا لم يتجاوز معسكرهم .. فهناك آية أخرى حدثت ، سد الله بها جوعهم ، كما أروى ظمأهم .

روى أبو هريرة - رضى الله عنه - قال : لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، فقالوا : يارسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادَّهنا (٥٢).

فقال رسول الله - ﷺ - : افعلوا .

فجاء عمر - رضى الله عنه - فقال : يارسول الله ، إن فعلت قل الظهر - أى قلت الابل التى نحتاج اليها لتحملنا ..

ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، وادع الله لهم فيها بالبركة ، لعل الله

---

(٥٠) عثانين الأسد : الجبهة والذراع .

(٥١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٢٨ ومابعدها سورة الواقعة

(٥٢) أى اتخذنا الدهن من شحوم الابل التى تذبحها

ـ عز وجل ـ ان يجعل فى ذلك ـ يعنى أن يجعل فى ذلك بركة أو خيراً ـ .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ نعم ،

فدعا بنطع (٥٣) فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم ـ أى بما بقى منها ـ فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ، ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة خبز حتى اجتمع على البساط من ذلك شىء يسير . فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ بالبركة ، ثم قال لهم :

خذوا فى أوعيتكم ، فأخذوا فى أوعيتهم حتى ماتركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه .

فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضله ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك الا وجبت له الجنة . .

قال البيهقى : والأحاديث كلها متفقة فى دعائه فى بقية الأزواد وإجابة الله ـ تعالى ـ دعاءه بظهور البركة فيها حتى ملأوا أوعيتهم وبقيت بقية(٥٤) .

عين تبوك وافاضتها بالماء

وروى مسلم فى صحيحه ، ومالك فى موطئه من حيث معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أنهم وردوا عين تبوك ، وهى تبضّ(٥٥) بشىء من ماء ، وأنهم غرفوا منها قليلا قليلا . .

---

(٥٣) نطع : بساط

(٥٤) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢٢٩

(٥٥) تبض : تقطر وتسيل أو تبرق

وكان النبى - ﷺ - قد أخبر المسلمين قائلا : « إنكم ستأتون غداً عين تبوك ، وانكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى .

قال : فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبضُّ بشىء من ماء ، فسألهما - ﷺ - : هل مسستما من مائها شيئا ؟

قالا : نعم . فقال لهما ألم أنْهَ عن ذلك ثم قال لهما ماشاء الله أن يقول ، ثم غرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شَنٍّ(٥٦)، ثم غسل رسول الله - ﷺ - به وجهه ويديه ومضمض ، ثم أعاده العين فجرت بماء كثير ، فاستقى الناس .

ثم قال - ﷺ - لمعاذ : يامعاذ ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ماههنا ملىء جنانا (٥٧) . .

وقد كان ، وها هى ذى تبوك الآن ، وهى قطعة من المملكة العربية السعودية تزدهر فيها حضارة وعمران ليس له مثيل .

ناقة رسول الله تضل

قال البيهقى : ثم إن رسول الله - ﷺ - سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج بعض أصحابه فى طلبها ، وعند رسول الله - ﷺ - عمارة بن حزم الانصارى وهو ممن شهدوا العقبة من الأنصار . وكان مع

---

(٥٦) الشن - بفتح الشين وتشديد النون : القربة

(٥٧) شرح المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٧٥

عمارة فى رحله منافق اسمه زيد بن اللصيت ـ كان يهوديا من بنى قينقاع فأسلم ، ولكنه كان منافقا ، جمع الى ثقافة خبث اليهود وغشهم . فقال زيد هذا حين قال الناس ـ إن ناقة رسول الله ضلت : هذا محمد يخبركم أنه نبى ويخبركم بأمر السماء ـ وهو لا يدرى أين ناقته ؟

فقال النبى ـ ﷺ ـ : إن رجلا قال : هذا محمد يخبركم أنه نبى ويخبركم خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته . . . والله إنى ما أعلم الا ماعلمنى الله ، وقد دلنى الله عليها . هى فى الوادى قد حبستها الشجرة بزمامها فانطلقوا فجاءوا بها .

فأقبل عمارة على زيد يطعنه فى عنقه ، ويقول : ياعباد الله إن معى فى رحلى داهية وماأشعر ؟ اخرج ياعدو الله من رحلى ولا تصحبنى . .

وقال بعض الرواة : إن زيدا هذا تاب بعد ذلك ، وقال بعضهم : مازال على نفاقة حتى هلك به(٥٨).

---

(٥٨) المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٧٥ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢٣٢ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٩٨

نجاح عظيم فى تبوك

انسحاب الروم :

وصل النبى - ﷺ - إلى تبوك بعد رحلة شاقة عنيفة ، يقود جيشا جرارا ، قدره بعض الرواة بسبعين الفا ، وبعضهم بأقل من ذلك ، وهو على أقل الفروض ثلاثون ألف مقاتل ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس .. هى أكبر حملة جهزها المسلمون فى حروبهم ..

وعلى الرغم من وعثاء الطريق ومشقة السفر لم يَشْكُ المسلمون ولم تضعف عزيمتهم ، كانت بركة النبى - ﷺ - تصحبهم ، وكانوا ينظرون اليه - وهو المثل الأعلى - فتمتلىء نفوسهم يقينا وأملا ..

وقد ظهرت هذه البركة فى إمداد العناية الالهية لهم بالمعونات المادية التى ألمحنا اليها ، من نزول المطر وفيضان الماء من البئر الناضبة لسقيهم ، ومن تكثير الطعام الحاصل ببركة دعاء النبى - ﷺ - حتى ملأ الصحابة أوعيتهم ، بعد أن كادوا يذبحون إبلهم من شدة الجوع ..

وما ان وصلت طلائع هذا الجيش إلى تبوك ، حتى كان الروم ومن معهم من القبائل العربية الموالية لهم قد انسحبوا الى الشمال ..

لقد بلغتهم أنباء عن ضخامة الجيش الاسلامى وقوة معنوياته ، فآثروا السلامة ، وبذلك تحققت قدرة السلاح الموهوب للنبى - ﷺ - وهو سلاح الرعب . الذى أخبر عنه بقوله : نصرت بالرعب مسيرة شهر .

كان النبى - ﷺ - يسير ليلا ، ويستكن نهارا للتخلص من الحر الشديد فى الصحراء القاحلة . حتى وصل الى تبوك فلم يجد أحدا من الروم فى

لقائه . فقرر البقاء بقواته الرئيسية فى مكانه . . . وكان هذا أول علامات النصر . .

السيطرة على المنطقة

وكان لابد من استثمار هذا النصر لصالح المسلمين . فقرر إخضاع المنطقة للنفوذ الاسلامى . فوجه رسالة الى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة (٥٩) يبلغه فيها أن المنطقة أصبحت خاضعة للمسلمين .

وفعلت هذه الرسالة فعلها فى نفس يوحنا ، فأقبل بنفسه إلى النبى - ﷺ - . وقدم له الهدايا والطاعة . .

وأقر يوحنا بالجزية وقدرها ثلاثمائة دينار كل عام . وكتب له النبى - ﷺ - وثيقة صلح هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ، ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد رسول الله ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه لا يحل أن يمنعوا مايريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » .

وكان هذا ظفرا عظيما - نظرا لما كانت تمثله هذه المدينة من مكانة دينية وسياسية ، وماتحتله من موقع مهم .

---

(٥٩) أيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلى الشام ، وهى آخر الحجاز وأول الشام .

مكانة أيلة :

كانت أيلة فى الزمن القديم ذات شأن عظيم فى تجارة السفن وفى تجارة القوافل ، لأن موضعها فى أقصى خليج العقبة كان ملتقى القوافل التى كانت تذهب من مصر إلى أواسط بلاد العرب ، وكذلك القوافل التى كانت تتجه من الموانىء الفينيقية الفلسطينية الى جنوبى بلاد العرب . . ولهذا حاول بنو إسرائيل دخولها . . وقد دخلها داود عليه السلام ثم استولى عليها الروم سنة ١٠٥ م وضموها الى ولايتهم العربية . حتى اصبحت جزءاً من ولاية فلسطين فى القرن الرابع الميلادى . .

وخضعت أيلة بعد ذلك لنفوذ الأمراء الغسانيين بعد أن تضعضعت قوة بيزنطة على الثغور .

وبمصالحة النبى ـ ﷺ ـ ليوحنا صاحب أيلة انتشر فيها الرخاء . .

ومازالت أيلة تحتل مركزها المهم حتى الآن . .(٦٠)

وقد أراد صاحب أيلة أن يؤكد صلحه مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأهداه بغلة بيضاء ، ورد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التحية بأحسن منها فكسه بُرْداً .

وقال جابر ـ رضى الله عنه ـ رأيت يوحنا بن رؤبة يوم أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليه صليب من ذهب وهو معقود الناصية ، فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبأ الصليب وأومأ برأسه ، فأومأ

---

(٦٠) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٥ صـ ٣٥٤

إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده أن ارفع رأسك ، وصالحه يومئذ وكساه بردا يمنية ، وأمر له بمنزل عند بلال ، وذكر الواقدى أن أبا العباس عبد الله ابن محمد السفاح اشترى ذلك البرد ـ بعد ذلك بثلثمائة دينار .

مصالحة أهل أذرح والجرباء

وسمع أهل أذرح وأهل الجرباء بمصالحة يوحنا صاحب أيلة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسارع هذان الزعيمان الى طلب الصلح أيضا مقرين بأداء الجزية .

وأذرح اسم بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان ، والجرباء ـ بالجيم المفتوحة والراء الساكنة ـ موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام .

كان فى أذرح يوم خضعت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مائة أسرة على أقل تقدير ، وهو عدد بالنسبة لتعداد القرى فى ذلك الوقت ليس بالقليل . وازدادت شهرة هذا المكان فيما بعد حين أرسل الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ موافقته على الصلح مع معاوية من هذا المكان وقد أصبح محلة مشهورة . .

واشتهرت أذرح أيضا بالتحكيم الذى عقد فيها عندما اتفق المسلمون فى صفين على اختيار مكان يتوسط الشام والعراق مثل أذرح أو دومة الجندل ، فاستقر الرأى على الاجتماع فى أذرح لكثرة مياهها وقربها من زعماء المدينة الذين دعاهم معاوية .

أما جرباء وقد تقصر فيقال : جربى ـ فهى بلد على الطريق الرومانى القديم من بصرى إلى بحر القلزم ، على مسيرة ساعة إلى الشمال من أذرح .

وكان أهل جربى يدينون بالمسيحية ، ولم يكونوا يهودا كما روى ياقوت فى معجمه .

وبين جرباء وأذرح مسيرة ثلاث ليال .

وكتب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكل من أذرح وجرباء كتابا بالصلح ، وهو لايخرج على النمط الذى كتب به عهد أهل أيلة .

بعث خالد إلى دومة الجندل

كانت غزوة تبوك فى الواقع فرصة ذهبية لاخضاع القبائل التى تعيش فى هذه المنطقة وضمها إلى حظيرة الإسلام ، وكانت الأماكن الهامة فى المنطقة هى أم رشرش ـ قرب العقبة الحالية ـ وجرباء ، وأذرح ، ومكنة ، وجميع هذه المناطق تقع على امتداد خليج العقبة .

وقد رأينا كيف أقبل زعماء أيلة وجرباء وأذرح لطلب الصلح وأداء الجزية .

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

ولكن كانت هناك منطقة استراتيجية أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إخضاعها هى منطقة دومة الجندل(٦١) ويطلق عليها الآن اسم « منطقة الجوف » وكان يحكم هذه المنطقة وال اسمه « أكيدر بن عبد الملك » يدين بالنصرانية. وينتمى الى قبيلة كندة ، وكان مشهورا بحبه للصيد فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد فى أربعمائة فارس ، وأمره أن يأسر حاكمها وقال له : إنك سوف تجده يصيد البقر .

---

(٦١) دومة الجندل : حصن وقرى من طرف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال ، يقال : سميت بذلك على اسم دومة بن إسماعيل ـ عليه السلام ـ

وصل خالد إلى مدينة « دومة الجندل » المسورة فى ليلة مقمرة صائفة من شهر تشرين عام ٦٣٠ م ، منتصف شعبان من العام التاسع الهجرى .

ولم يكد خالد ينشر قواته قرب المدينة حتى فتحت أبوابها ، وخرج أكيدر مع نفر من أصحابه على خيولهم ، وهم يحملون أسلحة الصيد السائدة فى تلك الأيام .

كان خروج أكيدر مصادفة تصدق خبر النبى - صلى الله عليه وسلم - حين قال لخالد : إنك ستجده يصيد البقر . .

أما كيف تم ذلك فإليك مايرويه ابن إسحاق وابن سعد . .

كان أكيدر على سطح له ، ومع امرأته الرباب ، وأمامها قينة تغنيها ، وقد أخذ الشراب منه .

ونزل أكيدر من حصنه ، فأسرج له فرسه ، وخرج هو وأخوه حسان ، فى نفر من أهل بيته ومملوكين . . فتلقتهم الخيل ، فشدوا عليهم ، فأسر أكيدر . . ولم يقتله خالد ، لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان قد أمره بعدم قتله .

ولكن أخاه حسانا قاتل فقتل ، وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فأخذه خالد ، عملا بقانون : من قتل قتيلا فله سلبه .

وبعث خالد بالقباء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا .

وهرب من كان مع أكيدر وأخيه إلى الحصن وأغلقوه وراءهم ..

ولكن خالدا أصر على فتح الحصن .. وحين رأى قوم أكيدر أنه أسير فى أيديهم قرروا فتح الحصن .. وصالحهم خالد على ماعرضه أكيدر عليه .

فقد قال أكيدر لخالد : إن شئت حكمتك وإن شئت حكمتنى .

فقال خالد : بل نقبل منك .

فصالحه على ألفى بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح . على أن ينطلق به وبأخيه الآخر الذى لم يقتل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفتح الحصن ، وأخذ خالد ماصالح عليه القوم . وانطلق بأكيدر وبأخيه مضاء بجير إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال فى ذلك الشاعر الطائى :

تبارك سائق البقرات إنى رأيت الله يهدى كل هاد
فمن يك حائدا عن ذى تبوك فإنا قد أمرنا بالجهاد

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لبجير : لا يفضض الله فاك . فأتت عليه تسعون سنة ماتحركت له سن (٦٢)

وقد كان ذلك ببركة دعاء النبى - صلى الله عليه وسلم - له .

وبعض الرواة يعتبر أكيدر من الصحابة . ويقولون إنه أسلم ، ولكن ذلك فيه تجوز كبير . وقد ذكره ابن الاثير فى كتابه « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ولكنه علق على ذكره بما يفيد أنه ليس صحابيا .

---

(٦٢) المواهب اللدنية جـ٣ صـ٧٧ ، اسد الغابة جـ١ صـ١٩٦ ، دلائل النبوة جـ٥ صـ٢٤٨

ذلك أن جمهور الرواة قالوا : إنه لم يسلم وبقى على نصرانيته يؤدى الجزية .

والذين يقولون إنه أسلم يقولون : إنه ارتد بعد إسلامه فى فتنة الردة . ومنع ماكان يؤديه من الجزية . فلما سار خالد من العراق الى الشام قتله .(٦٣) وعلى ذلك فلايعد صحابيا أيضا .

وذكر بعض الرواة أن أبا بكر كان مع خالد فى بعثه إلى أكيدر ، وأن أبا بكر كان أميرا على المهاجرين ، وأن خالدا كان أميرا على الأعراب . وقالوا : إنه قد حدث حوار بين أبى بكر ونصارى دومة الجندل بين لهم فيه أن ذكر النبى - صلى الله عليه وسلم - وارد عندهم فى كتبهم ولكنهم ينكرون ذلك ، فبين لهم موضع ذلك فى كتبهم(٦٤)

رسالة إلى هرقل :

ويذكر بعض الرواة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أرسل من موضعه فى تبوك رسالة إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبى أيضا الذى حمل رسالته الأولى التى أشرنا إليها سابقا .

وقال هؤلاء الرواة : إن هرقل حين بلغته الرسالة قارب الاجابة ولم يجب خوفا على ملكه . وقالوا إنه أمر مناديا ينادى ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه ، ولكن الأجناد دخلت فى سلاحها وأطافت بقصره وهمت به تريد

---

(٦٣) أسد الغابة ١ / ١٣٥

(٦٤) دلائل النبوة جـ ٥ صـ ٢٥٣

قتله ، فأرسل إليهم يقول لهم : أردت أن أختبر صلابتكم فى دينكم ، فقد رضيت عنكم ، فرضوا عنه .

وكتب كتابا وأرسله للرسول مع دحية يقول فيه : إنى مسلم ولكنى مغلوب على أمرى ، وأرسل الى النبى - صلى الله عليه وسلم - هدية .

فلما قرأ النبى - صلى الله عليه وسلم - كتابه قال : كذب عدو الله . ليس بمسلم ، هو على نصرانيته . وقبل هديته وقسمها بين المسلمين . وكان لايقبل هدية مشرك محارب ، فقبل هذه الهدية لأنها فىء ، ولذلك قسمها على المسلمين .(٦٥)

وقد سبق أن علمنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أرسل رسالة إلى هرقل ، ورأينا الحوار الذى دار بين هرقل وأبى سفيان . .

تعليق على رسائل النبى - صلى الله عليه وسلم -

لقد استطاع النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يستثمر هذه الغزوة استثمارا ناجحا حقق الأهداف العليا للاسلام . وبرسائل النبى - صلى الله عليه وسلم - التى كتبها لهرقل وغيره من الملوك سابقا ولاحقا تحققت عالمية الإسلام .

هذا وإن كنا قد أشرنا آنفا إلى هذه الرسائل فى موضعها إلا أن المناسبة هنا تقتضى منا أن تذكر تعليقا قرأناه لبعض العلماء حول رسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل ، وجعل عنوان التعليق : عالمية الاسلام فى رسائل النبى .

---

(٦٥) روى هذا الخبر ابن حبان فى صحيحه عند أنس

وقد كان الحامل لرسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المرتين دحية ابن خليفة الكلبى . وهو الصحابى الجليل الذى كان جبريل عليه السلام - ينزل أحيانا فى صورته .

جاء فى التعليق المشار اليه : أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الملوك الذين كانوا يحكمون فى زمانه سفراء يحملون كتبا منه اليهم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، موقعا عليها بخاتم نقشه : « محمد رسول الله » .

وكان قول الله - تعالى -

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ (٦٦)

حافزاً للنبى ﷺ جعله يباشر هذه المهمة على أوسع نطاق ، وقد تحقق وعد الله - سبحانه - فظهر الإسلام على كل الأديان ، وتغلب على كل الممالك التى أرسل إليها النبى - ﷺ - السفراء ، وذلك من أعظم الدلائل على عالمية الدعوة الإسلامية ، وهيمنة كتابها - الذى نزل على رسول الله - ﷺ - من قبل الله - عز وجل - على سائر الكتب المنزلة . .

وعلى البشرية أن تتأمل كتب النبى - ﷺ - إلى الملوك والأمراء لندرس وسيلة عظيمة من وسائل الدعوة إلى الله ، ومسئولية الداعى والمدعو . .
وقد ذكرنا قبل ذلك أنه قد حدث نقاش بين هرقل وبين أبى سفيان

---

(٦٦) سورة التوبة ٣٣

ـ وكان أبو سفيان فى رحلة تجارية إلى الشام ، ولم يكن قد أسلم بعد . . . ودار هذا النقاش حول النبى ـ ﷺ ـ واقتنع هرقل على إثر هذه المحاورة بصدق النبى ـ ﷺ ـ فاستدعى دحية وقال له : إنى لأعلم أن صاحبك بنى مرسل ، وهو الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا ، ولكننى أخاف الروم على نفسى ولولا ذلك لاتبعته فاذهب إلى الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم فهو أعظم مكانا فى الروم منى ، وأفضل قولا منى عندهم ، وانظر ما يقول .

قال المعلق : وقد كان دحية بن خليفة الكلبى يحمل رسالة من النبى ـ ﷺ ـ إلى الأسقف أيضاً فذهب إليه وأعطاه الرسالة وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام على من آمن ، أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله ألقاها إلى مريم الزكية ، وإنى أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . . والسلام على من اتبع الهدى »

فلما قرأ الأسقف الكتاب أخذ بمجامع قلبه ، وقال لدحية : صاحبك والله نبى مرسل نعرفه فى صفته ، ونجده فى كتابنا باسمه ، ثم ألقى ثيابا كانت عليه سوداء ، ولبس ثيابا بيضاء ، ثم أخذ عصاه ثم خرج على الروم وهم مجتمعون فى الكنيسة فقال : يامعشر الروم ، إنه قد جاءنا كتاب أحمد يدعونا فيه إلى الله وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه فقتلوه .

فرجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر ، فقال : قد قلت لك إنا نخافهم على

انفسنا . . الأسقف والله كان أعظم منى[٦٧] . . ونستخلص من ذلك عدة حقائق منها :

● أن الرسائل النبوية كانت للملوك والأمراء الذين يعدون المنافذ الأساسية المهمة لقارات آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ومنها هذه الرسائل التى أرسلت إلى ملك الروم وأسقفه .

● وهى رسائل موجهة إلى كبار القوم وعظمائهم بوصفهم ممثلين للشعوب التى يحكمونها ، وفيها تحميل المسئولية لهم بالنسبة لشعوبهم بدليل قوله مثلا فى رسالة هرقل : « فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين »

● إن فى ذلك دليلا واضحاً على أن تبعة الحاكم ثقيلة ، فبكلمة منه يستطيع توجيه شعبه إلى ما يريد ، والناس على دين ملوكهم ، وإذا صلح الراعى صلحت الرعية وإذا فسد الراعى فسدت الرعية ، وصدق الله العظيم إذ يقول

« واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »[٦٨]

ومعنى أمرنا مترفيها ، أى أمرناهم بالصلاح والتقوى فلم يستجيبوا لذلك وآثروا الفسق والفجور ففسقوا فاتبعتهم رعاياهم فى ذلك .

---

(٦٧) د . محمد حسنين أحمد فى مقال له بعنوان « عالمية الاسلام فى رسائل النبى » بمجلة منبر الاسلام عدد « ذى الحجة ١٤١٠ هـ »

(٦٨) الاسراء ١٦

ولا يغرنك حيصة رعية هرقل عليه فلو أراد إسكاتهم لسكتوا ، والملوك عادة تحيط أنفسها بسياج من الحفظة يلبون إشاراتهم وينفذون أوامرهم بل ويموتون فى سبيل الدفاع عنهم . ولكن هرقل آثر السلامة ولم يرد أن يتعرض لتجربة قد توغر عليه الصدور . ولو كان مؤمنا حقا ـ كما زعم ـ لأمكنه أن يخلص من هذه الأصوات التى ارتفعت بالنكير عليه ومن السهل عليه إخمادها أو إقناعها ، ولكن الله لم يرد له الهداية . .

ولو كان يميل إلى الحق ـ كما زعم ـ فلماذا حارب الدعوة الإسلامية وجرد لها الجيوش فيما بعد ؟؟

لقد كان إخبار النبى ـ ﷺ ـ عنه بأنه كاذب فى ادعائه الإيمان هو الحق الذى لا ريب فيه .

ومن الحقائق المستخلصة أيضا أن إرسال النبى ـ ﷺ ـ كتبه إلى هؤلاء الملوك الذين يفوقون المسلمين فى العدد والعدة ، والذين يمثلون قوى العالم المعروف فى قاراته الثلاث ـ قد حدث فى وقت لم يطمئن فيه كل الاطمئنان على دعوته بين العرب .

حقا لقد فتح مكة ودانت الجزيرة العربية بالإسلام كلها تقريباً ، ولكن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوب الجميع ، ومازال هناك منافقون وأعراب نهابون وأقوام انتهازيون . .

ولكنه مع ذلك يؤمن تماماً بأن دعوته عامة وشاملة وأنه مكلف حتما بإبلاغها للناس كافة .

وكانت الآية التى ذكرها النبى - ﷺ - فى رسائله وهى قوله - تعالى -

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٦٩)

دعوة لأهل الكتاب - اليهود والنصارى - إلى الإيمان بالدين الحق - دين الإسلام - فهو رسالة الماضى والحاضر والمستقبل ، رسالة الأنبياء والرسل من لدن آدم حتى نبينا محمد - ﷺ - قال - تعالى - :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (٧٠)

● وتشير هذه الرسائل أيضا إلى أن رسالة الاسلام هى رسالة التحرر من عبودية الناس بعضهم لبعض . لقد جاء الإسلام ليرفع رأس الإنسان من الخضوع لأحد إلا الله ، وليخلصه من قيود الذل للناس التى أثقلت خطاه ، ومن اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله . . . قال عدى بن حاتم للنبى - ﷺ - حين قرأ قوله تعالى -

---

(٦٩) آل عمران ٦٤

(٧٠) الشورى ١٣

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ (٧١)

قال عدى : إنهم لم يعبدوهم .

فقال النبى - ﷺ - : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فذلك عبادتهم إياهم .

وقال النبى - ﷺ - : يا عدى ، ما تقول ؟ أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟

أيضرك أن يقال : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم إلها غير الله ؟

ثم دعاه إلى الإسلام . فأسلم وشهد شهادة الحق . . قال عدى : فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون . (٧٢)

عودة المسلمين

كانت مدة إقامة المسلمين فى تبوك عشرين يوما . .

انتظروا فى خلالها جيوش الروم التى لم تصل ، وأمنوا حدودهم الشمالية بعقد المعاهدات مع سكانها ، ودعموا هيبة الإسلام فى نفوس القبائل ،

---

(٧١) التوبة ٣١

(٧٢) من مقال الدكتور محمد حسنين أحمد ، وقد رجع فيه الى تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٣٤٨ ، وإلى الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ صـ ١٨ وإلى مكاتيب الرسول - لعلى بن حسين على الأحمدى جـ ١٣ .

وعملوا على حماية حرية نشر العقيدة الإسلامية فى تلك الأرجاء . . . لمّا أنجزوا ذلك كله تحركوا عائدين الى المدينة المنورة بعد رحلة مظفرة . . .

فى الطريق إلى المدينة

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد استشار أصحابه فى أن يتقدم وراء تبوك فقال له عمر ـ رضى الله عنه ـ يا رسول الله ، إن كنت أمرت بالمسير فسر .

فقال ـ ﷺ ـ : لو أمرت بالمسير لم أستشركم فيه ـ فقال عمر ـ : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بها مسلم ، وقد دنونا ، وأفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً ؟

واستجاب النبى ـ ﷺ ـ لرأى عمر . . وقرر العودة . وذكر الرواة أيضا أن جبريل أمره بالرجوع بناء على أمر الله ـ تعالى ـ وقال له : عد الى المدينة فإن فيها محياك ومماتك ومنها تبعث . فرجع النبى ـ ﷺ ـ فقال جبريل : سل ربك فإن لكل نبى مسألة . ـ وكان جبريل ناصحاً والنبى له مطيعاً ـ

فقال النبى ـ ﷺ ـ : فما تأمرنى أن أسأل ؟

فقال جبريل : قل :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ ﴿٨٠﴾ (٧٣)

قال بعض العلماء : وفى هذا دليل على أن هذه الآية وما قبلها من الآيات ـ نزلت فى هذه الغزوة .

---

(٧٣) الاسراء ٨٠

وفى طريقه - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة كان ينزل فى منازل للصلاة ، فكل مكان نزل فيه وصلى ، أصبح مكانه الآن مسجدا مشهورا وقد عد بعضهم هذه المساجد وذكر أنها سبعة عشر مسجداً

قال ابن هشام فى سيرته : هى مسجد بتبوك ، ومسجد بثنية مدران ، ومسجد بذات الزراب ، ومسجد بالأخضر ، ومسجد بذات الخطمى ، ومسجد بألاء ، ومسجد بطرف البتراء ، ومسجد بالشق - شق تارا - ، ومسجد بذى الجيفة ، ومسجد بصدر حَوْضَى ، ومسجد بالحجر ، ومسجد بالصعيد ، ومسجد بالوادى ، - وادى القرى - ومسجد بالرقعة من الشُقة - شقة بنى عذرة ، ومسجد بذى المروة ، ومسجد بالفيفاء ، ومسجد بذى خشب . (٧٤)

وواضح أن هذه كلها منازل بين تبوك والمدينة المنورة .

مؤامرة ضد النبى

واجتمع رأى بعض المنافقين الذين صحبوا النبى - ﷺ - فى هذه الغزوة وكانوا اثنى عشر رجلاً فى تقدير بعضهم ، على أن يغدروا برسول الله - ﷺ - فى العقبة التى بين تبوك والمدينة - فقالوا : إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى . .

لقد غفلوا عن رعاية الله لنبيه وتعهده بحفظه ووعده له بالعصمة من الناس . . . ولكن المنافقين غرهم الباطل وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فأجمعوا أمرهم على ما تآمروا عليه . . وأخبر الله نبيه بأمر هؤلاء القوم .

---

(٧٤) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ١٤٣

فلما وصل الجيش العقبة نادى منادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن رسول الله يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد ، واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع .

وبهذا تهيأت الفرصة التى يريدها هؤلاء القوم ـ ولكنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ـ وسلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العقبة ، واستعد هؤلاء النفر وتلثموا وسلكوا العقبة . خلف الرسول . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر عماراً بأن يأخذ بزمام الناقة التى يرتحلها ، وأمر حذيفة بن اليمان أن يكون من خلفه . .

وأقبل هؤلاء القوم وهم ملثمون وزاحموا الناقة من كل وجه ، فنفرت حتى سقط بعض المتاع من فوقها .

وغضب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر حذيفة أن يرد هؤلاء المعتدين . وحمل حذيفة ومعه محجنه فى يده على القوم ، وقد رأى غضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل يضرب بمحجنه فى وجوه رواحلهم ويقول : إليكم إليكم يا أعداء الله .

وزجرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فولوا مدبرين . .

لقد كان فى إمكانهم ـ لو أن الأمور مردها إلى القوة العادية ـ أن يحققوا هدفهم ، ولكن الله خذلهم . لقد كانوا اثنى عشر رجلاً مدججين بالسلاح يحيطون بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فوق راحلته وأمامه رجل وخلفه رجل .

وكان محجن حذيفة فى قوة السيوف والرماح ، وكانت صرخة النبى ـ

صلى الله عليه وسلم ـ فى قوة الصواعق المرجفة والزلازل المدمرة ، فانهزم الجمع وولوا الأدبار . . وانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادى واختلطوا بالناس .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة : هل عرفت أحداً منهم ؟

فقال : لقد كان القوم ملثمين والليلة مظلمة . ولكنى عرفت راحلة فلان وراحلة فلان .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل علمت ما كان من شأنهم وما أرادوه ؟

قال : لا

قال : إنهم مكروا ليسيروا معى فى العقبة وأرادوا أن يزاحمونى فيطرحونى منها ، إن الله أخبرنى بهم وبمكرهم ، وسأخبركما بهم واكتماهم .

فلما أصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء إليه أسيد ابن حضير ، فقال : يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سلوك الوادى ، فقد كان أسهل من سلوك العقبة ؟

فقال : أتدرى ما أراد المنافقون ؟ . . . . وذكر له القصة .

فقال أسيد : يا رسول الله قد نزل الناس واجتمعوا ، فمر كل بطن أن يقتلوا الرجل الذى هم بهذا ، فإن أحببت فبين أسماءهم والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً قاتل بهؤلاء النفر من أصحابه حتى إذا أظهره الله ـ تعالى ـ بهم أقبل عليهم يقتلهم .

فقال : يا رسول الله ، هؤلاء ليسوا بأصحاب .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أليس يظهرون الشهادة ؟ ثم جمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء القوم الذين هموا به ، وقد عرفه الله بهم ، وأخبرهم بما قالوه ، وما أجمعوا عليه ، وما هموا به . فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر . فأنزل الله ـ تعالى ـ يكذبهم ويفضحهم فى قوله تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ (٧٥)

لقد ذكر العلماء هذه القصة فى أسباب نزول هذه الآية . . وذكر بعضهم قصة أخرى فى سبب نزولها .

قال القرطبى : روى أن هذه الآية نزلت فى الجُلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت ـ تحدثوا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : والله لئن كان محمد صادقاً فى قوله عن إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير .

---

(٧٥) التوبة ٧٤

فقال له عامر بن قيس : أجل ، والله إن محمداً لصادق مصَّدق ، وإنك لشر من حمار .

وأخبر عامر بذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاء الجلاس فحلف بالله عند منبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن عامراً لكاذب .

وحلف عامر انه صادق فيما قال .. وقال : اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئاً . فنزلت الآية السابقة .

وقيل : إن الجلاس لما قال له صاحبه : سأخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما قلت هم بقتله ، ولكنه عجز عن ذلك . وهذا ما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ

« **وهموا بما لم ينالوا**(٧٦) » .

لقد أمسك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قتل هؤلاء ، ولكنه دعا عليهم قائلاً : « اللهم ارمهم بالدُّبَيْلة » .

والدبيلة شهاب من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من ظهورهم . وفسره القرطبى بأنه شهاب من جهنم يجعله الله على نياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه » وهى عبارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قيل له : وما الدُّبَيْلة ؟ .

قال : إنه داءٌ من الله ابتلى به هؤلاء القوم الذين أرادوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شراً ، فأوردهم موارد التهلكة ..

---

(٧٦) تفسير القرطبى جـ ٨ صـ ٢٠٦

وأسرَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة بن اليمان بأسماء هؤلاء المنافقين . وأمره بكتمان ذلك . . . فكان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا نُعِىَ إليه أحدٌ نظر . . . . هل يصلى عليه حذيفة فيمن يصلى ؟

فإن وجده صلَّى عليه ، وإن لم يجده قال للناس : صلوا على صاحبكم(٧٧) .

هدم مسجد الضرار

وقبل دخوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة نزل « بذى أروان » وهو مكان بينه وبين المدينة مسير ساعة ، وفى هذا المكان جاءه خبر مسجد الضرار من السماء .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المسجد ، وأنه قد أقامه المنافقون فى المدينة بهدف الإضرار بالمسلمين . .

وكان يتزعم المنافقين فى بنائه أبو عامر الراهب الذى سماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفاسق .

وكان أبو عامر هذا يلبس المسوح فى الجاهلية ، وحين دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة جاءه ، فقال : يا محمد ، ما الذى جئت به ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جئت بالحنيفية دين إبراهيم .

قال أبو عامر : فإنى عليها .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لست عليها لأنك أدخلت فيها

---

(٧٧) السيرة الحلبية جـ٣ صـ ١٢٠

ما ليس منها .

فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً . وكأنه يعرض بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى هاجر من مكة ـ إلى المدينة ـ

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم ، أمات الله الكاذب وحيداً طريدا .

وخرج أبو عامر إلى قيصر بالشام يستنصره على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هناك كتب إلى أصحابه من المنافقين : استعدوا فإنى آتيكم من عند قيصر بجند نخرج بها محمداً من المدينة ولكنه مات بالشام وحيداً طريداً دون أن يحقق ما تمنى . .

وتلقف المنافقون رسالته ، فأسسوا هذا المسجد زاعمين أنهم بنوه لإقامة شعائر الاسلام ، وقالوا : نبنى مسجداً ونبعث إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتينا فيصلى لنا كما صلى فى مسجد قباء الذى أنشاه بنو عمرو ابن عوف . ويصلى فيه أبو عامر حين يقدم من الشام .

وكانوا قد أتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتجهز لتبوك فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ، ونحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة .

قالوا ذلك نفاقاً .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى على سفر وحال شغل فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا معكم فيه .

فلما عاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونزل فى « ذى أروان » التى أشرنا

إليها جاءه هؤلاء القوم ، وكانوا قد فرغوا من إنشاء مسجدهم وصلوا فيه أيام الجمعة والسبت والأحد ، وطلبوا منه أن يصلى فى المسجد كما وعد .

فدعا بقميصه ليلبسه ويتوجه معهم ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٧٨)

فدعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالك بن الدُّخْشُم ، ومَعْن ابن عدى ، وعامر بن السكن ، ووحشياً ـ قاتل حمزة ـ رضى الله عنه (٧٩) ـ وقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم فاهدموه واحرقوه .

فخرجوا مسرعين ، وجاء مالك بن الدخشم بشعلة نار فأحرقه وأقبلوا عليه فهدموه وقوضوه .

وقد اشترك فى بناء هذا المسجد من المنافقين اثنا عشر رجلاً منهم : خذام ابن خالد ، ومعتِّب بن قُشَيْر ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعبَّاد بن حنيف ، وجارية بن عامر ، وابناه : مجمع وزيد ، ونَبْتَل بن الحارث ، ووديعة بن ثابت ، وثعلبة بن حاطب .

---

(٧٨) التوبة ١٠٧ ، ١٠٨

(٧٩) وكان قد أسلم كما هو معروف

وقد سبق أن تحدثنا عن هذا المسجد مع بقية المساجد التى بنيت فى المدينة .

دخول المدينة

ودخل النبى - ﷺ - المدينة فى احتفال مهيب ، واستقبال رحيب ، أشرقت فيه النفوس والصدور ، وتزينت فيه الرحبات والدور ، وضحكت فيه القلوب والثغور ، وخرجت النساء والصبيان والولائد ، وصعدت النساء على أسطح المنازل يضربن بالدفوف ويتغنين جميعا قائلات :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ولا مانع إطلاقا أن يكون هذا النشيد قد استقبل به حين قدم - ﷺ - مهاجراً ، واستقبل به أيضا فى عودته من غزوة تبوك .

ولا مانع أيضاً أن يكون قد استقبل به فى كل أوبة يثوبها من رحلة رحل فيها أو غزوة أخرى غزاها قبل ذلك . فللنبى - ﷺ - مكانته العظمى فى قلوب المسلمين والمسلمات ، وحبه متمكن فى نفوسهم جميعاً ، حتى إنهم ليتشوقون الى لقائه لو غاب عنهم فترة قصيرة . ولقد ذكر الرواة أن أحدهم بكى يوماً فقال له النبى - ﷺ - : ما يبكيك ؟

فقال : يارسول الله ، إننى إذا لم أرك اشتقت إليك . وإنى أذكر يوم القيامة وأعلم أن منزلتك بين النبيين فى أعلى عليين وأخشى ألا أراك ، فهذا ما يبكينى . . فنزل قوله - تعالى - :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.(٨٠)

أما الذين يقصرون هذه التحية على قدومه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبوك لأن ثنية الوداع من قبل الشام فقد يرد عليهم أن الثنيات متعددة منها ما هو قبل الشام ، ومنها ماهو قبل مكة . فلا ما نع من تعدد التحية بهذا الشعر فى استقبال النبى ـ ﷺ ـ

لقد كان النبى ـ ﷺ ـ يبادل أصحابه الحب ، بل إن حبه لهم يفوق حبهم له ، ومن شدة حبه لهم كان يوجههم إلى ما يكسبون به أعظم المنازل عند الله ، وكان يلتمس العذر لضعفائهم لما يعلمه من حرصهم الشديد على نيل رضا الله ورسوله ، وقد يقعدهم العجز عن القيام بمثل ما يقوم به القادرون من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ولذلك حرص مقدما على أن يرفع من منزلة هؤلاء الذين أقعدهم العجز عن المشاركة فى هذه الغزوة ، حتى لا يظن أحد ممن خرجوا فيها السوء بهؤلاء الذين لم يخرجوا لما أصابهم من عذر . فقال ـ ﷺ ـ عند قربه من المدينة : « إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم العذر »

لقد أراد النبى ـ ﷺ ـ أن يوضح لأصحابه أثر النية الصالحة فى تقبل الأعمال ، بل ربما كانت نية المرء خيرا من عمله فى بعض الأحيان ، فقد

(٨٠) النساء ٦٩ ، ٧٠

كانت نية هؤلاء العاجزين خيراً من أعمالهم ، فإنها بلغت بهم مبلغ أولئك العاملين بأبدانهم ، وهم على فرشهم فى بيوتهم ، فشاركوا المجاهدين فى الثواب وزادوا عليهم راحة الأبدان . . . . . والمعية الحقيقية والصحبة المرموقة إنما هى السير بالروح عند عجز البدن . . . . . والمسابقة إلى الله - تعالى - وإلى الدرجات العلا بالنيات والهمم عند العجز عن الأعمال . . وحقا ذلك ، فقد كان مع النبى - ﷺ - منافقون تحملوا من مشقة الرحلة وخطورة الطريق ، ولكن فساد نياتهم أحبط أعمالهم ، ولن يكن لهم من أجر إلا التعب والمشقة . .

تسمية المدينة طابة

وحين أشرف النبى - ﷺ - على المدينة قال : هذه طابة أسكننيها ربى تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد .

ولفظ طابة جميل فهو مشتق من الطيب والشىء الطيب . . . . . وعلق ابن حجر - رحمه الله - على هذا الحديث الشريف بقوله :

اشتقاق هذا الاسم من الشىء الطيب ، وقيل : لطهارة تربتها ، وقيل : لطيبها لسكانها ، وقيل : من طيب العيش بها ، وقال بعض أهل العلم : وفى طيب ترابها وهوائها دليل شاهد على صحة هذه التسمية ، لأن من أقام بها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد فى غيرها .

قال : وقرأت بخط أبى على الصدفى : قال الحافظ : أمْر المدينة فى طيب ترابها وهوائها يجده من أقام بها ، ويجد لطيبها أقوى رائحة ، ويتضاعف طيبها فيها عن غيرها من البلاد ، وكذلك العود وسائر أنواع الطيب .

هذا وللمدينة أسماء أخرى غير ما ذكر :

منها ما رواه عمر بن شبه فى أخبار المدينة قال : قال النبى - ﷺ - : « للمدينة عشرة أسماء هى المدينة ، وطابة ، وطيبة ، والمطيبة ، والمسكينة ، والدار ، وجابرة ، ومجبورة ، ومنيرة ، ويثرب »

وفى رواية أخرى أن من أسمائها : المحبة والمحبوبة .

وقال كعب الأحبار : نجد فى كتاب الله الذى أنزل على موسى - ﷺ - أن الله قال للمدينة : يا طابة ويا مسكينة لا تقبلى الكنوز[٨١] .

ونظر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى أحد فقال : « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه »

ولا مانع أن يخلق الله - تعالى - المحبة فى بعض الجمادات كتسبيح الحصا وحنين الجذع . وايجاد المشاعر والإحساس فى الجماد ليس عجبا فى حق القادر المقتدر الذى يقول فى حق الجبال « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء »[٨٢]

وهذا الإنسان العاقل المميز الذى يموج بالحركة والانفعالات ما هو إلا طين لازب نفخ الله فيه من روحه فأصبح إنساناً سوياً قادراً مفكراً حساساً . فليس بعجيب أن ينظر الله الى هذا الجبل الجامد نظرة رحمة

---

(٨١) فتح البارى لابن حجر جـ ٤ صـ ١٠٦

(٨٢) النمل ٨٨

فيتفجر الحب من جوانبه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه معه .

والحق ـ تعالى ـ يقول فى حق قوم كفروا نعمة الله

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ (٨٣)

وقد يكون هذا البكاء حقيقة وقد يكون على سبيل التمثيل والتجوز كما قال الشاعر :

أيا شجر الخابور مالك مورقا

كأنك لم تجزع على ابن طريف ؟

والعرب كانوا يقولون عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض أى عمت مصيبه الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق ، وبكته الليالى الشاتيات ، وكل ذلك دليل على شدة الحزن عليه ..

والبكاء الحقيقى من العجماوات والجمادات على أهل التقوى غير مستبعد .. قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان ، باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه عمله ، فإذا مات فقداه فبكيا عليه » ثم تلا قوله ـ تعالى ـ

« فما بكت عليهم السماء والأرض »

يعنى أنهم لم يعملوا عملاً صالحاً تبكى عليهم الأرض والسماء لأجله ، وقال مجاهد ـ رضى الله عنه ـ : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا .

---

(٨٣) الدخان ٢٩

قال أبو يحيى : فعجبت من قوله . . . فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوى كدوى النحل ؟

فحب أُحُد للنبى - ﷺ - وأصحابه من هذا القبيل . . قد يكون الله عز وجل - خلق فيه الإحساس الذى أشعره ذلك الحب ، فجعله يرتجف حبا ويهتز طربا كما اهتز الجذع الذى تركه النبى ﷺ ليخطب من فوق المنبر الذى صنع له ، وقد اهتز حنينا للنبى ﷺ ، ولولا أن النبى - ﷺ - لمسه لظل يهتز إلى ما شاء الله . .

وقد خاطب النبى - ﷺ - جبل أحد خطاب من يعقل فقد قال له - وقد اضطرب تحته - : « اسكن أحد فإنما فوقك نبى وصديق وشهيدان »

لقد وضع الله فيه الحب ، كما وضع التسبيح فى الجبال مع داود فقال : « يا جبال أوبى معه »(٨٤) وكما وضع الخشية فى الحجارة فقال

﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (٨٥)

فلا ينكر إذن وصف الجهاد بحب الأنبياء ، وقد سلم على النبى - ﷺ - الحجر والشجر وسبح الحصا فى يده ، وكلمه الذراع وأمنت حوائط البيت على دعائه ، وفى ذلك إشارة إلى حب الله إياه ، حتى أسكن حبه - صلى الله عليه وسلم - فى الجماد وغرس محبته فى الجبال . .

---

(٨٤) سبأ ١٠

(٨٥) البقرة ٧٤

الثلاثة الذين خلفوا

النهى عن الصلاة على المنافقين

الثلاثة الذين خلفوا

معنى لقد تاب الله على النبى

من الذين خلطوا عملا صالحا داخر سيئا ؟

القران يدعو إلى الجهاد وينهى عند التخلف

قصة أبي رهم

دروس من غزوة تبوك

هل حققت الغزوة أهدافها ؟

عند وصول النبى - ﷺ - الى المدينة بدأ بالمسجد . . وكان دخوله المدينة فى رمضان ، وقال بعضهم : بل فى شعبان .

وصلى فى المسجد ركعتين ثم جلس للناس . وأقبل المنافقون الذين تخلفوا وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فجعلوا يعتذرون بأعذارهم ، فقبل النبى - ﷺ - منهم علانيتهم ، بل واستغفر لهم (٨٦)

لقد كان - ﷺ - آية عظمى فى الرفق واللين والرحمة . . وانصرف هؤلاء ، وقد ظنوا أنهم نجوا من سخط الله .

ونجحوا فى تضليلهم . ولكن الله سبحانه وتعالى كان لهم بالمرصاد ، ففضحهم وكشف أمرهم . . فقال سبحانه :

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٨٧)

---

(٨٦) شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ٢ صـ١٩ ، جـ٣ صـ٨٣

(٨٧) التوبة ٦٦ : ٦٨

وتوعدهم قائلا :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٨٨)

ونهى القرآن النبى - ﷺ - عن الصلاة عليهم او الاستغفار لهم ، فقال

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٨٩)

إن الصلاة استغفار لهم ووقوف النبى - ﷺ - على قبورهم رحمة بهم . وهؤلاء لا يستحقون رحمة ولا استغفارا .

لقد أغلق الله فى وجوههم باب رحمته لأن ما قاموا به من أعمال خبيثة ، ومن محاربة للاسلام ، ومن تدبير للكيد به - وتكرر ذلك منهم - يحُول بينهم وبين استحقاق الرحمة ، حتى لقد قال الله لنبيه - ﷺ - إن هؤلاء ليسوا أهلا للمغفرة حتى لو استغفرت لهم

(٨٨) التوبة ٨١ : ٨٣

(٨٩) التوبة ٨٤ ، ٨٥

﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠ ﴾ (٩٠)

شتان بين هؤلاء المنافقين الذى نكصوا عن الجهاد وهو ذروة العمل الاسلامى الصالح ، وبين الذين باعوا أنفسهم فى رضا الله سبحانه وتعالى . .

ولقد وازن القرآن الكريم بين هاتين الحالتين موازنة دقيقة ، بينت هذه الموازنة الفرق بين المجاهدين الحقيقيين وغيرهم من المنافقين ـ قال تعالى :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٨٩ ﴾ (٩١)

ماورد فى شأن النهى عن الصلاة على المنافقين

وفى شأن النهى عن الصلاة على المنافقين أورد الرواة أخبارا ، فقالوا : إن

---

(٩٠)، التوبة ٨٠

(٩١) التوبة ٨٦ : ٨٩

هذه الآية ـ أى قوله : ولاتصل على أحد منهم . . » نزلت حين توفى رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول . وجاء النبى ـ ﷺ ـ ليصلى عليه فلما تقدم ليصلى جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ فجذب ثوبه وتلا قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا . . »

وقال بعضهم : بل إن الآية نزلت بعد أن صلى الرسول عليه . .
وقد حدثت محاورة بشأن هذه الصلاة بين النبى ـ ﷺ ـ وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يجدر أن نذكرها . ولكنا نبدأ القصة من أولها :

روى البيهقى قال : مرض عبد الله بن أُبَىّ بن سلول فى ليالٍ بقين من شوال سنة تسع ومات فى ذى القعدة ، وكان مرضه عشرين ليلة ، فكان الله ـ ﷺ ـ يعوده فيها .

فلما كان اليوم الذى مات فيه دخل عليه رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يجود بنفسه ، فقال له الرسول : « قد نهيتك عن حب يهود »

فقال ابن أُبَىّ ـ وكان ما زال فى عناده ـ : قد أَبْغَضَهُم أسعد بن زرارة فما نفعه ؟

ثم قال : يا رسول الله ، ليس هذا بحين عتاب ، هو الموت ، فان مت فاحضر غسلى ، وأعطنى قميصك أكفن فيه .

فأعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ قميصه الأعلى ، وكان عليه قميصان .
فقال ابن ابىّ : أعطنى قميصك الذى يلى جلدك فغير النبى ـ ﷺ ـ القميص وأعطاه ـ قميصه الذى يلى جلده .

ثم قال ابن أبيّ للنبى : وصلّ علىّ واستغفرلى . .

فلما مات قام النبى - ﷺ - يصلى عليه . فقام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله ، أتصلى عليه وقد نهاك الله عن ذلك ؟

قال رسول الله - ﷺ - : إن ربى خيرنى فقال : استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وسأزيد على السبعين .

فقال عمر : إنه منافق . .

فصلى عليه رسول الله - ﷺ - فأنزل الله عز وجل - « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله »(٩٢)

وجاء فى صحيح البخارى : أن عبد الله بن أُبيّ لما توفى جاء ابنه الى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله أعطنى قميصك أكفن أبى فيه ، وصل عليه واستغفر له .

فأعطاه النبى - ﷺ - قميصه ، وقام معه ، فلما أراد أن يصلى عليه جذبه عمر فقال : أليس الله قد نهاك ان تصلى على المنافقين ؟

فقال - ﷺ - : أنا بين خيرتين « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » فصلى عليه فنزلت الآية . .

وفى رواية أخرى ذكرها البخارى أن النبى - ﷺ - أتى عبد الله بن أبيّ بعدما كفن ، فأخرجه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه(٩٣) . وذلك بعد

---

(٩٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ٥ صـ٢٨٥ وما بعدها .

(٩٣) الحديثان فى فتح البارى جـ٣ صـ١٦٥ برقم ١٢٦٩ ، ١٢٧٠

إلحاح من ابنه الذى كان حسن الإيمان ..

ولنا أن نتتبع هذه الأخبار من أولها ...

فقد دأب النبى - ﷺ - على زيارة ابن سلول على الرغم من نفاقه حرصا على قلب ابنه صادق الايمان ، وكان النبى - ﷺ - حريصا على هداية هذا الأب لعله ينصلح بهدايته حال غيره من المنافقين .

وقد اطلع النبى - ﷺ - على حال هذا المنافق فوجد مصيره سيئا حيث انه آثر حب اليهود المعاندين لله ورسوله على حب الله ورسوله ، فقال له : قد كنت نهيتك عن حب يهود ..

ولكن ابن سلول لم يفهم قصد النبى - ﷺ - فرد قائلا : لقد كرههم أسعد بن زرارة ، فما نفعه ؟

يعنى : أن كراهة اليهود لا تؤخر الموت ؟

وما قصد النبى - ﷺ - ذلك ، ولكن قصد سوء الحال الذى سيئول إليه بسبب إيثاره حبهم على حب الله - تعالى - وحب رسوله - ﷺ .

لقد كان النبى فى وادٍ وابن سلول فى وادٍ آخر ..

هل يكون ابن سلول قد استيقظ ضميره أخيرا وأدرك الوبال الذى سار إليه برجله وسعى إليه بعمله فأراد أن يفوز بنفحة رضا من الرسول - ﷺ - فطلب منه قميصه وطلب منه أن يصلى عليه ويستغفر له ؟ ربما .....

خصوصا إذا علمنا أن هذه لم تكن ساعة غرغرة ، بل كان فى تمام وعيه حين طلب ذلك ، ولا يبعد أن يكون النبى - ﷺ - قد أدرك منه لحظة صدق - فأجابه إلى طلبه ..

أما قول عمر - رضى الله عنه - للنبى - ﷺ - فقد كان من منطق صدقه وموقفه من هؤلاء المعاندين ، فلم يخرج بهذا القول على معتاد طبعه وغيرته الشديدة على الاسلام والمسلمين . ولكن النبى - ﷺ - له شأن آخر يراعى فيه ظروف أمته ، ويرفق بهم ويداوى جروحهم ، ويتألف قلوبهم . وقد كان لابن سلول ابنٌ هوآية فى الصدق والإخلاص ، فليس عجيبا أن يترك النبى - ﷺ - سقطات هذا الأب تكريما للابن . .

وقد فهم عمر من صلاة النبى معنى الاستغفار فقال : قد نهاك الله أن تصلى على المنافقين . . . . . . ولم تكن آية النهى عن الصلاة قد نزلت ، ولكن النهى عن الاستغفار كان هو الذى نزل .

والصلاة استغفار فعلا ، فهى من الله رحمة ، ومن النبى استغفار ومن المسلمين دعاء .

لقد كان النبى - ﷺ - طبيبا لأمته يعرف داءها ودواءها ويعالج جراحها ، وكان فى صلاته على ابن سلول واستغفاره له وتكفينه فى قميصه حكمة غاب فهمها حينئذ عن الكثيرين ، ولكنهم أدركوها فيما بعد . . وربما يظهر ذلك فى قوله - ﷺ - « إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا وإنى لأرجو أن يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومه » .

وجاء فى مغازى ابن إسحاق وفى بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله - ﷺ - كثير من جماعة ابن أبى وكانوا من أهل النفاق»(٩٤) .

---

(٩٤) تفسير القرطبى جـ٨ صـ ٢٢٠

- ولا يخفى ما يشير إليه قوله - تعالى - « ولا تقم على قبره » من جواز القيام على قبر الميت والاستغفار له ، فقد كان رسول الله - ﷺ - إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبت . . أورد ذلك القرطبى فى تذكرته وأشار إليه فى تفسيره .

قصة الثلاثة الذين خلفوا

وكان ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - الصادقين قد تخلفوا عن رسول الله دون عذر . . . . . وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

وقبل أن نذكر قصة لقائهم بالنبى - ﷺ - عقب عودته من تبوك - ينبغى أن نعرف شيئاً عنهم . .

فأما كعب ، فهو ابن مالك بن أبى كعب ، واسم أبى كعب : عمرو بن القين ، الخزرجى ، وكنيته أبو عبدالله ، وقيل : أبو عبدالرحمن . وهو من السابقين إلى الاسلام ، شهد العقبة ، واختلف فى شهوده بدراً ، والصحيح أنه لم يشهدها .

وقد آخى النبى - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين طلحة بن عبيد الله . وكان كعب من شعراء الإسلام الذين دافعوا عن رسول الله - ﷺ - ضد شعراء المشركين . . . .

قال ابن سيرين : كان شعراء النبى - ﷺ - حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، فكان كعب بن مالك يخوفهم الحرب ، وكان حسان يقبل على الأنساب ، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر . قال

ابن سيرين : فبلغنى أن دوسا إنما أسلمت خوفاً من قول كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أغمدنا السيوفا
نخيرها ولو نطقت لقالت قواطعهن : دوسا أو ثقيفا

فقالت دوس : انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم مانزل بثقيف (٩٥)

فها نحن أولاء أمام رجل صادق الإيمان ، أبلى فى الإسلام بلاء حسنا وقد جرح فى ـ أحد ـ إحدى عشرة جراحة ، وكان قد لبس لأمة النبى ـ ﷺ ـ ولبس النبى لأمته . . ولكن تخلفه عن تبوك كان فلتة تاب الله عليها منها .

أما مرارة بن الربيع فهو من بنى عمرو بن عوف

قال ابن الكلبى فى نسبة : هو مرارة بن ربعى بن عدى بن زيد بن عمرو من الأوس . .

أما هلال . فهو هلال بن أمية بن عامر بن قيس من الأوس أيضا ، وكان قديم الاسلام ، شهد بدراً وأحدا ، وكان يكسر أصنام قومه بعد أن أسلم ، وهو ابن أخت كلثوم بن الهدم الذى نزل النبى ـ ﷺ ـ عليه حين قدم المدينة مهاجراً ، قبل أن ينزل فى دار أبى أيوب الأنصارى . .

هؤلاء الثلاثة الذين خُلِّفوا وأشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » ولم يقل : « تخلفوا » لأن فى التعبير الأول إشارة دقيقة إلى أن المقصود به « أرجئوا وأخروا » عن المنافقين فلم يقض فيهم بشىء . . . ذلك أن بعض المنافقين لم تقبل توبتهم ، واعتذر أقوام فقبل عذرهم ، وأخر النبى ـ ﷺ ـ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن .

قال كعب : « كنا خلفنا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم

---

(٩٥) أسد الغابة جـ ٤ صـ ٤٨٧

رسول الله - ﷺ - حين اعتذروا وحلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله - عز وجل - « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفنا تخلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليف الرسول إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه »(٩٦)

وقد ذكر الرواة لنا قصة لقاء كعب مع النبى - ﷺ - ولم يذكروا لنا قصة لقاء صاحبيه ، مع أن هذين الصاحبين كانا قد سبقا كعبا إلى لقاء النبى - ﷺ - ولعل السبب فى ذلك أن كعبا كان امرءاً شاعراً ، استطاع أن يسجل مشاعره فى قصة رواها لنا التاريخ ، ولم يترك من أحداث قصته من لدن تخلفه حتى نزلت قصة توبته فى القرآن الكريم شيئاً ، وعرضها لنا فى أسلوب طريف وعرض شيق ، حتى إن أجمل تقديم لها هو أن نعرضها كما رواها هو بنفسه ، وذكر هذه الرواية أكثر الرواة فى كتب السيرة والسنن .

قال كعب :

لم أتخلف عن رسول الله - ﷺ - فى غزوة غزاها قط ، إلا فى غزوتى بدر وتبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب الرسول أحداً تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله - ﷺ - والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

ولقد شهدت مع رسول الله - ﷺ - ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وان كانت بدر أذكر فى الناس منها .

---

(٩٦) صحيح مسلم - باب التوبة -

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط وقد جمعتهما فى تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ـ ﷺ ـ فى حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازا ، واستقبل عدواً كثيراً ، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذى يريد المسير إليه والمسلمون مع رسول الله ـ ﷺ ـ كثير ، ولا يجمعهم ديوان ، ولا يعرف أحد عددهم .

قال كعب : فكان أى رجل يريد أن يتغيب ، يظن أن ذلك سيخفى ولن يُتَنَبه له ما لم ينزل فيه وحى من الله ـ تعالى ـ

وغزا رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ـ أى أميل ـ

فتجهز إليها رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتباعد القوم ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى فعلت ، ولكن لم يقدر لى . .

فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ـ ﷺ ـ يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا (٩٧) عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .

---

(٩٧) مغموصا عليه : مطعونا عليه فى الدين ومتهما بالنفاق .

ولم يذكرنى رسول الله - ﷺ - حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » ؟

فقال رجل من بنى سلمة : يارسول الله ، حبسه برداه والنظر فى عطفيه . (٩٨)

فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت ، والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً .

فسكت رسول الله - ﷺ - ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا مُبَيِّضاً يزول به السراب(٩٩) ، فقال رسول الله - ﷺ - : « كن أبا خيثمة » فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى ، وهو الذى تصدق بصاع من تمر حتى لمزه المنافقون .

قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله - ﷺ - قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى - أى حزنى وهمى - ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غداً ؟

وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل لى : إن رسول الله - ﷺ - قد أظل قادماً انزاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لن أنجو منه بشىء أبداً ، فأجمعت صدقه .

وأصبح رسول الله - ﷺ - قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون

---

(٩٨) كناية عن إعجابه بنفسه وزهوه وتكبره

(٩٩) مبيضا : يلبس البياض ، والسراب مايظهر فى الهواجر يظنه الظمآن ماء ، ويزول : يتحرك .

فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله - ﷺ - علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

حتى جئت ، فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه .

فقال لى : « ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك » ؟

قلت : يارسول الله ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً - أى فصاحة وقوة وحسن بيان أستطيع أن أخرج به من عهدة ما ينسب إلىَّ بما يقبل ولا يرد - ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علىَّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تَجِدُ - تغضب - علىَّ فيه إنى لأرجو فيه عقبى الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

قال رسول الله - ﷺ - : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك »

فقمت ، وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى ، فقالوا لى :

والله ما علمناك أذنبت قبل هذا ، لقد عجزت فى ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله - ﷺ - بما اعتذر به إليه المتخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله - ﷺ - لك .

قال : فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله - ﷺ - فأكذب نفسى .

قال : ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى من أحد ؟ - أى - هل فعل أحد من القوم مثل ما فعلت ؟ .

قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان ، قالا مثلما قلت ، فقيل لهما مثلما قيل لك .

قلت : من هما ؟

قالوا : مرارة بن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى .

قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً - فيهما أسوة . فمضيت إليهما حين ذكروهما لى . . ونهى رسول الله - ﷺ - المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه .

قال : فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فماهى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة ، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله - ﷺ - فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلاد أم لا ؟

ثم أصلى قريبا منه ، وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال ذلك علىَّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس إلىَّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علىَّ السلام .

فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلمن أنى أحب الله ورسوله ؟

قال : فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلىَّ حتى جاءنى فدفع إلىَّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه :

أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نُواسِك .

فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيامت بها التنور فسجرته بها ـ أى ألقيتها فى النار فاحترقت ـ حتى إذا مضت أربعون من الخمسين يوما ، واستلبث الوحى إذا رسول(١٠٠) رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتينى فقال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمرك أن تعتزل امرأتك .

قال : فقلت له : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربها . .

وأرسل إلى صاحبىَّ بمثل ذلك .

---

(١٠٠) كان هذا الرسول هو خزيمة بن ثابت

فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟

قال : لا ، ولكن لا يقربنك .

فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

وقال بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟

فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يدرينى ماذا يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟

فلبثت بذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهِىَ عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا .

فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا ، قد ضاقت علىَّ نفس وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوْفَى على سَلْع(١٠١) يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبْشِر .

---

(١٠١) أشرف على جبل سلع .

قال كعب : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج .. فأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهبوا قِبَلَ صاحبى مبشرين ، وركض رجل إلى فرسٍ ، وسعى ساعٍ من أسلم قِبَلى وأوفى الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتلقانى الناس فوجاً فوجاً ، يهنئوننى بالتوبة ويقولون : هنيئاً لك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس فى المسجد وحوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره . فكان كعب لا ينساها لطلحة ـ قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ ويقول : « أبشر بخير يومٍ مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك » .

فقلت : أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك ؟

قال : « لا ، بل من عند الله » .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك ... فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله علىّ أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » .

قال : فقلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر .

وقلت : يا رسول الله ، إن الله نجانى بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت . فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومى هذا أحسن مما أبلانى الله به ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو الله أن يحفظنى فيما بقى ، وكان قد نزل قول الله ـ تعالى ـ

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (١٠٢)

قال كعب : والله ما أنعم الله علىَّ من نعمة قط بعد إذ هدانى للاسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا أكون

---

(١٠٢) التوبة ١١٧ : ١١٩ .

كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا .

إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد . . . . قال الله ـ تعالى ـ

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (١٠٣)

إن هذه القصة التى قصها كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فيها غَنَاء لتصوير حال هؤلاء الثلاثة الذى ابتُلوا بهذه المحنة التى خلصوا منها وقد ازدادو نقاء وصفاء ، كالذهب الذى يمتحن بالنار فيصفو وينقى .

لقد كان تخلف هؤلاء الثلاثة ذنباً كبيراً يستحق هذا العقاب الذى فرض عليهم وهو أقسى عقاب ، فليس بعد عقوبة المقاطعة عقاب . وهل هناك أفظع من موقف رجل يكون بين الناس ثم لا يستطيع أن يحادثهم ولا يستطيع الاستمتاع بحديثهم معه ؟

والذنب الذى ارتكبوه هو النكوص عن الجهاد . . . وهم الذين بايعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة العقبة ، ولسان حالهم ما قاله شاعرهم عبد الله ابن رواحة

---

(١٠٣) التوبة ٩٥ ، ٩٦

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

فلئن كان الجهاد فرض كفاية على المسلمين عامة ، فهو فى حق الأنصار فرض عين .

معنى لقد تاب الله على النبى . .

ولعل سائلاً يسأل : ما معنى قوله ـ تعالى

« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » ؟

أى ذنب ارتكبه النبى وهؤلاء حتى يتوب الله عليهم ؟

وقد أجاب العلماء على ذلك بقولهم : ليست التوبة هنا من ذنب ، ولكن معناها الاستنقاذ من الشدة ، فكأن الله يقول : لقد استنقذ الله النبى وصحبه من شدة العسرة ، وخلصهم من نكاية العدو ، وعُبِّر عن ذلك بالتوبة ـ وإن خرج من عُرفها ـ لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى .

وقال أهل المعانى : إنما ذُكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم ، كقوله « فان لله خمسة وللرسول[١٠٤] » وهذا هو أفضل ما قيل فى تفسير هذه الآية الكريمة[١٠٥] .

الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً

وحين دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجد وجد نفراً من

---

(١٠٤) الأنفال ٤٤

(١٠٥) راجع القرطبى جـ٨ صـ٢٧٨

المسلمين قد ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد . فما قصة هؤلاء النفر ؟

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « هم عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك فأوثق سبعة منهم أنفسهم فى سوارى المسجد » . لقد استيقظت ضمائرهم وأدركوا أنهم أخطأوا بتخلفهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما الثلاثة الباقون فهم الذين أشرنا إلى قصتهم آنفاً .

ومن الذين أوثقوا أنفسهم أبو لبابة ، وأوس بن خزام ، وثعلبة ابن وديعة ، والجد بن قيس ، ووداعة بن خِذَام (١٠٦).

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد مَرَّ عليهم حين رجع . فقال : « من هؤلاء » ؟

قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله . لقد عاهدوا الله لا يطلقون أنفسهم حتى تطلقهم وتعذرهم .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذى يطلقهم . . إنهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو » فأنزل الله ـ تعالى ـ

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ (١٠٧)

---

(١٠٦) ذكرهم الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية جـ ٣ صـ ٨٧ وذكر معهم جذام بن أوس ، ومرداس

(١٠٧) التوبة ١٠٢ ، ١٠٣

وقبل أن نستعرض بقية القصة نلقى الضوء على هؤلاء الصحابة الأجلاء .

أما أبو لبابة فهو رفاعة بن عبد المنذر ، وقيل : اسمه بشير ، وهو من الأوس . . . . كان نقيباً من نقباء الأنصار ليلة العقبة ، وسار مع النبى - صلى الله عليه وسلم - الى بدر فرده الى المدينة مستخلفاً له عليها ، وضرب له بسهمه وأجره . .

وقيل : إن قصة ربطه نفسه بسارية المسجد لم تكن فى تبوك ، ولكن كانت فى أثناء غزوة بنى قريظة ، حين استشاره بنو قريظة فى أمرهم وفى أمر نزولهم على حكم النبى - صلى الله عليه وسلم - فأشار بيده الى حلقه ، كأنه كنى بذلك عن أن النبى سيقتلهم ، فاعتبرت هذه الاشارة خيانة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فذهب من توه إلى المسجد وربط نفسه ، وأقسم ألا يحل نفسه حتى يحله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد سبق أن تحدثنا عن هذه القصة فى حينها .

وعاش أبو لبابة حتى توفى فى خلافة على - رضى الله عنه [١٠٨] .

وأما أوس بن خِذَام فقد ذكره الرواة ولم يضيفوا إلى اسمه شيئاً سوى أنه أحد الذين اعترفوا بذنوبهم ، ونزلت فى شأنهم الآيتان السابقتان [١٠٩] .

وأما ثعلبة بن خذام فهو أنصارى ، وذكر ابن الأثير أنه أحد الذين ربطوا أنفسهم وجاءوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، خذها . . . . هذا الذى

---

(١٠٨) أسد الغابة جـ ٦

(١٠٩) أسد الغابة جـ ١ صـ ١٧٠

حبسنا عنك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا أحلهم حتى يكون قتال » فأنزل الله الآيتين السابقتين[110].

وأما جد بن قيس فهو جد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان ، وهو ابن عم البراء بن معرور ، والجد بن قيس هذا كان يتهم بالنفاق ، وهو المعنى بقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [111]

ولئن كان قد ربط نفسه كما جاء فى خبر الزرقانى ـ رحمه الله ـ فقد أعلن عن توبته من النفاق .

قال ابن الأثير : لقد تاب وحسنت توبته ومات فى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه[112].

ووداعة بن خِذَام لم يرد فى ترجمته سوى هذين الاسمين ، وأنه أحد الذين نزل فى شأنهم الآيتان السابقتان[113].

قال الرواة : فلما نزلت هاتان الآيتان أرسل إليهم النبى ـ ﷺ ـ فاطلقهم وعذرهم ، لقد فهم من قوله ـ تعالى ـ

---

(110) أسد الغابة جـ ١ صـ ٢٩٢

(111) التوبة ٤٩

(112) أسد الغابة جـ ١ صـ ٣١٧

(113) أسد الغابة جـ ٥ صـ ٤٤١

« عسى الله أن يتوب عليهم . . »

وجوب العفو عنهم ، فعفا عنهم .

وجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا فقالوا : يارسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا . فقال : ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فنزلت الآية . .

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

فأخذ منهم الصدقةواستغفر لهم . . أما الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم فهم الذين خلفوا وقد تحدثنا عن قصتهم قبل ذلك .

وكان سبب عدم البت فى أمرهم أن الله أنزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (١١٤)

وهكذا خُلِّفوا عن الحكم فى أمرهم ، وجعل الناس يخوضون فى أمرهم ، فمن قائل : هلكوا إذا لم ينزل عذرهم ، ومن قائل : عسى الله أن يتوب عليهم . . . . ومازال أمرهم فى حيرة وضيق طوال خمسين يوما حتى نزلت آية التوبة عليهم فى قوله تعالى :

« وعلى الثلاثة الذين خلفوا . . . »

أما المال الذى أخذه النبى ـ ﷺ ـ من أولئك الذين نزلت توبتهم فهو الثلث ، وكان ماأخذه كفارة الذنوب التى أصابوها .

---

(١١٤) التوبة ١٠٦

وهذه الذنوب هى التخلف عن الغزو . أما الأعمال الصالحة التى خلط بها ذلك العمل السيىء فهى الاعتراف والتوبة والندم ، وكانوا قد أقسموا ألا يقربوا أهلا ولا ولدا حتى ينزل الله عذرهم ، ومن الأعمال الصالحة أيضاً ما سبق منهم من جهاد فى سبيل الله وقربات تقربوا بها إلى الله .

قال بعض العلماء وهذه الآية الكريمة « وآخرون اعترفوا بذنوبهم . . . » هى آية رجاء ، فهى وإن كانت نزلت فى مناسبة خاصة وفى شأن قوم مخصوصين إلا أنها تحمل حكما عاما ماضيا إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وأخرى سيئة .

فقد ذكر الطبرى قول أبى عثمان : ماقى القرآن آية أرجى عندى لهذه الأمة من قوله ـ تعالى ـ :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » .

وجاء فى البخارى عن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ : « أتانى الليلة ملكان فأخذانى ، فانتهينا إلى مدينة مبنية بِلَبِنِ ذهب ولَبِنِ فضة ، فتلقانا رجال ـ شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ماأنت راءٍ ، وشطر كأقبح ماأنت راءٍ . . . . فقيل لهذا الشطر الأخير : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا فى أحسن صورة .

فقال لى الملكان :

هذه جنة عدن ، وهذا منزلك .

ثم قالا : أما القوم الذين رأيتهم منهم شطر حسن وشطر قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ـ تجاوز الله عنهم(١١٥).

القرآن يدعو إلى الجهاد وينهى عن التخلف

لقد فصلت سورة التوبة الحديث عن الجهاد وَنَعَت على المتخلفين تخلفهم ، ووبختهم على ماحدث منهم ، ولم يكن ذلك الا رفعا لشأن الجهاد وأنه ذروة العمل الصالح فى الاسلام ، فقد أورد الثقات عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال لمعاذ بن جبل : « ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه » ؟

قال : بلى .

قال : « رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد » .

ولأن غزوة تبوك كانت آخر غزوة غزاها النبى ـ ﷺ ـ كان التخلف عنها أمرا سيئا بالنسبة للمسلمين .

لقد كانت فرصة ذهبية لهم ليشاركوا النبى ـ ﷺ ـ فيها فيغنموا نعمة مصاحبته وينتفعوا بهديه ، وينالوا بركته . . وقد نزل القرآن الكريم منبها لهم على مدى ما ارتكبوه فى حق أنفسهم من تقصير فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ

---

(١١٥) القرطبى جـ ٨ صـ ٢٤٣

ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (١١٦)

إنها آيات تحمل معنى العتاب والتوجيه معا ، وفيها تبشير للمجاهدين بأن الله يثيبهم على كل جهد يبذلونه ، وكل مشقة يلقونها أيا كانت هذه المشقة مادية أو معنوية .

وكان الأعراب الذين حول المدينة ـ هم قبائل مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم .

وكان عتاب القرآن لهؤلاء صدى لِعُتْبِ النبى ـ ﷺ ـ عليهم ، وتألمه بسبب تخلفهم .

قصة أبى رهم .

وهذا أبو رُهم كلثوم بن الحصين يقص علينا قصة تشير إلى عتب النبى ـ ﷺ ـ على هؤلاء الذين ذكرناهم ، وهو عُتْب يمضى مع الأجيال والأزمان فيصدق توجيهه إلى كل متخلف عن نفير الجهاد فى سبيل الله فى كل زمان ومكان . .

قال ابن إسحاق راويا قصة أبى رهم التى رواها بنفسه :

---

(١١٦) التوبة ١٢٠ ، ١٢١ .

قال : غزوت مع رسول الله ـ ﷺ ـ غزوة تبوك . فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر فكنت قريبا من رسول الله ـ ﷺ ـ

وألقى الله علينا النعاس ، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتى من راحلة رسول الله ـ ﷺ ـ فيفزعنى دنوها منه مخافة أن أصيب رجله فى الغرز [117].

فطفقت أبعد راحلتى عنه حتى غلبتنى عينى فى بعض الطريق ، ونحن فى بعض الليل ، فزاحمت راحلتى راحلة رسول الله ـ ﷺ ـ ورجله فى الغرز ، فما استيقظت الا على صوت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يتألم . .

فقلت : يارسول الله ، استغفرلى . .

فقال : « سر » .

فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يسألنى عمن تخلف من بنى غفار فأخبره به .

فقال ـ وهو يسألنى ـ : « ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط » ؟[118].

فحدثته بتخلفهم .

قال : فما فعل النفر السود الجعاد القصار « ؟

قال : قلت : والله ماأعرف هؤلاء منا .

قال : « بلى ، الذين لهم نَعَمٌ بشبكة شدخ » . فتذكرتهم فى بنى غفار ، ولم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا .

فقلت : يارسول الله ـ أولئك رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا . . .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما منع أَحُدُ أولئك حين تخلف أن يحمل

---

(117) الغرز للرحل مثل الركاب للسرج

(118) الثطاط : جمع ثط ، وهو الرجل قليل شعر اللحية والحاجبين

على بعير من إبله امرءاً نشيطا فى سبيل الله ؟ . . . .

لقد عز عليَّ ان يتخلف عنى بعض المهاجرين من قريش والأنصار وغفار وأسلم[119] وأبورهم هذا هو من قبيلة غفار . . . إنه عتب يوجهه النبى - ﷺ - إلى هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد بأنفسهم أو مالهم . وما عتب النبى - ﷺ - الا لما كان يرجوه لهم من حسن المثوبة وعظم الأجر - كما أشارت الى ذلك الأيتان السابقتان .

وقد عددت الأيات وجوه المشقة التى يتعرض لها المجاهدون عادة ، والتى تعرضوا لها فى هذه الغزوة خاصة ، وظهرت هذه المشقة فيها كابدوه من ظمأ شديد ، وتعب فى مسيرهم فى حر الصحراء ، ومخمصة الجوع الشديد الذى تعرضوا له ، وقد تحدثنا عن صور من ذلك فى اثناء عرض احداث هذه الغزوة .

حَدثٌ بعد العودة نزل فى شأنه قرآن

قال الرواة : ولما قدم النبى - ﷺ - من تبوك شكا عويمر بن الحارث بن زيد بن حارثة العجلانى من ريبة راودته فى نفسه من جهة أهله . فذهب إلى عاصم بن عدى الأنصارى فقال له : يا عاصم ، أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ سل لى يا عاصم رسول الله - ﷺ - عن ذلك .

فسأل عاصم عن ذلك رسول الله - ﷺ - فكره النبى - ﷺ - المسألة وعابها .

---

(١١٩) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ١٤١

فكبر على عاصم ما سمع من رسول الله - ﷺ - ، فلما رجع سأله عويمر عما قاله رسول الله - ﷺ - له .

فقال له عاصم : لقد كره النبى - ﷺ - هذه المسألة وعابها .
فقال عويمر : والله لا أنتهى حتى أسأله عنها .

وأقبل عويمر إلى رسول الله - ﷺ - يقول له : يارسول الله ، أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ، أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟
وكان الله قد أنزل فى هذا الشأن قرآنا . . فقال النبى - ﷺ - قد أنزل الله فى هذا الشأن قرآنا وتلا قوله - تعالى - :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١٢٠)

وهذا مايعرف فى ابواب الفقه باللعان أو التلاعن الذى يجرى بين الزوجين ، وينتهى بالتفرقة بينهما بعد أن يشهد كل منهما بالشهادات التى أشارت إليها هذه الآيات الكريمة .

---

(١٢٠) النور ٦ : ١٠

دروس من غزوة تبوك

لقد كانت غزوة تبوك آخر غزوة خرج فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه ، ولكن كان بعدها سرايا وجهها إلى بعض جهات ، كان من بينها بعث أسامة المشهور الذى وجهه لغزو الروم ، ولكن هذا البعث لم يكتب له الخروج إلى وجهته إلا بعد أن لحق النبى - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى ، وقد استهل أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - خلافته بإنفاذه .

ومن غزوة تبوك والسرايا التى بثها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى أثنائها نستخلص دروساً وعبراً وعظات نرجع فيها إلى ما سطره أهل الخبرة من العسكريين .

فمن ذلك :

١ - الحرب الإجماعية ، أو الحرب المطلقة وهى التى تحشد لها كافة القوى والطاقات فى الأمة - المادية منها والمعنوية . .

وقد نشر أحد الخبراء العسكريين الأجانب آراءه عن الحرب الإجماعية فى كتابه : « الأمة فى الحرب » ومجمل آرائه : أن الحرب الحديثة لم تبق حرب جيوش وقوى عسكرية فقط ، وإنما هى حرب إجماعية تقوم على حرب الأمم ضد الأمم ، ولهذا يجب أن تضع الأمة كل قواها العقلية والأدبية والمادية فى خدمة الحرب .

ويرى كذلك بالاضافة إلى ماتقدم أن الحرب وسيلة لاغاية ، ولهذا يجب أن تعد الأمة كلها للحرب ، وأن تكون دائما على قدم الاستعداد ، وأن واجب النساء ينحصر فى إنتاج وتربية أبناء أقوياء للأمة يحملون أعباء الحروب الإجماعية ، وواجب الرجال ينحصر فى تحشيد كل قواهم لهذه

الغاية[121]»

وإذا كانت الأمم الحديثة قد طبقت ذلك ـ فقد سبق إلى ذلك المسلمون منذ أربعة عشر قرنا بقيادة نبيهم صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك ، مع فارق مهم ، هو أن الحروب الحديثة حروب هجومية طامعة استعمارية ، ولكن حرب المسلمين قديما كانت حربا دفاعية ذات هدف سام ، تعمل على نشر السلام والحق والعدل ، لاتعتدى على أحد ولاتغتصب حق أحد وتحترم العهود والمواثيق . . وإنها حرب الفروسية الحقة بكل مافى هذه الكلمة من معان نبيلة .

لقد دعا القرآن الكريم الى هذا النظام الجماعى الذى يتم فيه تكتيل كافة القوى فى مواجهة الخصوم فقال ـ تعالى ـ

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (١٢٢)

ولئن كان بعض المفسرين يقولون : إن هذه الآية قد نسخت بما جاء فى آخر السورة من قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١٢٣)

---

(١٢١) النبى القائد صـ ٣٩٩

(١٢٢) التوبة ٤١

(١٢٣) التوبة ١٢٢

إلا أن النفير العام كان ظاهرا فى تبوك . . ونقصد النفير العسكرى الذى وظف الجهود كلها ـ المادية والمعنوية فى خدمة المعركة . .

على أننا نقول : إن النفير العام لم يُنْسخ ، ولكنه نُظِّم . فبدلاً من أن تتجه الجهود كلها إلى النواحى العسكرية والحربية فقط . . . رؤى أن تتجه بعض هذه الجهود إلى متطلبات الحياة الأخرى العلمية والمعيشية ، والاقتصادية والاجتماعية وغيرها مما تحتاج اليه الدولة فى مسيرتها ونهضتها ، والدولة لاتقوى بالحرب وحدها ، ولكنها تقوى بتضافر الجهود المختلفة التى تسعى لإنعاشها وتفوقها ولقد أشار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هذا المعنى حين بين منزلة العلماء وقال فى حقهم :

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء »

وحين كان يدعو الى التعمير والإنشاء وتقوية الأمة بالزراعة وإتقان العمل .

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »

وروى جابر قال : دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أم مبشر الأنصارية فى نخل لها فقال لها : من غرس هذا النخل ؟ أمسلم أم كافر ؟

قالت : بل مسلم .

فقال : « لايغرس مسلم غرسا ولايزرع زرعا فأكل منه إنسان أو دابة أو شيء إلا كانت له صدقة[١٢٤] »

---

(١٢٤) الاصابة فى تميز الصحابة لابن حجر ٨ / ٣٠١ ـ أسد الغابة ٧ / ٣٩١

وقال : من قطع سدرة من غير زرع بنى الله له بيتا فى النار[125]» يعنى من غير أن يزرع مكانها . . ـ فليقرأ هذا الحديث أعداء الخضرة والمعتدون على الأشجار .

وكان عدد المسلمين فى تبوك ثلاثين ألفا منهم عشرة آلاف فارس . وتحركوا صيفا فى موسم قحط شديد ، لمسافة طويلة فى الصحراء ، فليس من السهل إمداد مثل هذا الجيش الكبير فى مثل تلك الظروف القاسية بمواد الإعاشة والماء ووسائل الانتقال والقتال ، لذلك سمى بجيش العسرة ، اشترك فيه المسلمون جميعا سوى القليل ممن تحدثنا عنهم ، واشتركوا جميعا فى تجهيزه ، وبعضهم أنفق كل مايملك فى ذلك . ومعنى ذلك أن المسلمين عرفوا الحرب الاجماعية قبل أن يعرفها غيرهم . مع سمو الهدف عندهم عن غيرهم .

٢ ـ عقاب المتخلفين . التخلف عن الحرب سمة ظاهرة فى مختلف الدول والجماعات عبر الأزمان ، ولكنه يصبح كبيرة من الكبائر وخيانة للوطن إذا كانت هذه الحرب إجماعية تستنفر فيها الدولة كافة الناس والجهود والإمكانات .

ولكل أمة قوانينها فى معاقبة هؤلاء المتخلفين ، وفى الحرب العالمية الثانية أبيدت عائلات بأجمعها تخلف أحد أفرادها عن المشاركة فى الحرب ، وكان هذا العقاب فى منتهى القسوة والعنف ، يدل على الوحشية والشراسة ، لأنه أخذ البرىء بإثم الجانى . .

---

(١٢٥) الاصابة فى تميز الصحابة لابن حجر ٤ / ١٢٧ ـ أسد الغابة ٣ / ٢٧٦

وربما أدى هذا العقاب القاسى إلى تقليل عدد المتخلفين عن الحرب الإجماعية فى أثناء قوة هذه الدولة التى تطبق هذا القانون ، ولكنها حين تتداعى قوتها تحت وطأة الحرب وغلبة العدو يكثر المتخلفون على الرغم من القانون الرادع .

ولكن الاسلام اتخذ نظاما فريدا فى بابه فى عقاب المتخلفين ، لايستطيع أى قانون آخر فى أى دولة أخرى تطبيقه . . ذلك القانون هو قانون العقاب النفسى الذى يأخذ المسيء وحده بذنبه دون أن يتجاوز العقاب غيره من أسرته وذويه .

وفى قصة كعب بن مالك التى ذكرناها مُثُل لايمكن للدول الأخرى إدراكها أو تحقيقها .

والعجيب حقا أن ينصاع المسلمون جميعا للأمر النبوى الصادر بمقاطعة هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا . . فلايستطيع أقرب المقربين إليهم محادثتهم أو الرد عليهم . .

والعجيب أيضاً أن ينصاع هؤلاء المعاقبون لهذا الأمر فلا يفكرون فى الاقتراب من زوجاتهم بعد أن صدر لهم الأمر باعتزالهن . .

والأشد عجبا أن يشعر هؤلاء بوطأة هذا العقاب الشديد ، ولا يفكر واحد منهم فى التمرد عليه ، حتى لو تهيأت الفرصة لذلك التمرد . . لقد اعتبروا التفكير فى رفض هذه العقوبة والاستجابة للإغراء بالتمرد عليها جريمة نكراء لايمكن التفكير فيها . . وقد رأينا كيف أحرق كعب بن مالك الرسالة التى وجهت اليه من أمير غسان وهى التى كان يَعِدُه فيها بمواساته وإكرامه إن لحق به . .

لاتعليل لذلك كله إلا الإيمان العميق الذى تغلغل فى أعماق المسلمين جميعا فسيطر على تصرفاتهم ، ووجه تحركاتهم ، فأصبح ولاؤهم أولا وأخيرا لله ورسوله . .

وانظر كيف ربط بعض المخلفين أنفسهم فى سوارى المسجد ، وأقسموا ألا يقربوا أهلا ولا يتناولوا طعاما حتى يرضى عنهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويفكهم بنفسه . .

« أى عقاب نفسى هذا الذى جعل المتخلف يقدم بين يدى توبته شرطين ما أقساهما وما أشدهما ، وهما التنازل عن المال ، والصدق فى القول . . . . وليس من السهل أن يتنازل المرء عن ماله طواعية ، وليس من السهل أيضاً أن يثبت على الصدق فى جميع أحواله وظروفه . .

ولكن هؤلاء تمكنوا من تطبيق الشرطين فحق لهم أن يكونوا مثلا عاليا لقوله ـ تعالى ـ

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١٢٦)

لقد ترك هذا العقاب النفسى الصارم أثراً عظيماً ، لم تستطع أى دولة فى القرون التالية على الرغم من قوتها وصولتها وقوانينها الرادعة ، أن تصل إلى

---

(١٢٦) الأحزاب ٢٣ ، ٢٤

معشار الأثر الذى تركه العقاب الذى فرضه الاسلام على المتخلفين فى القرن السابع الميلادى . .

وإنه لدرس ينبغى تطبيقه على كل من تسول له نفسه الاساءة الى وطنه أو عقيدته أو يتخلى عن واجب الجهاد المقدس دفاعا عن شرف أمته وسلامتها .

٣ ـ ومن الدروس التى يمكن تعلمها من هذه الغزوة ـ التدريب العنيف على تحمل الصعاب والمشقات ، ومقاساة الجوع والعطش والحر الشديد وقطع المسافات البعيدة الشاسعة على ظهور الدواب ، أو سيرا على الأقدام . .

ولقد كانت هذه الغزوة فرصة لتدريب المسلمين على تحمل هذه الظروف العنيفة القاسية فى سبيل تحقيق الهدف الأسمى والغاية الكريمة . .

ولأن هذه الغزوة كانت آخر غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أقرت عينه وطمأنته على أنه قام بواجبه ، وأدى رسالته ، واستطاع أن يربى الرجال القادرين على مواجهة الظروف القاسية بكفاءة عالية .

سار المسلمون تحت إمرة قائدهم الأعلى فى طواعية كاملة ، مستجيبين لتوجيهاته ملبين لاشارته ، وإن كانت هناك فلتات من المنافقين إلا أنها فلتات شاذة مكشوفة لايؤبه لها . .

وتجلت براعة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أنه جعل تحركات هذا الجيش الكثيف ليليَّة ليتمكنوا من التغلب على حرارة الجو وقسوة الصحراء . وليتمكنوا كذلك من كتمان خطواتهم عن العدو ، والحركة الليلية هى ماتعد الجيوش الحديثة أنفسها لها الآن .

أما معنويات المسلمين فعلى الرغم من قسوة الظروف فقد كانت عالية جدا ، أكسبتها المعجزات المادية التى تحققت على يد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علوا وارتفاعا . كما كان هروب الروم من مواجهة المسلمين من عوامل ارتفاع هذه القوة المعنوية فى نفوسهم ، وقد أدى ذلك الهروب الى إقبال القبائل العربية الخاضعة لنفوذ الروم على الاسلام والتحالف معه وموالاته . .

٤ ـ المعلومات التى كان يجمعها الروم عن المسلمين كانت دقيقة ، بدليل أنهم استطاعوا أن يعرفوا غضب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كعب ابن مالك ، ومن قبل كانوا عارفين بتحركات الجيوش الاسلامية . .

وكذلك كان المسلمون لديهم المعلومات الكافية عن تحركات الروم ونواياهم ، فأعدوا جيشهم الكثيف الذى خاض الفيافى والقفار فى همة لاتعرف الكلل ، وفى انضباط كامل منقطع النظير . . . وهذا هو الذى كفل له تحقيق الهدف من مسيرته . .

هل حققت الغزوة اغراضها ؟

أجل ، لقد ارتفعت معنويات المسلمين تجاه الروم وحلفائهم ، حتى هان هؤلاء فى نظر المسلمين ، وازداد يقينهم فى قدرتهم على محاربتهم والتغلب عليهم . . بعد أن كان مجرد التفكير فى هذا الأمر يدخل فى حيز المستحيل .

وكان لهذا الانتصار المعنوى على الروم أثره فى القضاء التام على تردد المتخلفين عن الإسلام للاقبال عليه واعتناقه ، فجاءت ثقيف بقضها وقضيضها تعلن إسلامها ، وأقبلت بقية الوفود التى كانت مازالت تتربص

وتردد ـ أقبلت على المدينة تعلن الولاء والوفاء . . . وتحقق قوله ـ تعالى

إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا(١٢٧)

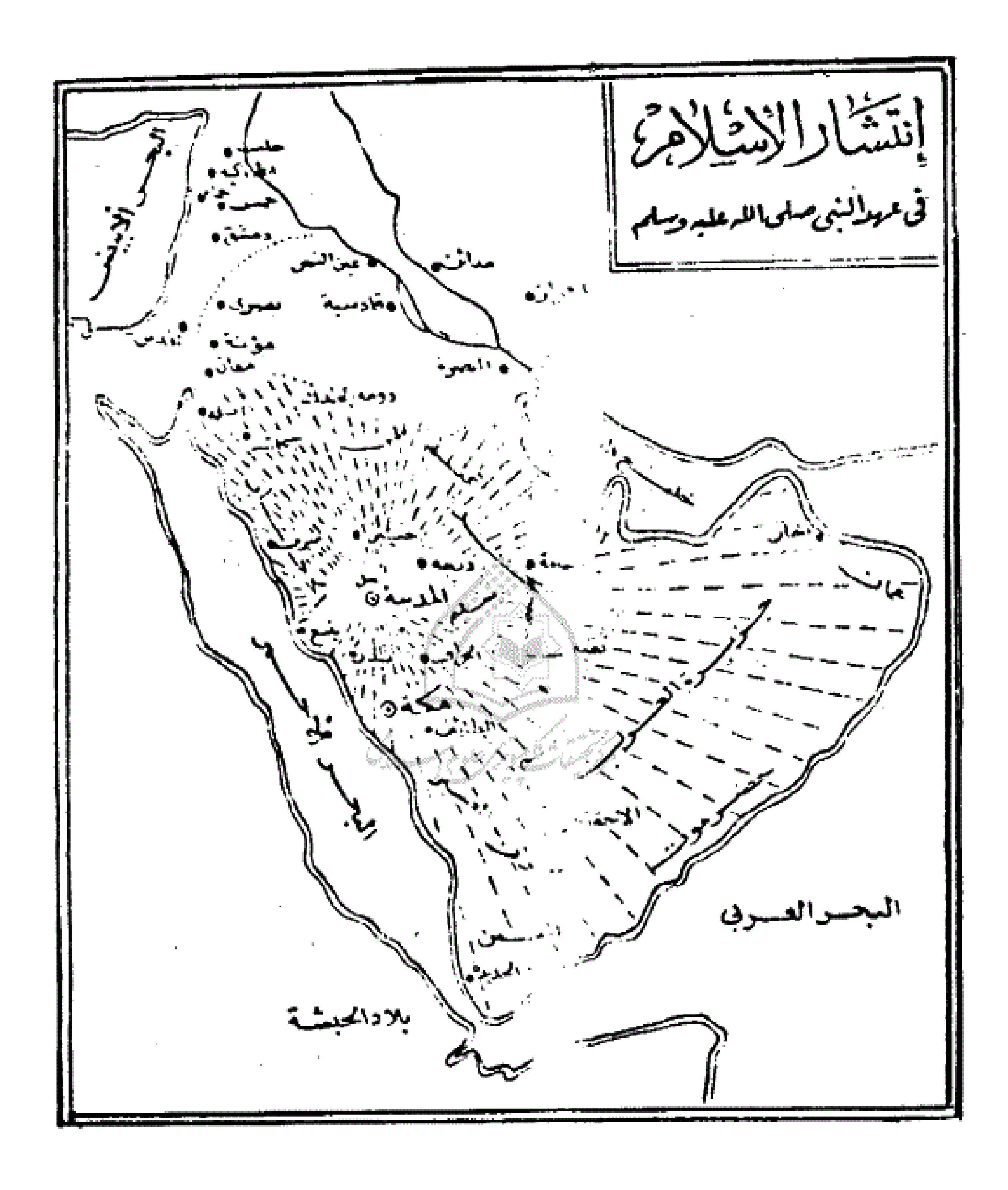
وقد تمكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقيم نقاط ارتكاز على الحدود الشمالية التى تربط شبه الجزيرة العربية ببلاد الشام الخاضعة للروم وذلك بعقد محالفات مع سكان تلك المناطق التى أشرنا اليها فى حديثنا السابق ، وقد سهلت هذه النقاط مهمة الفتح الاسلامى بعد ذلك(١٢٨)

وبعد أن استعرضنا غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، وجب علينا أن نتحدث فى ضوء ماعرفناه عن « قدرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ العسكرية والقيادية . . .

---

(١٢٧) النصر

(١٢٨) اعتمدنا فى كتابة هذه الدروس والنتائج على كتاب النبى القائد للواء الركن محمود شيت خطاب صـ ٣٩٩ وما بعدها .


إنتشار الإسلام
في عهد النبي صلى الله عليه وسلم
البحر العربي
بلاد الحبشة
مكة
المدينة

محمد القائد الأعلى

القائد البصير

صفات القائد العظيم

استشارة النبى لأصحابة

القائد المثالى

الشعر يحيى جهاد الرسول ويذكر غزواته

مدح العباس للنبى

قصة ثعلبة بن حاطب

الحج الأكبر

كيف كان المشركون يحجون ؟

مفهوم الحج الأكبر

نكث المشركين للعهد

وجوب قتال الكفار

عمارة المسجد الحرام

علاقات جديدة فى الإسلام

منع المشركين من دخول المسجد الحرام



محمد القائد الأعلى

ذكر الواقدى قال : كان عدد مغازى رسول الله - ﷺ - التى غزا بنفسه سبعا وعشرين غزوة ، وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وخمسين سرية . . أما الغزوات التى قاتل فيها فهى تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف .

وفى بعض الروايات أنه قاتل فى بنى النضير . . وقاتل فى غزوة وادى القرى منصرفه من خيبر واستشهد بعض أصحابه ، وقاتل فى الغابة .

وبدأت الحروب فى عهد النبى - ﷺ - بالسرايا ، وكانت أول سرية على ما قدمنا هى سرية حمزة بن عبدالمطلب فى رمضان على رأس سبعة أشهر من هجرة رسول الله - ﷺ -

وأول غزوة غزاها النبى - ﷺ - هى غزوة الأبواء وكانت فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من هجرته ، وكان يحمل لواءه فيها حمزة بن عبد المطلب أيضا . . وكان لواءً أبيض ، وكان الجنود فيها كلهم من المهاجرين ليس فيهم أنصارى واحد . .

وآخر غزاة غزاها - ﷺ - هى غزوة تبوك ، وآخر سرية هى سرية أسامة ابن زيد بن حارثة . التى لم تخرج إلا بعد وفاته ، ولكنه أشرف على تجهيزها . وكانت وجهة هذه السرية أهل « أبنى » وهم فى أرض السراة ناحية البلقاء ، وأبنى قرية بمؤتة .

وكان سر اختيار أسامة للقيادة على الرغم من صغر سنه - هو ما يظهر فى قول النبى - ﷺ - له « سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل »

لقد أراد النبى أن يحرك فيه دوافع الثأر لأبيه الذى استشهد فى مؤته وهو أول قائد فى معركتها .

كما أراد الرسول - ﷺ - أن يعلم المسلمين ضرورة الولاء للقائد ولو كان صغيراً ، ولقد كان فى الجيش من هو أسن منه ، ولكن القيادة ليست بالسن . .

ولم يقدر لهذه السرية الخروج لغايتها إلا بعد انتقال الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى ، فخرج أسامة إلى غايته ، فَقَتلَ وأسر وأجال الخيل فى عرصات الكافرين وأعداء الدين . . . .

وعاد أسامة إلى المدينة مظفراً . . . وكان هرقل قد بلغه ما حدث فأرسل بحامية تعسكر بالبلقاء ، ولم تزل هناك حتى أزالتها الفتوح الاسلامية .

عمل كبير فى مدة وجيزة

لقد كانت بعثة النبى - ﷺ - ثلاثا وعشرين سنة ، قضى منها فى مكة ثلاث عشرة سنة لم يكن فى خلالها حروب . .

وقد فرض الجهاد فى المدينة ، ولم يبدأ الجهاد إلا بعد سبعة أشهر من الهجرة . . وظل الجهاد موصولا على مدى تسع سنوات وخمسة أشهر تم فى خلال هذه الفترة الوجيزة هذا العدد الوفير من الغزوات والسرايا ، التى يقدر عددها بأربع وثمانين غزوة وسرية . .

ومعنى ذلك أن المسلمين لم يفرغوا من الجهاد أبدا ، فما كانوا يعودون من غزوة أو سرية إلا ليبدءوا فى غيرها . .

وكان النبى - ﷺ - يوجه أحيانا عدة سرايا إلى أماكن متعددة فى وقت واحد .

وقد يكون فى غزوة وله سرايا فى جهات أخرى .. وليس لذلك من تعليل سوى كثرة الأعداء المتربصين بالدعوة الإسلامية من كل جانب ، حتى لقد كان المسلمون أشبه بمن هم فى جزيرة تحيط بها بحار العدوان من جميع النواحى . فهم دائما على أهبة الاستعداد يدافعون عن أنفسهم ضد هذا العدوان المتربص بهم والذى لا يهدأ أبدا ولا يترك المسلمين يهدأون .

وقد عرفنا أن حروب الإسلام كلها دفاعية ، ولكن ذلك لا يمنع من توجيه الضربة للعدو الذى يخشى المسلمون من هجومه ، ومن أجل ذلك كانت السرايا التى أنهكت قوة العدو وشلت حركته وأضعفت اقتصاده .

وكل ذلك لا يستطيع أن يقوم به رجل عادى ... ولكن يقوم به من وهبه الله مقدرة عالية خارقة على إدارة المعارك وتوجيه الجيوش واختيار وجهتها ، وقوادها ، وأفرادها .

ولقد شهد بهذه البراعة الفائقة جميع الخبراء السياسيين والعسكريين عبر العصور والقرون ما بين أنصار وخصوم .

والمعروف أن إعداد الجنود وتجييش الجيوش له ميادين وثكنات معروفة يدرب فيها الجنود على القتال واستعمال السلاح ، ولكن النبى - ﷺ - كان مسجده هو الثكنة الأولى التى خرجت منها ألويته المتعددة ، وهو المدرسة العسكرية الكبرى التى قامت لتعالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية كما تضع خير المبادىء لكل ما يتصل بها من حيث الأهداف والقوانين والآداب .

ولم ينشأ النبى - ﷺ - نشأة عسكرية ، ولم يَترَبَّ فى أحضان قادة محاربين أو جنود مقاتلين . . ولكنه نشأ فى ظل أسرة تجارية دينية تحافظ على أركان البيت الحرام وسقاية الحجيج ورفادتهم . .

ولم يرقب فى نشأته الأولى معركة إلا حرب الفجار التى لم يشترك فيها اشتراكا فعليا وكانت مهمته فيها لا تتعدى إعداد النبال لأعمامه . .
فأين تعلم - ﷺ - فنون الحرب ؟ . من أين له هذه الموهبة الخارقة فى قيادة الجيوش وتعبئتها وتنظيمها ؟

لا إجابة على ذلك إلا أنه الإلهام الربانى ، والتأديب الإلهى الذى أشار إليه - صلى الله عليه وسلم - بقوله « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » « وإذا كان القادة يتعلمون فنون القيادة والحرب على يد غيرهم من القادة والمعلمين فى المعاهد العسكرية ، فإن الرسول - ﷺ - لم يأخذ عن غيره ، وإنما أخذ من الله - جل شأنه - فلا عجب - إذن - أن يُظْهر عليه الصلاة والسلام - فى أمور الحرب مالا يتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها واتخذوها صناعة . . . قد أظهر - ﷺ - عبقرية فذة فى القيادة والتخطيط وإدارة المعارك الحربية .

. . فى هذه المدرسة العسكرية الاسلامية ، . وعلى يد قائدها ومعلمها - ﷺ - تعلم أجدادنا الأوائل من قادة جنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ومبادئها ونظرياتها عملياً فى ميادين القتال ، إعلاء لكلمة الله ودفاعا عن الدين والأمة ، فكانوا مضرب الأمثال فى الكفاءة القتالية ، وفى الشجاعة والعبقرية الحربية ، وجاءت النتائج بما يثبت بالبرهان الساطع أن

مبادىء العسكرية الإسلامية قد أثبتت عمليا فى المعارك ـ وهى المحك الحقيقى للنظريات الحربية ـ صحتها وكمالها »[129]

القائد البصير

كان النبى ـ ﷺ ـ نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه ورسم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب ، وإصابة الاستشارة .. وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والانشاء ، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام »[130]

وآيات إلهام القيادة تظهر فى كل خطوات العمليات الحربية سواء منها ما يتعلق بالجندى واختياره وتدريبه وإعداده للمهمة القتالية ، وتوجيهه الوجهة السليمة لتحقيق الهدف السليم . أو ما يتعلق بإعداد القوة الرادعة والقوة الشاملة والقدرة على الحركة السريعة ، أو ما يتعلق باقتصاديات الحرب ، أو ما يتعلق بتطوير القوة وملاحقة العصر ، أو غير ذلك مما يدخل تحت قاموس الحرب والفكر العسكرى ..

---

(١٢٩) اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ ـ من بحث « إمام المجاهدين » العدد التذكارى لمؤتمر السيرة النبوية العاشر بالقاهرة .

(١٣٠) عبقرية محمد للعقاد صـ ٤٧ ـ سلسلة إقرأ ـ

والحديث عن كل هذه الأمور أمره يطول ، ولكننا نشير إلى لقطات مما جاء فى كتابة الخبراء العسكريين الذين أدركوا بواقع خبرتهم ودراستهم وتحليلهم الدقيق مدى البراعة الفائقة التى تجلت فى قيادة النبى - ﷺ - فى مختلف معاركه العسكرية .

صفات القائد العظيم

أهم صفة فى القائد الناجح أن يعنى برجاله ، ويوفر لهم احتياجاتهم الأساسية من المؤن والعتاد والراحة .

وأن يكون قادراً على تحمل مسئولية الحرب ومصادماتها ونتائجها ومفاجآتها وأن يتحلى بروح المخاطرة والشجاعة ، وأن يمضى وقته مع جنوده يمارس معيشتهم ويتفقد أحوالهم ويشعرهم بأنه واحد منهم ، وأن يكون قدوة حسنة لهم . .

وأن يكون واسع العلم بالطبيعة البشرية ، وأن يكون واثقا بجنوده ويتمتع بثقتهم .

وأن يكون متفهما لأصول الحرب ، واقفا على عوامل النصر ، شجاعاً ، صلبا يقدر الموقف تقديراً سليما . . منتفعاً بمشورة ذوى الرأى ممن معه .

هذه هى الصفات المثلى التى أجمع الخبراء العسكريون على ضرورة وجودها فى القائد الناجح . . . وقد اكتملت هذه الصفات بصورة مثالية فى النبى - ﷺ - بطريق الفطرة والإلهام والتربية الإلهية المسددة .

والنبى - ﷺ - لم يخض الحرب لغرض الحرب ، وإنما خاضها لأهداف نبيلة عليا ، وكانت جميعها حروباً بغرض الدفاع عن العقيدة ونشر الدين

ونصرة الضعيف وإنصاف المظلوم . . وقد عبر عن ذلك أمير الشعراء بقوله في همزيته :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء
والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوى تجبرا وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غزاة للرسول كريمة فيها رضاً للحق أو إعلاء

ولنستعرض بعض المواقف في حروب الرسول - ﷺ - لنرى مدى عظمته في القيادة . .

استشارته لأصحابه

كان - ﷺ - يستشير أصحابه ويقبل مشورتهم ، وقد مر بنا في غزوة بدر حين نزل في مكان . فقال له الحباب بن المنذر

يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل أهو منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال الحباب : يارسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه فنشرب ولا يشربون . .

وقبل النبى - ﷺ - المشورة ، ونفذها .

هكذا كان مجلس الحرب فى أعلى مستوياته ، وهكذا يكون الرأى والشورى فى الجيوش التى تنشد إعلاء كلمة الله ، وتجاهد فى سبيل الله .

ولم يكن مثل هذا الرأى الذى ارتآه الحباب ليغيب عن رسول الله ـ ﷺ ـ ولكنه أراد أن يعلم الأمة كيف تتشاور فى أمورها ، وكيف يكون القائد البصير مقدراً لرأى غيره من الجنود الأكفاء ، غير مستبد بما يراه هو دون أن يأبه بآراء الآخرين .

صفات القائد المثالى فى الرسول ـ ﷺ ـ

لقد كشفت المعارك التى خاضها النبى ـ ﷺ ـ سواء قادها بنفسه أو بعث غيره على قيادتها ـ عن شخصيته القيادية الكاملة التى تتسم بالمعرفة والشجاعة والمتانة والكتمان والقدوة الحسنة وقوة الخلق ، وغير ذلك مما أشرنا إليه فى صفات القائد الناجح .

والمعرفة الحقيقية تعنى ألا يهمل العارف رأى غيره من ذوى التجارب . .

وكما نفذ النبى مشورة الحباب بن المنذر فى بدر ، نفذ كذلك مشورة سلمان الفارسى فى معركة الأحزاب فحفر الخندق . .

وهكذا كان لا يغفل جانب المشورة تعليماً لأصحابه أن يأخذوا بها فإنه لا خاب من استشار ولا ندم من استخار

أما الشجاعة فقد كان فيها مضرب الأمثال . . فلم يكن يدير دفة العمليات من موقع بعيد آمن ـ وكان يبنى له عريشاً أحيانا ليكون مركز قيادته ـ ولكنه مع ذلك كان يشارك رجاله فى كل عمل ويتقدم إلى مواطن الشدة ويقاتل ببسالة ، وكان على ـ رضى الله عنه ـ يقول « كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ـ ﷺ ـ فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه »

وفى غزوة حنين ـ كما ذكرنا ـ فر الجميع من حوله ، وثبت وحده على بغلته ،

وهو يقول : أنا النبى لاكذب أنا ابن عبدالمطلب

وركض ببغلته فى اتجاه القوم المهاجمين وهم فى عنفوان زهوهم بالنصر المؤقت الذى أحرزوه فى الجولة الأولى ، ولكن النبى - ﷺ - لم يبال بهم ، بل تقدم إليهم وحده ومعه نفر قليل ممن ثبت معه ، وأعداؤه آلاف مؤلفة . . . . وكان من معه يكفكف بغلته عن التقدم خوفاً عليه من هؤلاء المهاجمين ، ولكنه يهتف قائلاً :

« أنا ابن العواتك من سليم »

يقول ذلك مفاخراً فى موطن يستحب فيه الفخر الذى يحث على الثبات والصبر .

أما الكتمان فقد كان من الصفات البارزة فى قيادته - ﷺ - وكان يحرص على ألا تصل معلومات جيشه إلى عدوه ، وكان يُوَرِّى دائماً فى غزواته ماخلا غزوة تبوك التى أفصح عن غايته فيها ، وذلك بهدف استعداد المسلمين لسفر طويل وعدو قوى .

وقد علمنا كيف أنه حاسب حاطب بن بلتعة على مغامرته التى أراد أن يصطنع بها يدا عند قريش ، فأرسل خطابا لهم مع امرأة ينبئهم فيها بعزم النبى - ﷺ - على فتح مكة ، وقد هم عمر بن الخطاب بقتله ، ولكن الذى منع عنه القتل هو النبى - ﷺ -

وكان النبى - ﷺ - يُعْنَى تماماً بحفظ الأسرار بصفة عامة ، وبصفة أخص الأسرار العسكرية ، وكان يختار الوقت المناسب والمكان المناسب لتجهيز البعوث والسرايا ، ويحسن اختيار من يلقى عليه المسئولية والقيادة

من أصحابه . بل إنه ربما كتم عن قائده المهمة التى ينتدبه لأجلها ، بعض الوقت ـ فقد أرسل عبدالله بن جحش فى سرية للاستطلاع ، وسلمه رسالة وقال له : لا تقرأ هذه الرسالة قبل مرور يومين ، ثم نفذ بعد ذلك ما تجده فيها ـ وسار عبدالله بمن معه من الجنود يومين ، ثم فض الرسالة ، فإذا فيها تعليمات محددة قام عبدالله بتنفيذها . وقد سبقت الاشارة إلى ذلك .

والقدوة الحسنة متوفرة بكامل معانيها فى النبى ـ ﷺ ـ ولم لا ـ ؟ وهو المثل الأعلى فى الحياة ، وقد أمرنا الله بالتأسى به فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١٣١)

والمثل الأعلى من خصائصه أنه يحلق ولا يدركه أحد . .
وقد أنزل الله ـ تعالى ـ فى حق نبيه الآية المتقدمة فى غزوة الخندق . ليعلم المسلمين ضرورة التأسى بينهم فى الصبر والجهاد .

لقد توفرت فى النبى ـ ﷺ ـ صفات القائد الأمثل ، الذى يعد مثلاً أعلى فى قيادته ، ومن أهم هذه الصفات إلى جانب ـ ما ذكرنا ـ القدرة على حشد الرجال فى الظروف التى تحيط به بأقصى سرعة وأقصى قوة . . وقد تمثلت طبيعة الجندى بكمالها فيه ، بالإضافة إلى الشجاعة المنقطعة النظير .

---

(١٣١) الأحزاب ٢١

وإذا تتبعنا سير الغزوات المختلفة التي خاضها النبي - ﷺ - وجدنا هذه الصفات كاملة فيه - قال العقاد في عبقريته :

لقد كان - ﷺ - نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعت إليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بإلهام مالم يعلمه غيره بالدرس والمران ، ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة .

لقد سبق النبي - ﷺ - كل من تقدمه ، وكل من جاء بعده من القواد الذين سطر التاريخ أسماءهم بأحرف لامعة بارزة ، أما اسمه هو فقد كان مضيئاً مشرقاً غطى على كل ما عداه من الأسماء .

أما صلابته في الحق فحدث عن ذلك ولا حرج ، والصلابة الحقة تظهر في الأزمات الشديدة ، وأقصاها حين تظهر الهزيمة على جنده ..

فانظروا إلى موقف النبي القائد في غزوة أحد ، وقد انكسر من معه من الجنود وولوا الأدبار ، وتبعتهم قريش بخيلائها .. هل تزحزح الرسول قيد أنملة ، أو رجف قلبه ، أو فقد اتزانه ، أو اضطرب في إصدار أوامره ؟ .

كلا ، لقد ثبت في قلب المعركة والخطر يحوطه من كل جانب ، ولم يبق معه من أصحابه إلا اثنا عشر رجلا ، واستطاع العدو مع ذلك أن يخلص إليه ويلقى عليه وعلى من معه الحجارة ، حتى وقع وأصيبت رباعيته وشج وجهه الشريف . وسال منه الدم ..

ومع كل ذلك ظل ثابتاً دون انفعال ، ولم يزد على أن قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدماء ؟

لقد كان ساكن النفس ثابت القلب رابط الجأش ، وتقدم منه أُبىّ خلف يحاول أن يطعنه بحربته ، فتناول النبى - ﷺ - حربة ممن يليه من أصحابه الذين أحاطوا به بأجسامهم حتى لا يصل إليه أبى ، ويحاولون أن يفدوه بأنفسهم ، ولكنه قال لهم : أفسحوا له الطريق . . حتى إذا مادنا منه أبىّ ، طعنه النبى - ﷺ - بالحربة فولى أبىّ يصرخ وهو يقول :

قتلنى محمد ، قتلنى محمد ، ومازال يصرخ من هذه الطعنة حتى مات . .

والصلابة من القائد تقتضي كذلك أن يقف موقفا حاسما من الخصوم ، وهكذا كان النبى - ﷺ - سواء فى ذلك الغزوات التى كان يقودها بنفسه ، أو السرايا والبعوث التى كان يولى فيها أحداً من أصحابه . . وكانت أوامره لهؤلاء القواد ثابتة حاسمة ،

قال لأسامة بن : « سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحاً على أهل أبنى ، وأسرع السير تسبق الأخبار ، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقد العيون والطلائع أمامك[١٣٢]

فهاهو ذا يصدر إليه الأوامر التى تشير إلى الصلابة فى الموقف من العدو فعليه أن يهجم فى أول خيوط الفجر ، مراعياً السرعة والمفاجأة .

وهذه الخطط يراعيها القواد المحدثون فى معاركهم الآن . .

ويتصل بشجاعة القائد وصلابته ، وجوب ارتفاع روحه المعنوية ، وهى صفة لوفاتت الجندى خذل ، فما بالك بالقائد ؟

---

(١٣٢) الطبقات الكبرى جـ ٢ قسم ٢ صـ ١٣٦

وكان النبى - ﷺ - مثلا كاملا فى ارتفاع الروح المعنوية التى كان يستمد منها جنوده ما يشاءون . .

وكان لارتفاع الروح المعنوية بين جنود الإسلام أثر كبير فى هزيمة أعدائهم أمامهم ، ولو بدون قتال ، ذلك أن الرعب منهم كان يسبقهم إلى أعدائهم فيفرون أمامهم . وفى ذلك يقول النبى - ﷺ - : نصرت بالرعب مسيرة شهر . . والذى أدى إلى رفع الروح المعنوية بين المسلمين ، هو عقيدتهم التى يقاتلون بها . وجندى بلا عقيدة مهزوم .

كان المسلمون يقاتلون وهم مدركون تماماً أن موتهم شهادة ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . فهم فائزون لا محالة ، إما بالنصر أو الشهادة وكانوا يرددون أمام أعدائهم قول الله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١٣٣)

هذه الروح المعنوية هى التى كانت تجعل المسلمين فى كفاحهم للأعداء يتسابقون الى ساحات القتال كما يتسابق الناس إلى نيل المغانم والأغراض . .

وكانوا جميعاً يحرصون على لقاء عدوهم فى الصفوف الأولى وشعارهم قوله - تعالى -

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١٣٤)

---

(١٣٣) التوبة ٥٢ (١٣٤) الصف ٤

وربما لقى المسلم خصمه حاسراً بدون درع يقيه أو لأمه تحميه . قيل لعلى :

مابال درعك لاظهر لها ؟

قال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يجب أن أبقى .

وحين أحاط به العدو فى إحدى المعارك أنذره أصحابه أن يتراجع فقال عَلِىٌّ : أبالموت تخوفوننى ؟ والله ما أبالى أَسَقَطْتُ على الموت أو سقط الموت علىَّ ؟

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يحض أصحابه على القتال ويشجعهم ، والقرآن الكريم يدعوه إلى ذلك ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (١٣٥)

وهذه الآية الكريمة تشير - إلى أن المسلمين لايقاتلون عدوهم بعدد ، ولكنهم يقاتلونه بتلك الروح المعنوية العالية التى تستهين بالجموع والأعداد ، ومامن غزوة أو سرية غزاها المسلمون إلا وكان الأعداء فيها أضعاف المسلمين ، ولكن الله كان يمنح النصر لهذه الفئة المؤمنة الواثقة بالله الموقنة بنيل رضاه

« وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله »

---

(١٣٥) الأنفال ٦٥

وإليك بعض الأمثلة من المعارك التى انتصر فيها المسلمون على الرغم من قلة عددهم ، وكان النصر فيها بسبب ارتفاع الروح المعنوية العالية التى بثها الاسلام فى أرواح المجاهدين ، وقد اعتمدنا فى إحصائها على بحث أعده اللواء أ . ح محمد جمال الدين محفوظ[١٣٦]

اسم الغزوة	التاريخ	المكان	الأعداء	قوة المسلمين	النتائج
١ بنى سليم	شوال عام ٢ هـ	قرقرة الكدر بين مكة والمدينة	بنو سليم وغطفان	٢٠٠	فرار بنى سليم وغطفان تاركين أموالهم للمسلمين
٢ ذى أمر	محرم ٣ هـ	ذو أمر موضع بنجد	بنو ثعلبة ومحارب	٤٥٠	فر بنو ثعلبة ومحارب ، وبقى المسلمون فى ديارهم حوالى شهر
٣ بحران	ربيع أول عام ٣ هـ	بحران على طريق المدينة ـ مكة	بنو سليم	٣٠٠	فر بنو سليم ، وبقى المسلمون فى ديارهم حوالى شهر
٤ ذات الرقاع	شعبان ٤ هـ	ذات الرقاع بنجد	بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان	٤٠٠	فرار بنى ثعلبة وبنى محارب
٥ دومة الجندل	ربيع أول عام ٥ هـ	دومة الجندل	قبائل دومة الجندل	١٠٠٠	فرت القبائل وولت الأدبار

(١٣٦) العدد التذكارى لمؤتمر السيرة النبوية ـ أعده مجمع البحوث الاسلامية ـ نوفمبر ١٩٨٥ / صفر ١٤٠٦

٦	بنى المصطلق	شعبان عام ٥ هـ	المريسيع	بنو المصطلق	١٠٠٠	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة ضد المسلمين
٧	بنى لحيان	جمادى الأول عام ٦ هـ	غران	بنو لحيان	حوالى ٣٠٠٠	فرار بنى لحيان

إلا أن العقيدة والروح الإيمانية العالية لاتمنع من إعداد العدة للعدو ، وقد أمر الله بذلك فقال :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[١٣٧]

فهذه الآية تشير إلى وجوب إعداد القوة المتطورة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعتباره القائد الأعلى لقواته كان حريصا على تنفيذ مضمونها . .

والقوة تشمل إعداد الجندى وما يستلزمه من تدريب وإعداد وامداد وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحرص على ذلك كله ، ويحث جنوده على موالاة التدريب على مختلف أنواع الأسلحة من رمى وتسديد وطعن ومصارعة وفروسية وحراسة وغير ذلك . .

---

(١٣٧) الأنفال ٦٠

ومن إرشاداته فى ذلك : « ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى »

وقال : « من ترك الرمى بعد ماعلمه فإنما هى نعمة جحدها »

وفى المرابطة يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له مثل أجر من خلفه من صام وصلى »

وفى التدريب على الاستطلاع قال فى غزوة الخندق : « ما من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة »

وفى التدريب على الحركة السريعة كان يشجع على اقتناء الخيل وتدريبها وإعدادها وكان يقول فى ذلك « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار إليها . .

والإعداد يستلزم النفقة ، والآيات الحاثة على الانفاق فى سبيل الله كثيرة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قدوة أمته فى ذلك . وهذا مايعرف فى العصر الحديث باسم اقتصاد الحرب .

أما التطور فى الأسلحة ، فلم يكن يغفله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد علمنا أنه واجه قريشا فى معركة الأحزاب بسلاح جديد أشار به سلمان الفارسى ، وهو حفر الخندق الذى شل حركة العدو تماما وأرجعهم مهزومين مدحورين .

وفى حصار الطائف استعمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الدبابة والمنجنيق . .

هذه اشارات موجزة إلى البراعة المثلى التى كان يدير بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعارك ، والتى تشهد بأنه قد تحلى بصفات القائد الأمثل الذى

ينظر إليه قادة العصور من بعده نظرة إكبار وإعجاب .(١٣٨)

وواجب المسلمين فى حاضرهم ـ الذى يرثى له ـ تدبر سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليأخذوا منها العبرة والمثل . .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾(١٣٩)

الشعر يحيى جهاد الرسول ويذكر غزواته

وللشعر عند العرب منزلة رفيعة ، وكانوا يعدونه ديوانهم الذى يسجلون فيه أحداثهم ومآثرهم . وقد سجل الشاعر حسان بن ثابت ـ وهو شاعر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إحدى قصائده جهاد الرسول وعدد الغزوات التى غزاها ، ولم ينس أن يفتخر بقومه الأنصار الذين شاركوا فى الجهاد بأرواحهم وأموالهم . وقال فى ذلك :

ألست خير معد كلها نفرا ومعشرا إن هم عُمُّوا وان حصلوا(١٤٠)

قوم هم شهدوا بدراً بأجمعهم مع الرسول فما أَلُوا وما خذلوا(١٤١)

وبايعوه فلم ينكث به أحد منهم ولم يك إيمانهم دخل(١٤٢)

---

(١٣٨) اعتمدنا فى كتابة هذه المادة على كتاب : محمد بن عبد الله توجيهاته وأوامره فى ساعات القتال للسيد فرج ، النبى القائد محمود شيت خطاب ، بحث اللواء أ ح محمد جمال الدين محفوظ .

(١٣٩) ق ٣٧

(١٤٠) حسان ليس من مَعَد ، ولكنه ذكر معدا وأقامها مقام الناس لكثرتها

(١٤١) ألّ : صاح

(١٤٢) دَخَلٌ : غش

ويوم صبحهــم فى الشِّـعْب من أُحُـد	ضــرب رصين كحر النار مشتعل
ويوم ذى قُـرَدٍ يـوم استثار بهم	على الجياد فما خاموا وما نكلوا(١٤٣)
وذا العشيرة جاسـوها بخيلهـــم	مع الرسول عليها البيض والأسل(١٤٤)
ويـوم ودَّان أجْـلَوْا أهـله رقصـا	بالخيل حتى نهانا الحَزْن والجبل(١٤٥)
وليلة طلبـوا فيهـا عـدوهم	لله ، والله يجزيهـم بما عملـوا
وغــزوة يـوم نجد ثم كـان لهـم	مع الرسول بهـا الأسلاب والنَّفَل(١٤٦)
وليلـة بحنـين جـالدوا معـه	فيها يعلهم بالحرب إذ نهلوا(١٤٧)
وغــزوة القـاع فرقنـا العـدو به	كما تفرق دون المشرب الرسل(١٤٨)
ويوم بويـع كـانوا أهـل بيعتـه	على الجلاد فآسوه وما عجلوا(١٤٩)
وغــزوة الفتـح كـانوا فى سـريته	مرابطين فما طاشوا وما عجلوا(١٥٠)

---

(١٤٣) غزوة ذى قرد كانت ضد غطفان فى جمادى الأولى سنة ٦ هـ ـ خاموا : ضعفوا

(١٤٤) غزوة ذى العشيرة كانت ضد قريش وبنى مدلج فى جمادى الآخرة سنة ٢ هـ جاسوها : دخلوها ـ البيض : جمع بيضة وهى الخوذة ، الأسل : الرماح

(١٤٥) غزوة ودَّان كانت فى صفر سنة ٢ هـ وكانت ضد قريش وبنى ضمرة ـ الحزن : المكان الصعب .

(١٤٦) هى سرية زيد بن حارثة الكلبى كانت ضد قافلة لقريش فى موضع اسمه القردة ـ ماء بنجد ، وقد غنم المسلمون القافلة .

(١٤٧) العلل : الشرب الأول ، والنهل : الشرب الثانى ، وقد استعار ذلك لمداومة القتال .

(١٤٨) لعلها غزوة ذات الرقاع ضد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان وكانت بنجد فى شعبان من السنة الرابعة هـ ، وقد فر بنو ثعلبة وبنو محارب .

الرسل : بفتحتين القطيع من الإبل والجمع أرسال ، مثل سبب وأسباب ، وبه شبه الناس فقالوا : جاءوا أرسالاً أى متابعين .

(١٤٩) يقصد بيعة الرضوان فى الحديبية ، والجلاد : الجهاد

(١٥٠) طاشوا : خابوا ، تقول : طاش السهم عن الهدف انحرف عنه

ويـوم خـيبر كانـوا فى كتيبتـه يمشون كلهم مستبسل بطل[151]
بالبيـض ترعـش فى الأيمـان عاريـة تعوج فى الضرب أحيانا وتعتدل[152]
ويوم سـار رسـول اللـه محتسـبا إلى تبـوك وهُـم راياتُـه الأُوَل
وسـاسة الحرب إن حرب بدت لهم حتى بـدا لهـم الإقبال والقفل[153]
أولئـك القـوم أنصـار النبى وهـم قومـى أصير إليهـم حين اتصـل
ماتـوا كراما ولم تنكـث عـهودهم وقتلهـم فى سـبيل اللـه إذ قتـلوا

لقد عدد حسان فى هذه القصيدة كثيرا من غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى خاضها الأنصار معه ، وكانوا أنصاره حقا ، ومن حق حسان أن يفخر بقبيلته التى أثنى الله عليها ثناء مستطابا يبقى أبد الدهر ، ووصفهم بالصدق والإيثار .

مدح العباس للنبى :

ونحب أن نختم هذا الحديث بالاشارة الى قصيدة استقبل بها العباس بن عبد المطلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند دخوله المدينة قافلا من غزوة تبوك ـ وكان رسول الله قد دخل المسجد فقال : الحمد لله على مارزقنا فى سفرنا هذا من أجر وحسبة . وجاءه عمه العباس فقال له : يارسول اللله إنى أريد أن أمتدحك أتأذن لى ؟

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قل لايفضض الله فاك . فقال العباس :

---

(١٥١) مستبسل : البسالة : الشجاعة .
(١٥٢) البيض : جمع أبيض وهو السيف ، والأيمان : جمع يمين وهى اليد ، وتعوج : تميل
(١٥٣) القفل : العودة

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يُخْصفَ الورق[١٥٤]

ثم هبطت البلاد لابشر أنت ولامضغة ولاعلق[١٥٥]

بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهله الغرق[١٥٦]

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق[١٥٧]

وردت نار الخليل مكتتما فى صلبه أنت .كيف يحترق[١٥٨]

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندق علياء تحتها النطق[١٥٩]

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن فى ذلك الضياء وفى النور وسبل الرشاد نخترق[١٦٠]

وقد ذكر الزرقانى أن هذا الخبر أورده الطبرانى فى معجمه .

وهو يشير كما قلنا قبل ذلك الى إقبال النبى - صلى الله عليه وسلم - على سماع الشعر ، وتذوقه ، وإثابته عليه ولو بالدعاء . ودعاؤه - صلى الله عليه وسلم - مستجاب دون شك .

---

(١٥٤) يشير إلى ظلال الجنة ، يعنى أنك كنت فى صلب آدم حين كان يعيش فى الجنة قبل هبوطه إلى الأرض . .

(١٥٥) يعنى أنك تقلبت فى الأصلاب الطاهرة من بنى آدم بعد نزوله الأرض .

(١٥٦) وكنت فى صلب نوح حين ركب السفينة ، وقد غرقت البلاد بما فيها الأصنام التى يعبدها قومه

(١٥٧) أى إذا مضى عالم أنت فيه بواسطة من كنت فى صلبه ، والطبق : عالم آخر تكون فيه بانتقالك من أصل إلى فرع . والطبق هو القرن ، سمى القرن طبقا لأنهم طبق للأرض أى يغطونها ثم ينقرضون .

(١٥٨) أى كنت فى صلب الخليل حيث ألقى فى نار النمروذ . وكان وجودك فى صلبه هو الذى حماه من الاحتراق ، إذ كيف يحترق وأنت فى صلبه ؟ الاستفهام المقصود به النفى .

(١٥٩) النطق : جمع نطاق ، والمراد الأماكن ، وخندف : اسم امرأة ينتسب إليها المضريون وهو مثل يضرب فى النسب العالى

(١٦٠) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٣ صـ٨٣

قصة ثعلبة بن حاطب :

أورد القرآن الكريم قصة الرجل الذى طلب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوسع له فى الرزق لينفق منه فى سبيل الله ، وعاهد الله على ذلك ، فلما أفاء الله عليه نعمته . جحد وأبى أن يؤدى صدقة ماله . وقد نزل فى ذلك قوله تعالى ـ

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١٦١)

وأشار البيهقى إلى اسم هذا المنافق ، فقال : عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ان قوله ـ تعالى :

« ومنهم من عاهد الله . . »

جاءت فى شأن رجل من الأنصار كان يقال له : ثعلبة . . أتى مجلسا فأشهدهم فقال : لئن أتانى الله من فضله أتيت كل ذى حق حقه . وتصدقت منه . ووصلت منه القرابة . فابتلاه الله فأتاه من فضله ، فأخلف ماوعد فأغضب الله بما أخلفه بما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن .

---

(١٦١) التوبة ٧٥ ـ ٧٨

كما روى البيهقى ماذكره أبو أمامة فى ذلك ، فقال :

جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا .

قال : ويحك ياثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لاتطيقه .

قال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحك ياثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه . .

قال : يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا .

قال : ويحك ياثعلبة . أما تحب أن تكون مثلى ؟ فلو شئت أن يُصَيِّر ربى هذه الجبال لى ذهبا لصارت .

قال : يارسول الله . ادع الله أن يرزقنى مالا ، فوالذى بعثك بالحق إن أتانى الله ـ عز وجل ـ لأعطين كل ذى حق حقه .

قال : ويحك ياثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لاتطيقه .

قال : يارسول الله ، ادع الله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم ارزقه مالا .

قال : فاتخذ أو اشترى غنما فبورك فيها ، ونمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت به المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولايشهدها بالليل .

ثم نمت كما ينمو الدود ، فتنحى بها ، فكان لايشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار الا من جمعة الى جمعة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم

نمت كما ينمو الدود ، فضاق به مكانه فتنحى بها فكان لايشهد جمعة ولاجنازة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار . وسأل عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن المدينة ضاقت به ، وأخبروه خبره .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ويح ثعلبة بن حاطب ، ويح ثعلبة بن حاطب !

ثم إن الله ـ تعالى ـ أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذ الصدقات ، وأنزل قوله ـ تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(١٦٢)

فبعث رسول اله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين ، رجلا من جهينة ورجلا من بنى سلمة يأخذان الصدقة ، وكتب لهما أسنان الابل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها التى أمر بها الشرع ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب ، ورجل من بنى سليم . فخرجا فمرا على ثعلبة فسألاه الصدقة .

فقال : أريانى كتابكما . فنظر فيه ، فقال : ماهذا إلا جزية ، انطلقا حتى تفرغا من جمع الصدقة من الآخرين ثم مُرَّا بى . .

قال : فانطلقا . وسمع بهما السلمى أى الرجل الذى كان ينتمى الى بنى سليم ـ فاستقبلهما بخيار إبله .

فقالا : إنما عليك دون هذا .

---

(١٦٢) التوبة ١٠٣

فقال : ماكنت أتقرب الى الله إلا بخير مالى ، فقبلا منه .

فلما فرغا مرا بثعلبة . فقال : أريانى كتابكما . فنظر فيه ، فقال : ما هذا إلا جزية ، انطلقا حتى أرى رأيى .

فانطلقا حتى قدما المدينة . .

فلما رآهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ـ قبل أن يكلمهما ـ ويح ثعلبة بن حاطب ، ودعا للسلمى بالبركة ، وأنزل الله ـ تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (١٦٣)

قال : فسمع بعض أقارب ثعلبة بنزول الآية وبما قاله الرسول ـ فذهب إلى ثعلبة وقال له : ويحك ياثعلبة أنزل الله فيك كذا كذا .

فقدم ثعلبة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، هذه صدقة مالى .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الله قد منعنى أن أقبل منك . فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه .

---

(١٦٣) التوبة ٧٥ ـ ٧٧

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى . ولم يقبل منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى مضى عليه الصلاة والسلام أى لقى ربه . . ثم أتى ثعلبة أبا بكر . فقال : ياأبا بكر ، اقبل منى صدقتى ، فقد عرفت منزلتى من الأنصار .

فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبلها ؟ ـ وكان أبو بكر متبعا لنهج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يقبلها .

ثم ولى عمر بن الخطاب فأتاه ، فقال: ياأبا حفص ، ياأمير المؤمنين ، اقبل منى صدقتى ، وتثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال عمر : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاأبو بكر ـ أقبلها أنا ؟ وأبى عمر أن يقبلها .

ثم ولى عثمان ، فهلك فى خلافة عثمان .

قال : وفيه نزلت الآية . .

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١٦٤)

قال البيهقى : هذا حديث مشهور فيما بين أهل التفسير ، وإنما يروى موصولا ، بأسانيد ضعاف ، فان كان امتناعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من

---

(١٦٤) التوبة ٧٩

قبول توبته وقبول صدقته محفوظا فكأنه عرف نفاقه قديما ثم زيادة نفاقه وأنه سيموت عليه ثم أنزل الله ـ تعالى ـ عليه من الآية حديثا ، فلم ير كونه من أهل الصدقة . فلم يأخذها منه والله أعلم .[١٦٥]

لقد صرح البيهقى فى خبره الذى سقناه باسم ذلك الرجل الذى نزلت فى شأنه الآيات ، وأنه هو ثعلبة بن حاطب .

ولكن بعض العلماء يقولون : إنها فى رجل آخر . . لأن ثعلبة بن حاطب بدرى أنصارى . . وممن شهد الله ورسوله له بالايمان . ولعل قول من قال فى ثعلبة انه مانع الزكاة الذى نزلت فيه هذه الأيات غير صحيح . .

وربما تكون الآية حكما عاما ينطبق على كل من تعهد بشىء فقصر فيه ، أو وعد بشىء فأخلف فيه ، أو حدث بشىء فكذب فيه ـ وهذه هى صفات المنافق الذى ورد فيه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان »

ولقد قال بعض العلماء : إن الآية نزلت فى رجال من المنافقين هم : نبتل ابن الحارث ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير .[١٦٦]

وقد ذكر القرطبى أيضا قصة ثعلبة على النحو الذى ذكره البيهقى وقدمناه . ولكنه لم يجزم جزما قاطعا بأن الآيات نزلت فى شأنه هو . وأشار إلى أن ثعلبة بدرى . ولكنه قال : وماجاء فى أنه شهد بدرا معارض بقوله ـ تعالى ـ « فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم » .

---

(١٦٥) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ صـ ٢٨٩

(١٦٦) تفسير القرطبى جـ ٨ صـ ٢١٠

وسبحان مقلب القلوب والأحوال . . وقد حذر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الفتن التى يمسى فيه الرجل مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح مؤمنا ويمسى كافرا ، ولافتنة كفتنة المال التى تصنع على العين غشاوة فلاينظر الانسان الا نفسه .

وقد صور بعض الأدباء غفلة كثير من الأغنياء عن الفقراء .

فقال : إن الانسان الذى ليس عنده مال ينظر الى الناس من خلال زجاج أبيض شفاف فإذا أثرى وضع المال على الزجاج غشاء زئبقيا يحول الزجاج الى مرآة فلاينظر الا نفسه . .

ترجمة ثعلبة فى أسد الغابة

ذكر ابن الأثير ترجمة ثعلبة بن حاطب فى كتابه فقال : هو ثعلبة بن حاطب ابن عمرو بن عبيد بن أمية من بنى عوف بن مالك بن الأوس الأنصارى الأوسى ، شهد بدرا . .

قال : وهو الذى سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرزقه مالا .

وذكر القصة التى ذكرها البيهقى عن أبى أمامة بتمامها .

قال ابن الأثير : وقال ابن الكلبى : ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد ابن أمية الى آخر النسب المذكور . شهد بدرا ثم قتل يوم أحد .

قال ابن الأثير : فإن كان هو الذى فى هذه الترجمة فإما أن يكون ابن الكلبى قد وهم فى قتله . أو تكون القصة غير صحيحة . أو يكون غيره .[١٦٧]

---

(١٦٧) أسد الغابة جـ١ صـ٢٨٣

وقد أحصى ابن هشام فى سيرته أسماء من استشهدوا فى أحد من المهاجرين والأنصار وذكرهم على بيوتهم وقبائلهم ، ولايوجد فيهم من يسمى ثعلبة بن حاطب . . ولكن يوجد رجل من بنى ظفر اسمه يزيد بن حاطب ولانعتقد ان ابن الكلبى وهم بين الاسمين . .

الحج الأكبر

بعد عودة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبوك فى رمضان سنة تسع أقام بقية رمضان ، وشوال ، ثم انه أراد أن يحج . . ولكن يبدو أن بعض المهام أو الظروف قد حالت دون ذلك . ـ وربما لأن بعض مظاهر الجاهلية كانت مازالت تؤتى فى الحج ـ فأرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ أميراً على الحج . ويعث معه بأربعين آية من أول سورة « براءة » ليقرأها على الناس فى الموسم .

ويقال إنه لما خرج أبو بكر بالناس ، دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علياً ، وقال له : « أخرج بهذه الآيات من صدر براءة فأَذِّن بذلك فى الناس إذا اجتمعوا » فخرج علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ على ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى تُسمى العضباء ، حتى أدرك أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ بذى الحُلَيْفَة . فحين رآه أبو بكر قال له : أميرٌ أو مأمور ؟

فقال على : بل مأمور .

ثم نهضا ، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها وقرأ علىٌّ على الناس سورة « براءة » حتى ختمها قبل يوم التروية بيوم ، وقرأها كذلك يوم عرفة ـ بعد خطبة أبى بكر ـ كما قرأها فى يوم النحر ثلاثة أيام متواليات .

فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس فحثهم كيف ينفرون وكيف يرمون ، وأخذ يعلمهم مناسكهم . وحين فرغ قام عَلِيّ فقرأ على الناس « براءة » حتى ختمها . .

وكان أبو بكر يطلب منه ذلك ، قائلاً له : قم يا على فأدّ رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقوم على ويفعل - أى يقرأ السورة . . وينبه الناس إلى أمور طلبها النبى - صلى الله عليه وسلم -

وسأل رجل علياً . . بأى شيء بعثت فى الحج ؟

قال : بعثت بأربع : ألا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبى - صلى الله عليه وسلم - عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون فى الحج بعد عامهم هذا . .

وفى الحقيقة لم يكن هذا أول حج رسمى للمسلمين ، بل سبقه حج آخر فى العام الثامن بعد انصراف الناس من حصار الطائف ، وعودتهم إلى المدينة فى شوال سنة ثمان ، بقيادة النبى - صلى الله عليه وسلم -

لقد نَصَّبَ النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك العام - عَتَّابَ بنَ أسيد أميراً على مكة ، وجعله أميراً للحج أقام للناس حجهم .

وعلى الرغم من أن عَتَّابَ بن أسيد أسلم يوم فتح مكة إلا أنه كان خيِّراً فاضلاً ورعاً .

وهو عَتَّاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى ، ويُكنى أبا عبد الرحمن ، وقيل : أبو محمد .

استعمله النبى - صلى الله عليه وسلم - على مكة بعد فتحها حين سار إلى حنين ، وترك معه معاذ بن جبل يفقه أهل مكة فى الدين ، وقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يا عتَّاب ، تدرى على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله - عز وجل - ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم » .

كان عمره حينذاك نيِّفاً وعشرين سنة ، فأقام للناس الحج ، وحجَّ المشركون على ما كانوا يحجون عليه . .

ولم يزل عتَّاب على مكة إلى أن توفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقره أبو بكر عليها إلى أن مات أبو بكر ، وقيل : توفى عتَّاب فى العام الذى توفى فيه أبو بكر - رضى الله عنهما .

وقيل : جاء نعى أبى بكر إلى مكة يوم دُفن عتَّاب .

ومن دلائل صلاح عتَّاب وزهده ما روى عنه أنه قال : أَصَبْتُ فى عملى الذى استعملنى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بُرْدَين معقَّدين[١٦٨] ، كسوتهما غلامى كيسان ، فلا يقولن أحدكم : أخذ منى عتَّاب كذا ، فقد رزقنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل يوم درهمين ، فلا أَشْبَعَ الله بطناً لا يشبعه كل يوم درهمان[١٦٩] .

رحم الله عتَّابا . . . . ففى قوله هذا نورٌ يهتدى به العمال والأمراء

---

(١٦٨) البرد المعقد : نوع من برود هجر

(١٦٩) أسد الغابة جـ ٣ صـ ٥٥٦

والحكام لو أرادوا أن يكون حسابهم خفيفاً وميزانهم ثقيلاً ، وولايتهم نوراً وعملهم قدوة .. وكان أبو بكر - رضى الله عنه - ثانى أمير للحج يحج بالناس ، ويعلم الناس مناسكهم ..

كيف كان المشركون يحجون ؟

كان المشركون يطوفون بالبيت وحوله الأصنام ، ومع تعظيمهم الكعبة كانوا يعظمون هذه الأصنام وينحرون لها .

وابتدعت قريش بدعة جديدة أضافتها إلى مناسك الحج ، فقد قالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت ، وقطان مكة وسكانها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا نعرف لأحد من العرب مثل ما نعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم .... وقد ترك هؤلاء الوقوف بعرفة والافاضة منها ، مع أنهم يعرفون ويقرون أنها من مشاعر الحج ودين إبراهيم - عليه السلام -

ولكنهم لم يمنعوا سائر العرب أن يفيضوا منها ، لقد خصوا أنفسهم بذلك وسموا أنفسهم الحمس .... والحمس هم الذين تحمسوا فى دينهم واعتقدوا أنه يحل لهم من الأمور مالا يحل لغيرهم من الناس .... ودخلت كنانة وخزاعة مع قريش فيما دخلت فيه من الحمس .

ولم تزل قريش تزيد فيما ألزمت نفسها به حتى ابتدعت أموراً لم تكن . وحجرت على نفسها واسعاً ، فقالت : لا ينبغى للحمس وهم حُرُم أن

يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حُرُماً .

ثم زادوا فقالوا : لا ينبغى للحجاج أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حُجّاجاً أو عُمّاراً ، ولا ينبغى أن يطوفوا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس . . وإن طافوا بثيابهم التى جاءوا بها ألقوها بعد الطواف ولا ينتفعون بها بعد ذلك ، ولا ينتفع بها أحد ، وتسمى هذه الثياب اللّقى ، وألزموا بذلك العرب فالتزمت به .

وقال رجل من العرب ـ وقد نظر إلى ثيابه التى يحبها وقد ألقاها ولا يستطيع أن يقربها :

كفى حَزَناً كرّى عليها كأنها لقى بين أيدى الطائفين حريم

ومعنى حريم أى حرام لا تمس . . إنه يرثى هذه الثياب التى ذهبت ضحية ما ابتدعه هؤلاء من عادات لا أصل لها فى شريعة الحج . .

الاسلام يبطل ذلك

فلما جاء الاسلام أنار للناس طريقهم وحرر عقولهم ، وألغى هذه العادات الباطلة ، وأنزل الله فى كتابه الكريم قوله :

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (١٧٠)

---

(١٧٠) البقرة ١٩٩

قال القرطبي : الخطاب في هذه الآية ـ لأهل مكة الذين كانوا يطلقون على أنفسهم ـ الحمس ـ فإنهم كانوا لا يقفون بعرفات ، بل ـ يقفون بالمزدلفة ولا يقفون بعرفة ـ وكانوا يقولون : نحن قطين الله ـ أي سكان حرمه ـ فينبغي أن نعظم الحرم ولا نعظم شيئاً من الحل ، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ لا يخرجون من الحرم .. ويقف غيرهم من الناس بعرفة(١٧١) .

لقد دعاهم الاسلام إلى أن يقفوا في عرفات كما يقف الناس . ويندفعوا منها كما يندفع الناس .

ودعاهم إلى نبذ ما حرموا على أنفسهم من طيبات اللباس والطعام فقال لهم :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ ﴾(١٧٢)

---

(١٧١) تفسير القرطبي جـ٢ صـ٤٠٤

(١٧٢) الأعراف ٣١ : ٣٣

روى هشام بن عروة عن أبيه قال : كان الحمس ـ الذين تحمسوا فى دينهم ـ يقولون : لا ينبغى لأحد من العرب أن يطوف إلا فى ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا ، فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً من ثياب الحمس ، وليس معه مال يستأجره به . كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف فى ثيابه فإذا فرغ من طوافه ألقاها فلا يمسها أحد ، وإما أن يطوف عرياناً فأبطل الاسلام ذلك ونادى مؤذن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا لا يطوفن بالبيت عريان(١٧٣) .

النبى يخالف الحمس قبل الهجرة

وقبل أن يشرع الحج فى الاسلام حج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على شرعته قبل الهجرة ، بل قبل أن ينزل عليه الوحى ، فقد روى ابن إسحاق فى سيرته ما ذكره جبير بن مطعم قال : لقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن ينزل عليه الوحى ، وإنه لواقف على بعير بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقاً من الله له ـ صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً(١٧٤) »

ولقد قال جبير بن مطعم حينذاك : هذا رجل أحمس فما باله لا يقف مع الحمس حيث يقفون(١٧٥) ؟

---

(١٧٣) تفسير القرطبى جـ ٧ صـ ١٨٩

(١٧٤) سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ٢٣٣

(١٧٥) الروض الأنف للسهيلى جـ ١ صـ ٢٣٤

الحج الأكبر

ورد ذكر الحج الأكبر فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾[176]

وقبل أن نتحدث عن مفهوم الحج الأكبر نشير الى مناسبة هذه الآية التى تنير لنا الطريق إلى ذلك .

وردت هذه الآية الكريمة فى صدر سورة براءة بعد قوله ـ تعالى ـ

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾[177]

لقد نزلت هذه السورة بعد غزوة تبوك ، وفى أولها نبذ عهود الكفار إليهم كما أنها كشفت أسرار المنافقين وفضحت تدبيرهم وتآمرهم . .

ولأنها نزلت تحمل سخط الله على الكافرين ، ونبذ عهدهم إليهم لم يجىء فى أولها « بسم الله الرحمن الرحيم » التى هى قمة الأمان . .

---

(١٧٦) التوبة ٣

(١٧٧) التوبة ١ ، ٢

وقد ذكر بعض الرواة تعليلاً آخر لعدم ذكر البسملة فى أولها ذاك أنها مع الانفال تكونان سورة واحدة . . فتركت البسملة بينهما للاشارة الى ذلك .

وذكر بعضهم تعليلات أخرى فى ذلك . ولكن الذى يطمئن إليه القلب هو ما ذكر أولاً .

وهو أن ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ رحمة . وبراءة سخطة لذلك لم يجمع الله بينهما . . أو لأن التسمية أمان ، وهذه السورة نزلت فى المنافقين ولا أمان للمنافقين . .

وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حين نزلت قد فصل عن المدينة هو ومن معه من المسلمين فى طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج . فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلفه على بن أبى طالب ليقرأها على الناس . والحكمة فى إرسال على بها . أن هذه السورة تضمنت أمر الله لرسوله بنبذ العهد الذى كان عقده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينه وبين بعض الناس ، وكانت سنة العرب ألا يُحِل العقد إلا الذى عقده أو رجل من أهل بيته ، فأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقطع ألسنة العرب بالحجة ، ويرسل ابن عمه الهاشمى من بيته بنبذ العهد حتى لا يبقى لهم متكلم .

مفهوم الحج الأكبر فى الآية

وقد اختلف العلماء فى مفهوم الحج الأكبر فى الآية ، فقال بعضهم : هو يوم عرفة استناداً إلى الأثر : الحج عرفة . . . . ولما روى من حديث : « يوم الحج الأكبر يوم عرفة » وقال بعضهم : هو يوم النحر ـ وسند هذا ما رواه ابن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقف يوم النحر فى الحجة

التى حج فيها فقال : « أى يوم هذا ؟ » .

فقالوا : يوم النحر .

فقال : « هذا يوم الحج الأكبر »

وإنما قيل لهذا اليوم الحج الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر - وقد نبذ أبو بكر فى هذا العام عهود الكافرين ، ونادى ألا يحج بعد هذا العام إلى البيت مشرك .

وقال ابن أبى أوفى - فيما يرويه القرطبى - يوم النحر يوم الحج الأكبر - يراق فيه الدم ، ويوضع فيه الشعر ، ويلقى فيه التفث ، ويتحلل فيه المحرم . ويوم النحر فيه الحج كله ، لان الوقوف كان فى ليلته ، والرمى والنحر والحلق والطواف فى صبيحته .

وقال بعضهم : الحج الأكبر أيام منى كلها ، وهذا كما يقال : يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعاث ، فيراد به الحين والزمان لا نفس اليوم .

وقال بعضهم : الحج الأكبر هو القِران ، والأصغر هو الافراد والقِران - هو الجمع بين الحج والعمرة ، فى إحرام واحد ، والإفراد . . . . . هو الإحرام بالحج وحده . أما التمتع فهو الإحرام بالعمرة فى أشهر الحج ، ثم يتحلل ويحرم يوم التروية بالحج .

وقال بعضهم : الحج الأكبر هو الذى فيه الوقوف بعرفة ، والأصغر العمرة وقال بعضهم : الحج الأكبر هو أيام الحج كلها .

وقال بعضهم : إن الحج الأكبر هو الذى حج فيه المسلمون والمشركون وهو العام الذى حج فيه أبو بكر بالناس ، وصادف أن اتفقت فيه يومئذ

أعياد الملل : اليهود والنصارى والمجوس . ولكن كثيرين ضعفوا هذا الرأى .

وقال بعضهم : إن الحج الأكبر هو الذى حجه أبو بكر بالناس وقد نبذت فيه العهود .

وقال بعضهم : إن الحج الأكبر هو العام الذى حج فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - بالناس ، وهو العام التالى لحجة أبى بكر ، وهو حجة الوداع الذى حجت فيه مع النبى - صلى الله عليه وسلم - الأمم .

المعانى التى تناولتها سورة براءة

أول آيات نزلت فى هذه السورة تقضى بنبذ ما بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم . وكان العهد العام بينه وبينهم فى ذلك هو ألا يُصَدَّ عن البيت أحدٌ جاءه ، ولا يخُاف أحد فى الشهر الحرام .

وكانت هناك عهود خاصة بينه وبين قبائل من العرب إلى آجال . . وقد قضى الله أن يتم عهد الذين لم ينقضوا عهدهم إلى مدته ، ثم لا تجديد للعهد مرة أخرى . فقد آن للاسلام أن يفرض سلطانه على الجميع ، وآن للجزيرة العربية ألا يكون فيها مشرك أبداً ، وفى ذلك يقول الله - تعالى -

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (178)

وقد أشارت الأيات بعد ذلك الى أن الاسلام يجير من استجار به من المشركين حتى يبلغه مأمنه ، وهذا يعنى إنسانية هذا الدين ورحمته ، فليس معنى تضييق الأمور على المشركين أن يعاملوا تلك المعاملة الوحشية التى يعامل بها المستعمرون والغاصبون الناس ، وطالما سمعنا وقرأنا من صور الاعتداءات على الآمنين والعزل من النساء والأطفال والشيوخ مما تقشعر له الأبدان . . فأين ما يحدث من هذه الصور الآثمة من قوله - تعالى -

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (179)

نكث المشركين لعهودهم

لقد رأينا - فيما سبق - كيف نقضت قريش عهدها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى أبرمته فى الحديبية ، وظاهرت بكرا على خزاعة ، واشتركت معها فى الاعتداء على حلفاء النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك أنه لا عاصم للمشرك من دين يمنعه من نقض العهد . ولئن أثر عن العرب

---

(178) التوبة ٤ ، ٥

(179) التوبة ٦

الوفاء بالعهود فإن ذلك كان يمحى أمام الخصومة الشديدة والحقد الدفين .
وأصبح الوفاء بالعهد سمة خاصة لأفراد قلائل كان يضرب بهم المثل فى الوفاء بالعهود ، ولو كان سمة عامة لما أصبح هؤلاء الأفراد القلائل مضرب الأمثال ولأصبح العرب جميعاً هم مضرب المثل فكان يقال : أوفى من العرب ، ولا يقال : أوفى من السموأل ـ مثلاً . .

فلما جاء الاسلام جعل الوفاء سمة عامة للمؤمن ، وجعل الغدر سمة الكافر والمنافق . فقال الله فى حق الكافرين :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١٨٠)

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حق المنافقين : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد خلف وإذا أؤتمن خان » .

ووصف القرآن الكريم أخلاق المشركين لو قدر لهم الظهور على المسلمين ، فقال :

« كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون »

---

(١٨٠) التوبة ٧ ، ٨

وقد رأينا مصداق ذلك فى غزوة أحد ، حين قدر للمشركين أن يكسبوا جولة من جولات الحرب ففعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، ومثلوا بجثث القتلى شر تمثيل ، حتى أحفظ ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - وهم الحليم الذى فاق حلمه كل البشر - فأقسم لئن أظفره الله عليهم ليمثلن بهم - فأنزل الله - تعالى - قوله - معزياً لرسوله ومرشداً

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ (١٨١)

والإلّ فى قوله - تعالى « إلاّ ولا ذمة » هو العهد والحلف والجوار ، والذمة كذلك العهد والحرمة التى تلزم الانسان فإذا ضيعها أذنب .

وجوب قتال الكفار

ودعت السورة إلى قتال الكفار الذين ينكثون عهودهم ويناصبون المسلمين العداء ، ويطعنون فى دينهم ، لأن اللين مع أمثال هؤلاء لا يجدى . وقد انتهى الوقت الذى يمكن أن يصبر فيه المسلمون على الأذى ، ويلاينوا أعداءهم ويضبطوا أعصابهم أمام استفزازاتهم . وقد قال الله - تعالى فى ذلك :

---

(١٨١) النحل ١٢٦ : ١٢٨

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾[182]

لقد تضمنت هذه الآيات عدة أحكام .

منها وجوب قتال الكفار الناكثين للعهود الطاعنين فى الدين المؤذين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ومنها أن الطعن فى الدين يتناول كل استخفاف به أو نسبة ما لا يليق به إليه ، بعد أن ثبت بالدليل القطعى صحة أصوله واستقامة فروعه . كما يتناول الاستهانة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو إيذائه

روى أن رجلاً قال فى مجلس على ـ كرم الله وجهه ـ ما قتل كعب بن الأشرف إلا غدراً ، فأمر عَلِيّ بضربه ، وقال هذا القول رجل آخر فى مجلس معاوية ، فلم يرد معاوية ، فقام محمد بن مسلمة وقال : أيقال هذا فى مجلسك وتسكت ؟ والله لا أجالسك أبداً ، ولئن خلوت بهذا الرجل لأقتلنه .

---

(١٨٢) التوبة ١٢ : ١٥

قال العلماء : إن جزاء الذى يستهين بحرمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقتل ولا يستتاب ـ ولعل سندهم فى ذلك ما جاء فى القرطبى من أن رجلاً أعمى كانت له أم ولد له منها ابنان ، شتمت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما صبر الرجل على ذلك فقتلها ، فأهدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دمها ـ أى لم يعاقب الرجل على قتلها ـ ومنها أن الآيات ذكرت العلة فى قتال هؤلاء . . . . وهى نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالعدوان .

ومنها أن الخوف من الأعداء ضعف لا ينبغى لأهل العزة المسلمين أن يتلبسوا به .

ومنها : أن فى الآيات إشارة إلى أن الله يتوب على بعض أقوام كانوا من أئمة الكفر والشقاق ، مثل عكرمةبن أبى جهل وأبى سفيان ، وسليم بن أبى عمرو ، وقد كان هذا . . وحسن إسلامهم وأبلوا فى الاسلام بلاء حسنا .

عمارة المسجد الحرام

وأشارت السورة الكريمة الى مازعمه بعض الكفار من أن عملهم فى عمارة المسجد الحرام لا يقل شأنا عن الاسلام . فانزل الله قرآنا يوضح فيه أن أساس كل عمل صالح هو الاسلام ، وبدونه لا يقبل شيء . وقال فى ذلك قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ

إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١٨٣)

وقد ذكر العلماء فى أسباب نزول هذه الآيات أقوالا ..

منها : أنه ليس للمشركين أن يتولوا شئون البيت من سداته وسقاية ورفادة ، ولا ينبغى أن يتولى هذه الأمور الا مسلم .

ومنها : مارواه النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله - ﷺ - فقال رجل : ما أبالى ألا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج .

وقال آخر : ماأبالى ألا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام .

وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم .

فزجرهم عمر - رضى الله عنه - وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر

---

(١٨٣) التوبة ١٧ : ٢٢

رسول الله - ﷺ - وكان اليوم يوم جمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله واستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله - تعالى - اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله .. الآية ...

ولا مانع من تعدد النزول ..

ويتعلق بعمارة المساجد بعض الأحكام التى نذكرها فيمايلى :-

● عمارة المسجد تطلق على بنائه وإصلاحه ، وتطلق ايضا على لزومه . والاكثار من الصلاة فيه ..

فالعمارة حسية ومعنوية ، وكلاهما مراد فى الآية .

● هناك علاقة بين هذه الآيات الكريمة ، وآيات البراءة من المشركين . وهذه العلاقة تظهر فى ذكر عيوب المشركين التى تستوجب البراءة منهم .. ومايزعمونه من أنهم يقومون بأعمال صالحة كعمارة المساجد وسقاية الحجيج شىء لا قيمة له ماداموا غير مسلمين .

● أمر المؤمنين بعمارة المساجد يتناول وجوه العمارة الحسية والمعنوية ويستلزم ترميم ماتهدم من المساجد وتنظيفها وتنويرها وتطييبها واعتيادها للعبادة والذكر ، ومن الذكر دراسة العلم فيها ، وصونها عن الجدل والخوض فى أحوال الدنيا ، وفى الحديث الشريف : اذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » ، ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله - رجل معلق قلبه بالمساجد .

● ● المراد بالمساجد فى قوله - تعالى - « إنما يعمر مساجد الله » المسجد

الحرام ، ولكنه ينصرف الى كل مسجد لله فى الارض ، لأن الصيغة تفيد عموم الحكم . وعلى ذلك فلا يليق بالمشركين أن يعمروا أى مسجد من مساجد الله بأنواع العمارة لأن الكفر ينافى ذلك ، كما لا يصح لهم دخول هذه الاماكن الطاهرة . .

ولكن هل يمنع ذلك من استخدامهم فى إقامتها وتشييدها وإصلاحها وخصوصا إذا كانوا مهرة فى ذلك ؟

الظاهر أنه يجوز استخدامهم ، لأن النهى منصرف الى الولاية عليها والاستقلال بتصريف شئونها . . . . . . وذلك كأن يكون غير المسلم مشرفا على المسجد أو ناظرا لأوقافه[١٨٤] مثلا ـ فذلك لا يجوز . .

علاقات جديدة فى الاسلام

والعلاقات بين الناس تظهر فى القرابة والرحم والصهر والنسب ، كما تظهر فى المودة والصداقة ، وربما اتسعت فشملت مايعرف برابطة الإنسانية . . وحين جاء الاسلام أضاف علاقة جديدة هى علاقة الأخوة فى الدين ، وأكدها النبى ـ ﷺ ـ فآخى قبل الهجرة بين المهاجرين ، وآخى بعد الهجرة بين المهاجرين والانصار ، وزكى القرآن الكريم هذه العلاقة الجديدة فدعا المؤمنين الى الاعتصام بها وتقويتها وقال لهم :

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ

---

(١٨٤) روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام للصابونى جـ ١ صـ ٥٧٢

أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (١٨٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ (١٨٦)

ولقد قويت هذه الرابطة حتى حلت محل رابطة النسب وظل المسلمون زمنا يتوارثون بها . . بل لقد دعا الاسلام صراحة ألا يتولى مؤمن كافرا حتى ولو كان أباه أو أخاه ، وقال فى ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم

---

(١٨٥) آل عمران ١٠٣

(١٨٦) الأنفال ٧٢

مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[187]

ولو تأملنا فى هاتين الآيتين رأينا ظاهرهما يخاطب المؤمنين كافة ، وأن الحكم فيهما باق الى يوم القيامة فى قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وقد نزلت آيات أخرى تقوى هذا المعنى ، وتؤكد على قطع العلاقة بين المؤمن والكافر القائمة على التعاطف والمودة . . فقال - تعالى - فى اول سورة الممتحنة .

وقال فى سورة المجادلة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾[188]

---

(١٨٧) التوبة ٢٣ ، ٢٤

(١٨٨) الممتحنة ١ : ٣

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١٨٩)

وقد استجاب المسلمون سراعا لما تضمنته هذه الآيات من أحكام ، وأدركوا عن يقين أن أقوى رابطة حقا هى رابطة الدين التى لا يمكن فى ظلها أن يتخلى المؤمن عن أخيه المؤمن مهما كانت الظرووف والأحوال .

وضرب المؤمنون المثل الكامل فى الايثار والتضامن والحب فيما بينهم حتى ذكره الله فى كتابه الكريم قرآنا يتلى إلى آخر الدهر .

والاسلام مبنى على المصارحة ، ولا يعرف المواربة أو النفاق . حتى اذا ماخشى المؤمنون من قوم يعاهدونهم غشا أو نقضا للعهد وجب عليهم أن ينبذوا عهدهم علانية استجابة لقوله ـ تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١٩٠)

---

(١٨٩) المجادلة ٢٢

(١٩٠) الأنفال ٥٨

فلا يصح أن تكون هناك علاقة قائمة بين المؤمنين وغيرهم على توجس وتربص وانتهاز الفرصة للانقضاض .

وقد فسر القرطبى الآية المذكورة بقوله :

إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالعهد ، فلا توقع بهم ولا تسبق إلى نقض عهدهم حتى تلقى اليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ، فيكونوا فى علم النقض مستويين

قال النحاس : هذا من معجز ماجاء فى القرآن مما لا يوجد فى الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه ، والمعنى : وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد ـ خيانة ـ فانبذ اليهم العهد ، اى قل لهم : قد نبذت اليكم عهدكم . . ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدرا »(١٩١)

هذا إذا لم يقطع العدو العهد . . . أما اذا قطعه العدو فلا يشترط منابذته . روى الترمذى قال : كان بين معاوية والروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاءه رجل على فرس أو يرذون وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ـ فنظروا فاذا عمرو بن عنبسة . فأرسل اليه معاوية فسأله . فقال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ اليهم على سواء » فرجع معاوية بالناس .

---

(١٩١) تفسير القرطبى جـ ٨ صـ ٣٢

فالقرآن فى دعوته المؤمنين الى عدم موالاة أقربائهم الكفار يجرى على سنن المصارحة التى يدعو اليها فى علاقاته . فلا ينبغى أن يكون هناك ودٌّ فى الظاهر وبغض فى الباطن . . وقد دعا الاسلام إلى حرب الكفار حربا شاملة فلو أن كل مسلم نظر الى قريبه بين الكفار وكف سلاحه عنه من أجل هذه القرابة ماحققت الحرب هدفها ، ولما نجح المسلمون فى نشر دين الله .

ولكن المسلمين كانوا عند حسن ظن دينهم ، فلم يراعوا فى الحق لومة لائم ، وكان حب الله ورسوله أولى فى نفوسهم بالايثار من حب الأهل والعشيرة والمال والولد .

أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن قريشا جاءت الى الحصين ـ وكانت تعظمه . فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل ـ يعنون النبى ـ ﷺ ـ فانه يذكر آلهتنا ويسبها .

فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى ـ ﷺ ـ فقالوا : أوسعوا للشيخ . وعمران ـ بن حصين ـ وأصحابه من المسلمين متوافرون ـ عند النبى ـ ﷺ ـ ولم يأبهوا لهذا الداخل ـ أى لم يأبه عمران وأصحابه بذلك . . ولم يعط أهمية لأبيه . . . . فقال حصين للنبى : ماهذا الذى بلغنا عنك ، أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصينةً وخيرا ؟

فقال النبى ـ ﷺ ـ : ياحصين كم تعبد من إله ؟

قال حصين : سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء .

قال النبى ـ ﷺ ـ : فاذا أصابك الضر من تدعو؟

قال : الذى فى السماء .

قال : فاذا هلك المال من تدعو؟

قال : الذى فى السماء .

قال النبى - ﷺ - : أفيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ أرضيته فى الشكر أم تخاف أن يُغلب عليك ؟

قال حصين : لا واحدة من هاتين . قال : وعلمت أنى لم أُكَلِّم مثله .. أى لم أسمع مثل هذا الكلام من قبل .

قال النبى - ﷺ - : ياحصين أسلم تسلم .

قال حصين : إن لى قوما وعشيرة فماذا أقول ؟

قال : قل : اللهم أستهديك لأرشد أمرى وزدنى علما ينفعنى ..

فقالها حصين ، فلم يقم حتى أسلم .

فقام إليه ابنه عمران ، فقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى ذلك النبى - ﷺ - بكى ، وقال :

بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم اليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلنى من ذلك الرقة .... فلما أراد حصين أن يخرج - قال النبى صلى الله عليه وسلم - قوموا فشيعوه الى منزله .

فلما خرج من سدة الباب رأته قريش ، فقالوا : صبأ ، وتفرقوا عنه(١٩٢)

وقد رأينا كيف أن عبيدة بن الجراح كان فى بدر يحاول اتقاء ضربات

---

(١٩٢) الرسول لسعيد حوًا جـ١ صـ١١٩ نقلا عن الإصابة فى تمييز الصحابة جـ١ صـ٣٣٧

والده ضده ، فلما ضيق عليه الخناق دافع عن نفسه وأدى ذلك الى قتل والده . .

ونادى عبد الرحمن بن أبي بكر : هل من مبارز ؟ فهم أبو بكر بالخروج إليه ولكن النبى - ﷺ - منعه من ذلك .

وفى دعوة المؤمنين الى قتال المشركين ذكَّر القرآن المسلمين بأنهم لا يقاتلون بعدد ولكن يقاتلون بمدد الله لهم ونصره إياهم ، فليس لهم أن يخافوا من كثرة المشركين حولهم . ولذلك ذكرهم بما حدث فى حنين حين أغرتهم كثرتهم واعتمدوا عليها فهزموا ، لولا أن أمدهم الله بعونه ونصرهم بجنده فقال لهم :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[١٩٣]

وقد تحدثنا عن هذه الغزوة فيما سبق . أما ذكرها هنا فهو للمناسبة التى أشرنا اليها ، وهى دعوة المؤمنين الى جهاد عدوهم دون خوف من كثرتهم أو عدتهم فانما النصر بيد الله يؤتيه من يشاء .

---

(١٩٣) التوبة ٢٥ ، ٢٦

منع المشركين الاقتراب من المسجد الحرام

وحذرت سورة « براءة » المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام بعد هذا العام . فقد آن أن يتولى زمام هذا البيت أهله ، وألا يحج اليه الا من آمن بالله ورسوله .

ولقد خشيت قريش أن يكون فى منع المشركين دخول البيت الحرام إضرارا بهم فى أرزاقهم ، فطمأنهم من بيده الرزق - سبحانه - بأنه كفيل لهم بأرزاقهم . . قال - تعالى - فى ذلك :

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾(١٩٤)

ففى هاتين الآيتين يُذكِّر الله المؤمنين بأن المشركين نجس لخبث بواطنهم .

---

(١٩٤) التوبة ٢٨ ، ٢٩

وفساد عقائدهم ، وهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فلا ينبغى لهم أن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام ، وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً أو عيلة بسبب أنقطاع ما كان يصل إليكم من هؤلاء الحجاج المشركين فسوف يغنيكم الله من فضله ، ويوسع عليكم من رزقه .

وعليكم أن تقاتلوا المشركين والذين لا يؤمنون بالله ورسوله من أهل الكتاب ، ولا يصدقون باليوم الآخر على الوجه الذى جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يحرمون ما حرم الله ورسلوله حتى يؤدوا الجزية عن انقياد وطاعة وخضوع .

وفى الآيتين كثير من المعانى واللطائف منها . تعليق الغنى بمشيئة الله . وهذا حق لا يجادل فيه عاقل . فإنه لا حيلة فى الرزق قال تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾[195]

وقال :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾[196]

وقال أحد الشعراء فى ذلك :

كم عالم عالم ضاقت مسالكه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً
هذا الذى ترك الأحلام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقاً

---

(١٩٥) سورة الاسراء ٣٠

(١٩٦) سورة البقرة ٢١٢

أجل ، فليست الأرزاق بمقتضى العقل والذكاء ، ولكنها بيد الله ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء ..

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهائم
إن الرزق يجرى بحكمة الله

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٩٧)

وفى الحديث القدسي « إن من عبادى من يصلحه الفقر ولو أغنيته لفسد حاله ، ومن عبادى من يصلحه الغنى ولو أفقرته لفسد حاله » .

فهى مقادير الله تجرى على عباده وفق حكمة أزلية سامية لا يدرى أحد كهنها ، وقد قال الامام الشافعى فى ذلك :

لو كان بالحيل الغنى لوجدتنى بنجوم أقطار السماء تعلقى
لكن من رُزق الحجا حرم الغنى ضدان مفترقان أى تفرق
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ولكن الذى يجب أن يطمئن إليه الانسان أن الرزق مكفول لكل مخلوق اجتهد أو قصر ، وقد قال الحق فى ذلك :

﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٩٨)

---

(١٩٧) سورة الشورى ٢٧
(١٩٨) الذاريات ٢٢ ، ٢٣

وقد ورد فى الأثر : « لو ركب الانسان الريح فراراً من رزق ، لركب الرزق البرق وسبقه »

و « لن تموت نفس حتى تستوفى أجلها ورزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

ولا بأس من الاستئناس بقصة طريفة تدور حول هذا المعنى :

ذكر أبو الفرج فى أغانيه أن عروة بن أذينة الكنانى الشاعر الأموى تنسك وزهد ، وقال شعراً فى الزهد منه :

لقد علمت وما الإشراف من خلقى ... أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

أسعى له فيعنينى تطلبه ... ولو جلست أتانى لا يعنينى

وإن حظ امرىء غيرى سيلغه ... لابد لابد أن يجتازه دونى

وحدث أن تولى هشام بن عبد الملك الخلافة ، فقصده عروة وجماعة من الشعراء يهنئونه . فلما دخل عروة على هشام قال له هشام :

ألست القائل : لقد علمت وما الإشراف من خلقى .. وأنشد الأبيات السابقة ؟

قال عروة : نعم . أنا قائلها .

قال هشام : أفلا قعدت فى بيتك حتى يأتيك رزقك ؟

قال عروة : يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت منى ناسياً .. وغفل عنه هشام ..

فخرج عروة من فوره وركب راحلته ، ومضى منصرفاً إلى المدينة .

وتذكره هشام آخر يومه حين أوى الى فراشه ـ فجعل يقول لنفسه : شاعر

جاءك مهنئاً من مكان بعيد تقول له ما قلت ، وهو شاعر لا يؤمن لسانه ؟
فقال : يا غلام ، عليَّ بعروة . .

ولكن عروة كان قد مضى . . وعرف هشام خبره ، فاستدعى رسولاً وحمَّله جائزة سنية وقال للرسول : الحق به وإياك أن يفوتك ، وأمره أن يقول له : أردت أن تكذبنا وتصدق نفسك ؟

وسار الرسول خلفه يجرى ، فلحقه وقد دخل بيته وأغلق بابه ، فطرق عليه الباب ، ودفع إليه الجائزة ، وقال له ما قاله هشام .
فقال عروة : قل له : قد صدقنى ربى[١٩٩] . .

والذى يجب أن يطمئن إليه المؤمن أيضاً أنه لا ظلم فى قسمة الأرزاق . . فما يفوت المرء فى شيء يجد له تعويضاً فى شيء آخر . ولكن الأبصار تعمى كثيراً عن هذه الحقيقة .

فقد يتسع لأحد الرزق فى المال ولكن لا يُمنح الصحة أو الولد أو هدوء البال أو نجابة الأولاد أو غير ذلك من نعم الحياة وما أكثرها . .
وقد يضيق رزقه من المال ، وينعم الى جانب ذلك بالصحة وهدوء البال وغير ذلك .

إن قصر النظر يخيل لصاحبه أن المال وحده هو سبب السعادة . ولكن السعادة لها أسباب كثيرة قد يمنحها المرء ولا يقدرها حق قدرها . . ولو وقفنا النظر جيداً وفكرنا تفكيراً سليماً لأدركنا أن السعادة الحقيقية فى الايمان

---

(١٩٩) مهذب الأغانى جـ ٦ ص ٤٠١ ـ مع تصرف فى حكاية القصة واتفاق فى مضمونها ـ

والرضا ، وقد فسر بعض العلماء الحياة الطيبة فى قوله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٢٠٠)

فسرها بالرضا والقناعة ، وما أجمل هذا التذوق الذى يفرغ الاطمئنان فى القلب والراحة فى النفس ، فلا يأسى الانسان على فائت ولا يفرح بآت .... مصداقاً لقوله - تعالى

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢٠١)

المراد بالمشركين فى الآية

وقد ذهب بعض العلماء الى أن المراد بالمشركين فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام . . »

هم عبدة الأوثان ، لأن لفظ المشرك يطلق على من اتخذ مع الله إلهاً آخر ، وأن أهل الكتاب وإن كانوا كفاراً إلا أن لفظ المشركين لا يتناولهم .

وقال بعضهم : إن لفظ المشركين يتناول جميع الكفار من عبدة الأوثان وغيرهم .

---

(٢٠٠) النحل ٩٧

(٢٠١) الحديد ٢٣

ونجاسة المشركين معنوية ، فقد ذهب الفقهاء الى أن أبدانهم طاهرة بدليل أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجالسهم ويصافحهم ويشرب من أوانيهم . إلا أن المشرك حين كان يعلن إسلامه يؤمر بالاغتسال ، كما فعل ثمامة بن أثال وقيس بن عاصم ، وقد أمرهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاغتسال حين أسلما .

وأمْرُه بالاغتسال إشعار بأنه أصبح من المسلمين يتطهر كما يتطهرون .

النهى عن دخولهم المسجد الحرام

والمسجد الحرام نظر بعضهم الى ظاهر اللفظ فقال : انه المسجد الحرام بذاته ، ولا بأس من دخول المشرك مكة . .

ولكن بعض الفقهاء قال : إن المقصود بالنهى ينصرف إلى الحرم كله ، مكة وما حولها .

وزاد بعضهم فقال : بل إن النهى ينصرف الى كافة المساجد فى مختلف بلاد الاسلام .

وقال بعضهم : المقصود بالنهى هو عدم تمكينهم من الحج والعمرة .

إشراك أهل الكتاب

والذى يرى أن أهل الكتاب أشركوا ينظر إلى ما أحدثوا فى دينهم ما لم ينزل الله به من سلطان . وأشار إليه المولى ـ عز وجل ـ بقوله :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢٠٢)

ولم يقل اليهود كلهم هذه المقالة ، ولا النصارى أيضاً ، بل طوائف منهم .

وقد مضى فى قصة « عزير » أن سبب قول اليهود فيه ما قالوا أن اليهود بعد موسى ـ عليه السلام ـ قتلوا الأنبياء فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من صدورهم ، فخرج عزير يسيح فى الأرض فأتاه جبريل فقال له : أين تذهب ؟ قال : أطلب العلم ، فعلمه التوراة كلها .

فجاء عزير بالتوراة الى بنى إسرائيل فعلمهم . . فضلوا فيه وقالوا عنه : إنه ابن الله . .

وحين نزل قوله ـ تعالى ـ

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

قال عدى بن حاتم ـ وكان نصرانياً جاء إلى الرسول ليسلم : ما عبدناهم ـ فقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أما إنهم لم يكونوا

---

(٢٠٢) التوبة ٣٠ ، ٣١

يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وأذا حرموا عليهم شيئاً حرموه »

ومن جعل لله ولدا فقد كفر وأشرك ، وجل الذى يقول :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .

وعد بظهور الاسلام

وأراد الله أن يبشر المؤمنين بنشر دينه وظهوره على كافة الأديان الأخرى ، فليس لهم أن يجزعوا من وجود الكفر والأمر بجهاده . فقال تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

وقد ظهر الدين والحمد لله ، وانتشر فى كافة الأرجاء ، وقامت الدولة الاسلامية قوية سامقة ، تخفق رايتها فى مختلف الجهات . وارتفعت كلمة الله فى أماكن ما كان يظن أن يهمس فيها أحد بكلمة الاسلام . .

فقد فتحت فارس ، ودانت بالاسلام ، وقهرت الروم فى أرض العرب وخرجت منها ذليلة منكسرة ، وعلت كلمة الله فى أرض الشام كلها وكانت تحت سيطرة الروم . . وانساح المسلمون فى أقطار الأرض يبشرون بدين الله حتى علت كلمة الله ، وحق وعد الله . .

وبكل أسف لم يستطع المسلمون بعد ذلك أن يحتفظوا بلوائهم مرفوعاً وقصروا فيما أمروا به ، وألهتهم زهرة الدنيا عن واجب الدين ، فخذلهم

الله ، الذى يقول

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[٢٠٣]

ولكنا لا نيأس من رحمة الله . ونتذكر أن هذه الآية كونية ، فلابد - إن شاء الله - من تحققها فى الغد كما تحققت بالأمس . ولن يكون مع دين الله الذى ارتضاه دين آخر . . . . كما قال عز شأنه :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[٢٠٤]

التذكير بوجوب الانفاق فى سبيل الله

لقد أوجب الله الجهاد على المؤمنين بالمال والنفس . وفى دعوته إلى الجهاد بالمال أتى لهم بمثل يتعظون به فقال لهم فى كتابه العزيز :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ

---

(٢٠٣) الحج ٤٠
(٢٠٤) البقرة ٢١٤

ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢٠٥)

ونستخلص من هاتين الآيتين إشارات ودلائل كثيرة .. منها :

● التنبيه الى عدم استغلال الدين فى الإثراء ... فالأحبار والرهبان كانوا يأخذون الأموال من الناس بحسب مكانتهم الدينية لإنفاقها على المحتاجين والمعوزين ، ولكنهم كانوا يكتنزونها ولا ينفقونها على المحتاجين - وقد مر بنا فى قصة سلمان الفارسى ، ما حدث به عن أحد الرهبان فى الشام ، وقد أقام معه يتعلم منه دينه قال : « فمكثت مع رجل سوء فى دينه ، كان يأمر الناس بالصدقة ، فإذا أعطوه شيئاً أمسكه لنفسه ، حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، فمات هذا الرجل فأخبرتهم بخبره فنهرونى - وكذبونى .. فدللتهم على ماله فصلبوه ، ولم يغيبوه - أى يدفنوه - إلا بعد أن رجموه(٢٠٦) »

وهذه الآية وإن كانت تصف أهل الكتاب إلا أن خطاب المؤمنين بها لتحذيرهم مما وقع فيه هؤلاء ، وكان معاوية بن أبى سفيان يذهب إلى أن

---

(٢٠٥) التوبة ٣٤ ، ٣٥

(٢٠٦) أسد الغابة جـ٢ ص ٤١٨

المراد بها أهل الكتاب وحدهم إلا أن أباذر وغيره قالوا إن المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين ، وهو الصحيح ، لأنه لو أراد بها أهل الكتاب خاصة لقال : ويكنزون ـ بدون والذين ـ فلما قال الله ـ تعالى :

« والذين يكنزون . . »

فقد استأنف معنى آخر يبين أنه عطف جملة على جملة .

وما زال أبو ذر يرفع صوته برأيه هذا حتى أوغر صدر معاوية فشكاه إلى عثمان . .

ذكر القرطبي راوياً عن زيد بن وهب قال : مررت بالرَّبْذة ـ وهي موضع قريب من المدينة ـ فإذا أنا بأبي ذر ، فقلت له : ما أنزلك هذا المنزل ؟

قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » .

فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب .

فقلت : نزلت فينا وفيهم ، وكان بيني وبينه في ذلك ـ أي كان بيني وبينه كلام كثير في ذلك ـ

فكتب إلى عثمان يشكوني .

فكتب إليَّ عثمان أن أقدم إلى المدينة ، فقدمتها ، فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك .

فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحيت ، فكنت قريباً . فذلك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمّروا علي حبشياً لسمعت وأطعت[٢٠٧] »

---

(٢٠٧) القرطبي جـ٨ ص ١٢٤ نقلا عن البخاري

وهذه الرواية تنفى عن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ أنه حمل أباذر على الهجرة من المدينة ـ كما زعم البعض ـ كما تنفى عن أبى ذر تهمة الخلاف على عثمان حتى ضاق به ذرعاً . وهذا هو الأجمل بالصاحبين الجليلين ـ رضى الله عنهما ـ

لقد خرج أبو ذر من المدينة من تلقاء نفسه فراراً من كثرة الناس حوله ، وهو رجل لا يميل إلى الشهرة ، ويحب العزلة . . وقد صدَّق بذلك قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يرحم الله أباذر ، يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده » .

وقد ذكرنا قصة هذا الحديث وكيف صدقته الأيام .

فى هاتين الآيتين دليل على مشروعية زكاة المال ، وهى تجب ـ كما يقول القرطبى ـ بأربعة شروط : الحرية والاسلام ومرور الحول وملكية النصاب الخالى من الدَّين .

والنصاب مائتا درهم أو عشرون ديناراً أو مثقالاً ذهبياً . . جاء فى كتاب الدين الخالص[٢٠٨] : وزن العشرين مثقالاً يساوى ٧/٤ ٢٨ درهماً ، أو ٧/١ ٧٩ جراماً ، أو ٧/١ ٤٥٧ قيراطاً وتقوم بسعر اليوم الذى تخرج فيه الزكاة على حسب ما يصل إليه سعر الذهب الذى يرتفع أو ينخفض يوماً عن يوم ، ويحسب على أساس العيار ٢١ ، وهو الذى يغلب تداوله .

وقال بعضهم : تقدر بحوالى ٨٥ جراماً من الذهب عيار ٢١ .

---

(٢٠٨) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب جـ ٨ ص ١٧٥

ما المال الذى يعتبر كنزاً ؟

روى العلماء ما يفيد أن المال الذى تؤدى زكاته لا يعتبر كنزاً وذكروا فى ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بِلِهْزَمتيه ـ يعنى شدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ـ ثم تلا :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (٢٠٩)

فالكنز هو المال الذى لا تؤدى زكاته .

روى أبو داود عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « والذين يكنزون الذهب والفضة » . . كبر ذلك على المسلمين . فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا نبى الله ، إنه كبر على أصحابك هذه الآية . فقال : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم » فكبر عمر .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » .

---

(٢٠٩) آل عمران ١٨٠

وروى الترمذى عن ثوبان أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : قد ذم الله ـ سبحانه ـ الذهب والفضة ، فلو علمنا أى المال خير حتى نكسبه ؟

فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله فقال : « لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة تعين المرء على دينه »

أجل ، وأى شىء أفضل من ذلك ؟ وما قيمة المال الكثير ، يحيط به الكفر من كل جانب ، وإلى جواره زوجة ناقمة جاهدة خائنة تبذر المال وتبدده ذات اليمين وذات الشمال ، ولا تدين لرب النعمة بالحمد ولا تعترف لصاحب المال بالشكر ؟

ومن جمال التذوق البلاغى فى تخصيص الوجه والجنب والظهر بالكى ما قاله بعض العلماء وذكره القرطبى : لما طلبوا المال والجاه شان الله وجوههم ، ولما طووا كشحا عن الفقير ـ أى أعرضوا عنه ـ إذا جالسهم كويت جنوبهم ، ولما أسندوا ظهورهم الى أموالهم ثقة بها واعتماداً عليها كويت ظهورهم .

وقال بعض العلماء : إنما خصت هذه الأعضاء بالكى ، لأن الغنى إذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه ـ أى قطّب وقبض جبهته ـ وإذا سأله طوى كشحه أى أعرض بجانبه .

وإذا زاد عليه فى السؤال ولاه ظهره .

فرتب الله العقوبة على حسب المعصية وأحوالها .

التحذير من الاعتداء فى الأشهر الحرم ، ومن النسيء

جرت عادة المشركين أن ينسئوا الأشهر الحرم ، أى يؤخروها عن مواضعها إذا أرادوا ذلك استحلالاً للقتال . ذلك أن هناك شهوراً محرمة يحرم فيها القتال وهى رجب ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ـ أربعة أشهر ـ فكانوا إذا احتاجوا الى القتال فى المحرم أنسأوه ـ أى أخروه ـ إلى صفر ، وجعلوه بدله فيحرمون القتال فى صفر ويحلون القتال فى المحرم . وكان هذا العمل يسمى النسيء .

وكانوا يعمدون الى ذلك لأنهم أصحاب حروب وغارات ، وكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متواليات لا يقاتلون فيها ، وكانوا يقولون : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئاً لنهلكن .

فكانوا إذا صدروا عن منى فى ذى الحجة يقوم رجل من بنى كنانة يقال له « القلمّس » فينادى فى الناس قائلاً : أنا الذى لا يُرَدُّ لى قضاء . فيقولون له : أنسئنا شهراً ـ أى أخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر . فيحل لهم المحرم ، ويحرم عليهم شهر صفر . . فظلوا يفعلون ذلك شهراً فشهراً حتى استدار التحريم على السنة كلها ، حتى جاءت حجة الوداع التى حج فيها النبىَ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد استدار الزمان كما كان ، وأصبحت الشهور فى مواضعها الصحيحة . .

لقد وافقت حجة أبى بكر التى حجها هذه شهر ذى القعدة . فلما كان العام القابل الذى حج فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وافق الحج موضعه الصحيح فى ذى الحجة . وهذا ما يشير إليه قول النبى ـ صلى الله عليه

وسلم - فى حجة الوداع : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ».

فكان من المناسب أن ينبه الله الأذهان إلى وجوب احترام الأشهر الحرم وعدم التلاعب بها فقال الله - تعالى - فى ذلك :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢١٠)

وكان النسيء زيادة فى الكفر ، لأنه أضاف إلى كفرهم بالله وإشراكهم به كفراً جديداً ، هو نسبة التحريم والتحليل إلى أنفسهم ، وجحود أن ذلك من عند الله - جلت قدرته -

النَّسأةُ فى العرب

وكان الذين ينسئون للعرب بنى كنانة ، وأول من نسأ منهم هو القَلَمَّس ،

---

(٢١٠) سورة التوبة ٣٦ ، ٣٧

واسمه حذيفة بن عبد بن فُقَيْم بن عدى ، وقام من بعده ابنه عَبَّاد بن حذيفة ، ثم ابنه قَلَعُ بن عبَّاد ، ثم ابنه أُمية بن قَلَع ، ثم ابنه عوف بن أمية ، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف ، وهو آخر من نسأ ، وعليه قام الإسلام الذى حرم النسيء . .

وقد بلغت كنانة بذلك مبلغا فى العرب حتى جعلت شاعرهم يقول مفتخراً :

لقد علمت مَعَد أن قومى كرام الناس أن لهم كراما[211]

فأى الناس فاتونا بوِتر وأى الناس لم نعلك لجاما[212]

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما[213]

دعوة إلى الجهاد

ثم دعا الله - تعالى - المؤمنين إلى الجهاد فى سبيل الله ، وحذرهم من التباطؤ والتأخر عن تلبية الداعى ، وحذرهم من التأخر عن نصرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو التخلى عن ذلك ، فالله قادر وحده على نصر دينه وإعزاز رسوله ، وقد ذكَّرهم فى ذلك بنصره فى أثناء هجرته ، ولم يكن معه سوى صديقه أبى بكر والكفار محيطون بهما ومتتبعون لهما ، لقد قهر الله جنود الشرك العاتية وردهم على أعقابهم خاسرين دون أن ينالوا من الرسول وصديقه ماتوهموا أن ينالوه . .

---

(211) « أن لهم كراما » تعليل لكون قومه كرام الناس ، فمحل المصدر المؤول مجرور بحرف جر محذوف والتقدير بأن لهم كراما . - محمد محيى الدين عبد الحميد -

(212) الوتر : طلب الثأر ، لم نعلك لجاما : لم نكفهم كما يكف اللجام الفرس .

(213) سيرة ابن هشام جـ1 ص46 تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

وقد قال الله - تعالى - فى ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢١٤)

لقد كانت هذه الآيات الكريمة غاية فى تبكيت المتثاقلين عن الجهاد وإنذارهم بالنكال والوبال ، كما أن فيها تبشيراً للملبين دعوة الجهاد بالنصر المؤزر الذى نصر به رسوله - صلى الله عليه وسلم - . .

---

(٢١٤) التوبة ٣٨ : ٤٠

كانت هذه الآيات الأربعون من صدر سورة براءة هى التى كلف عَلِيٌّ ـ رضى الله عنه ـ بابلاغها للناس فى أثناء حج أبى بكر بهم . .

أما بقية سورة براءة فقد نزلت فى شأن غزوة تبوك وموقف المنافقين فيها . وقد سبق أن عرضنا لذلك فى موضعه . .



عام الوفود

وفد نجران

محاورة بين النبي -صلى الله عليه وسلم- والوفد

وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب

مسيلمة يلتقي بسجاح

الأسود العنسي

وفد بني عامر

عام الوفود

يسمى هذا العام الذى حج فيه أبو بكر - رضى الله عنه - بالناس عام الوفود .

وكان هذا العام عام الوفود لأنه جاء فى أعقاب فتح مكة ، حيث كان العرب يرقبون موقف قريش من الإسلام ، ويعتبرونها إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام ، لأنهم أبناء إسماعيل وهم قادة العرب ، فلما نصبت قريش العداء للإسلام سار العرب وراءها يعادون الإسلام ، فلما استسلمت قريش للإسلام سار العرب وراءها يعلنون ولاءهم للإسلام .

وإذا كانت قريش على كثرتها وجاهها وثرائها ومنزلتها بين العرب لم تستطع الصمود للمسلمين فى حرب ، ولم تستطع إغلاق مكة فى وجوههم ، فكيف بالعرب وهم شراذم متفرقون فقراء ، لاراية واحدة تجمعهم ، ولا زعيم واحد يأمرهم ؟

وكان الله قد بشر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بنشر دينه وظهور نوره فقال

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢١٥)

وقال له :

---

(٢١٥) الفتح ٢٨

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ (٢١٦)

ومن هنا اقتنع العرب جميعا بعظمة الإسلام وقوته ونفاذ أمره ، فجاءت الوفود تترى الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسنشير إلى بعض هذه الوفود التي لم يسبق الحديث عنها قبل ذلك .

وفد نجران

كان قد وفد من نجران قبل الهجرة وفد من النصارى وأسلموا ، وبعد الهجرة وَفَد ركب من نصارى نجران عدتهم ستون راكبا . في رأى بعض الرواة ـ ودخلوا المسجد النبوى ، وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير ، وفي أصابعهم خواتم الذهب .

وكانوا يحملون معهم هدية إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبارة عن بسط فيها تماثيل ومسوح .

قال ابن سعد : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كتب إلى أهل نجران ـ فخرج إليه وفدهم ، ولكنه يذكر أنهم كانوا أربعة عشر رجلا من أشرافهم وكانوا نصارى . . وكان فيهم العاقب واسمه . . ـ عبد المسيح ـ وهو رجل من كندة ، وأبو الحارث بن علقمة ، رجل من بني ربيعة ، وأخوه

---

(٢١٦) سورة النصر

كُرز . والسيد ، وأوس ابنا الحارث ، وزيد بن قيس ، وغيرهم .. وكان منهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم ، أما أميرهم فهو العاقب ، وهو صاحب مشورتهم الذى يصدرون عن رأيه ..

أما إمامهم وحبرهم وصاحب مدراسهم - كنيستهم - فهو أبو الحارث ، والقائم على أمر الرحلة هو السيد .

وهذا يشير إلى أنه ركب مُنظَّم . يوزع التبعات ، ويسند المسئوليات إلى أصحابها .

وتركوا كرزا أخا أبى الحارث يتقدمهم ، وهو ينشد :

إليك تغدوا قلصا وضينُها معترضاً فى بطنها جنينها

مخالفاً دينُ النصارى دينها

وقدموا هديتهم التى أشرنا إليها .. فجعل المسلمون ينظرون للتماثيل التى فى البسط ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه المسوح فإن تعطونيها آخذها »

فقالوا : نعم ، نعطيكها -

ولما رأى فقراء المسلمين ماعليه هؤلاء من الزينة واللباس الحسن والثياب الجميلة الحسنة ، تشوقت نفوسهم إلى الدنيا ، وتطلعوا إلى زهرتها فأنزل الله - تعالى - قوله

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ

مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ (٢١٧)

إن القرآن الكريم يريد أن يلفت نظر المسلمين الى ماهو أعظم قيمة وأولى بالاهتمام . . وهو النعيم الباقى عند الله . أما ذلك المتاع الزائل فلا ينبغى أن يلتفت إليه الذهن ، أو يتطلع اليه الخاطر . .

وأراد هؤلاء أن يُصلُّوا فى المسجد ، وأراد المسلمون منعهم ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : دعوهم يُصلُّوا . فاتجهوا إلى المشرق وصلوا صلاتهم . وكان ذلك بعد العصر .

وأرادوا أن يكلموا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعرض عنهم ـ من أجل ذلك الزى الذى يتزينون به ، ومن أجل ذلك الذهب الذى يتحلون به ، ولم يكلمهم فى يومه ذاك . وانصرفوا وعادوا بزى الرهبان ، فسلموا عليه فردَّ عليهم ثم دعاهم إلى الاسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، ولكنهم امتنعوا وقالوا : قد كنا قبلك مسلمين .

---

(٢١٧) آل عمران ١٤ ، ١٥

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كذبتم يمنعكم من الاسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا . .

محاورة بين النبى وبينهم

وكان النصارى قد تجردوا لمجادلة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبل كل منهم بكلمة يقولها .

فقد قال أحدهم : المسيح ابن الله ، لأنه لاأب له .

وقال آخر : المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى ، وأخبر عن الغيوب ، وأبرأ من الأدواء كلها ، وخلق من الطين طيراً .

وقال غيره للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لماذا تشتم المسيح فتزعم أنه عبد ؟

لقد اعتبروا أن قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المسيح أنه عبد شَتْم له .

مع أن صفة العبودية لله من أكمل الأوصاف للمقربين إلى الله ، وقد قال الحق فى حق نبيه ومصطفاه :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[٢١٨]

وقال فى حق المؤمنين :

---

(٢١٨) الاسراء ١

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢١٩)

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن عيسى هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

فغضبوا وقالوا : إنما يرضينا أن تقول : إنه إله ، وقالوا أيضا : إن كنت صادقا فأرنا عبدا لله يحيى الموتى ويشفى الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين طيرا فينفخ فيه فيطير . .

فجادلهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا لهم :
ألستم تعلمون أن الله حى لايموت ، وأن عيسى يأتى عليه القضاء ؟
قالوا : بلى .
قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟
قالوا : بلى .
قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ماعلم ؟
قالوا : لا

قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لايأكل الطعام ولايشرب الشراب ولايحدث الحدث ؟

---

(٢١٩) الزمر ١٧ ، ١٨

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟(٢٢٠)

إنه حوار منطقى ، لايسع أى منصف سوى الإقرار بصدقه ، ولكن العناد يأبى أن يترك صاحبه يذعن للحق ويقر بالصواب .

ونزل القرآن الكريم يفحمهم ويرد عليهم ويخوفهم العذاب فقال عز وجل :

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ

---

(٢٢٠) الرسول لسعيد حوا جـ١ ، ص ١٢٥

صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ (٢٢١)

ونزل كذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ (٢٢٢)

لقد كانت هذه آيات ناصعة الدليل واضحة البرهان ، أيدت مانطق به النبى - صلى الله عليه وسلم - من حجة ، وشيدت ماأدلى به من بيان .

ولكن ذلك كله لم يزد هؤلاء الا إصرارا على ماكانوا يعتقدون من ألوهية عيسى وأنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولقد نزلت آيات متعددة تناقش منطق هؤلاء الذين أشركوا بأسلوب آخر غير ذلك الأسلوب الذى كان يناقش به الوثنيون عباد الأصنام .

فهؤلاء وان كانوا يعتقدون بوجود الله ، ويؤمنون بالبعث والحساب ويعترفون برسالة رسل سبقوا عيسى عليه السلام إلا أنهم لم ينزهوا هذا الاله العظيم عن الشبيه فتمثلوه فى صورة عيسى ، أو جعلوه ولدا لله أو جعلوه ثالث ثلاثة .

---

(٢٢١) المائدة ٧٢ : ٧٥

(٢٢٢) آل عمران ٥٩

وقد صحح القرآن لهم مفاهيمهم فقال لهم :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ ﴾ (٢٢٣)

ولكنهم لم يصيخوا السمع لهذا التصحيح . ولم يعترفوا الا بما وقر فى أذهانهم من أوهام ..

وأحس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم إصرارا على معتقداتهم ، فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تنقادوا للاسلام أن أُباَ هِلَكم(٢٢٤)

ومعنى ذلك أن يدعو كل فريق منا وهو مجتهد فى الدعاء أن تنزل اللعنة على الكاذب فينا . وهذا مايشير اليه قول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

---

(٢٢٣) النساء ١٧١ ، ١٧٢

(٢٢٤) معنى أباهلكم : ألاعنكم ، والبُهلة ـ بالضم والفتح ـ اللعنة ، وأصلها الترك من قولهم : بهلت الناقة اذا تركتها بلا صِرار

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢٢٥)

وأجفل القوم وخافوا حين سمعوا ذلك .. وقال بعضهم لبعض : لاتفعلوا فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لانفلح نحن ولاعقبنا من بعدنا أبدا .

وطلب القوم من الرسول التلبث إلى الغد .. فقبل - صلى الله عليه وسلم - ذلك .

وأخذوا يتشاورون فيما بينهم . وقالوا : والله لقد علمتم أن الرجل نبى مرسل ، وما لاعن قوم نبيا قط الا استؤصلوا وأبيدوا عن آخرهم .. فإن كنتم تصرون على دينكم فوادعوه وصالحوه وارجعوا الى بلادكم .. فوافقوا على هذا الرأى واتفقوا عليه .

وحين أصبح الصباح أقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - ومعه حسن وحسين وفاطمة وعلى - رضى الله عنهم - وقال : اللهم هؤلاء أهلى ..

فقال : أسقف الوفد : إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل لهم جبلا لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولايبقى على وجه الأرض نصرانى الى أن تقوم الساعة .

وهتف الأسقف بالنبى - صلى الله عليه وسلم - قائلا : ياأبا القاسم

---

(٢٢٥) آل عمران ٦١

لانباهلك فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فأسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعليهم .

ولكنهم لم يقبلوا الاسلام .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فإنى أنذركم بالحرب .

قالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكنا نصالحك . فصالحهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الجزية .

وكانت هذه الجزية ألفى حلة نصفها فى رجب ونصفها فى صفر . ومع كل حلة أوقية من الفضة . وكتب لهم كتابا وأشهدوا عليه شهودا ، وأرسل معهم رسولا هو أبوعبيدة بن الجراح .

ولم يلبث السيد والعاقب أن عادا فأسلما وأنزلهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دار أبى أيوب الأنصارى .[٢٢٦]

مسيلمة مع وفد بنى حنيفة :

بنو حنيفة قبيلة كبيرة كانوا ينزلون اليمامة بين مكة واليمن ، وهم ينسبون إلى جدهم حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل . وكان مع وفد بنى حنيفة الذى قدم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسيلمة الكذاب ، وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب وكنيته أبو ثمامة .

وكان منزلهم حين وفدوا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دار امرأة

---

(٢٢٦) المواهب اللدنية جـ ٤ ص ٣٨ ـ السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٣٥ ـ الطبعات الكبرى لابن سعد

من الأنصار من بنى النجار ـ وهى رملة بنت الحدث بن ثعلبة ـ وكانت دارها دار الوفود ، وهى صحابية جليلة . زوجها هو معاذ بن عفراء .

وكان مسيلمة متزوجا من امرأة من بنى عبد مناف اسمها كيسة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف .

وكان مسيلمة ذا تطلعات زعامية ولديه مواهب عقلية أغرته بأن يصنع لنفسه شيئا يرفع من شأنه بين العرب ، وكان لمصاهرته قريشا يد فى إذكاء هذه التطلعات فى نفسه .

وقدم بنو حنيفة بمسيلمة الذى استطاع أن يتزعم قومه وأدخل فى روعهم أن أمره لايقل شيئا عن أمر الرجل الذى هم ذاهبون اليه ، ودخل بنو حنيفة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعهم مسيلمة يسترونه بالثياب إكراما وتعظيما له ، وكانوا يلقبونه برحمن اليمامة . ولذلك حين قال المسلمون فى مكة فى بدء الاسلام « بسم الله الرحمن الرحيم » قال القرشيون : انما تذكرون مسيلمة رحمن اليمامة .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند دخولهم جالسا مع أصحابه وفى يده عسيب من سعف النخيل فى رأسه خويصات . .

وانتهى الوفد الى النبى ـ صلى الله عليه و سلم ـ وبينهم زعيمهم مسيلمة مستورا بالثياب . فقال مسيلمة للنبى ـ ﷺ ـ أشركنى معك فى الرَسالة واجعل لى الأمر من بعدك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لو سألتنى هذا العسيب الذى فى يدى ماأعطيتك . ويعنى ذلك رفضه المطلق لما يطلبه مسيلمة .

وقيل : إن الوفد حين جاء لم يكن معهم مسيلمة ، بل تركوه فى أمتعتهم وتقدموا بدونه ، فقالوا : يارسول الله إنا خلفنا صاحبنا فى رحالنا وركابنا يحفظها لنا . فأمر له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أمر به للقوم ، وكان قد أمر لكل واحد منهم بخمس أواق من الفضة . وقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه يعتبر معكم ، ويعنى بذلك حفظه حاجة أصحابه فكأنه معهم . . .

وعاد الوفد الى اليمامة بعد أن كان قد أعلن إسلامه . وأكرم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفادته .

وحين عادوا الى اليمامة ارتد مسيلمة ، وتنبأ ـ أى ادعى النبوة ـ وقال كذبا : لقد أشركت مع محمد فى الرسالة .

واعتمد على كلمة قالها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حقه : تأليفا له وترغيبا له فى الإسلام . . . فجعل يقول لأصحابه : ألم يقل لكم محمد : إنه ليس بشركم مكانا ؟ إنه لم يقل ذلك الا لما يعلم من أننى أشركت معه فى الأمر .

وظل يهذى بسجعات لاقيمة لها . ويقول : إنها قرآن يوحى اليه بها . وماهى إلا كلام لامعنى له من مثل قوله : لقد أنعم الله على الحبلى . أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى .

ـ والصفاق الجلد الأسفل الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر ، والحشى واحد الأحشاء ـ

وكان يحاكى القرآن الكريم بألفاظ لا معنى لها ، فحين سمع قوله

ـ تعالى ـ :

« إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر »

نسج على منوال ذلك قوله : إنا اعطيناك الجواهر ، فصل لربك وهاجر ، إن مبغضك رجل فاجر . . وهو كلام لا قيمة له فى موازين البيان . .

وقال أيضا : إنا اعطيناك الجماهر ، فخذ لنفسك وبادر ، واحذر أن تحرص أو تكاثر .

وقال أيضا : إنا اعطيناك الجماهر . فخذ لنفسك وبادر ، فى الليالى الغوادر .

وأشاع مسيلمة الكذاب أمره ، وظل يثرثر بمقولاته تلك التى لا تجد لها أذنا عاقلة تصغى إليها ، ولكنها قد تجد لها رواجا لدى ضعاف العقول الذين تصطنعهم الرشوة وتغريهم المادة .

لقد أركب نفسه مركبا صعبا بمحاولته محاكاة القرآن الكريم ، فان القرآن قد تحدى العرب وهم أولو الفصاحة وأساطين البلاغة وملوك البيان فلم يستطيعوا أن يقبلوا التحدى ، ولكنهم عجزوا واستكانوا وأقروا بأن مثل هذا الكلام لا يقدر على الاتيان بمثله بشر .

فلما قال مسيلمة ماقال فضح نفسه ، وسخر منه الناس ، الذين كان يتألفهم بالعطاء وأصبح شأنه شأن المغنى ذى الصوت القبيح الذى يجمع حوله شرذمة من المتملقين والمنتفعين الذين يصفقون له حين ينعق ويهتفون له حين ينهق .

وحاول أن تكون له معجزات تسحر عقول الناس ، فلجأ إلى بعض الحيل يروج بها لنفسه ويزعم أنها معجزات لا يقدر أحد على الإتيان بمثلها ، فقد وضع بيضة فى منقوع خل الخمر مع النوشادر فلان قشرها وامتط فأدخلها فى قارورة وصب عليها الماء البارد فجمدت . ثم قال : من يستطيع أن يدخل البيضة فى القارورة مثلما فعلت ؟

ولكن هذه العملية لم يعجب لها إلا العقول الذين لم يطلعوا على أسرار العلوم .

والمعجزة ليست كذلك ، وانما هى تحويل الأعيان بسرعة دون لجوء إلى عمليات كيماوية يحتاج تدبيرها الى وقت . المعجزة هى أن تتحول الأشياء فورا على يد نبى أو رسول من حال إلى حال . دون تَعَمُّلٍ وتدبير ، كما ألقى موسى العصا فتحولت إلى ثعبان مبين ، وكما وضع النبى - ﷺ - يده على مريض فشفى فى الحال ، وكما وضعها على طعام فأشبع المئات . .

حاول مسيلمة أن يفعل شيئا من ذلك فأهانه الله .

فقد سمع أن النبى - ﷺ - مسح رأس صبى كان به ألم فشفى فى الوقت . ووضع يده فى عين ماء فكثر ماؤها ، ولمس عين على - رضى الله عنه - يوم خيبر وكان أرمد فبرأ . . فأراد مسيلمة أن يفعل مثل ذلك فأهانه الله - ذلك أنه تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغار ماؤها بالجملة ، ومسح بيده على عين بصير فعمى ، ومسح بيده ضرع حلوب فارتفع لبنها ويبس ضرعها ، ومسح على رأس صبى فقرع[٢٢٧] .

---

(٢٢٧) المواهب اللدنية جـ ٤ ص ٢١

وقد ترجم بعض الشعراء عن هذه المعانى فقال مخاطبا النبى - ﷺ - :

اعجزت بالوحى أرباب البلاغة فى عصر البيان فضلت أوجه الحيل

سألتهم سورة فى مثل حكمته فتلهم[228] عنه خَيْن العجز حين تلى

فرام رجس كذوب أن يعارضه بعىً غَىًّ فلم يحسن ولم يطل

مثبج بركيك الإفك ملتبس ملجلج[230] بزرى الزور والخطل

يمج أول حرف سمع سامعه ويعتريه كلال العجز والملل

كأنه منطق الورهاء[231] شذَّ به لبس من الخبل أو مس من الختل

أمَرَّت البئر واغورَّت لمجته فيها وأعمى بصير العين بالتفل

وايبس الضَّرْعَ منه شؤمُ راحته من بعد إرسال رسل منه منهمل

فقد شبه الشاعر كلامه الذى عارض به القرآن الكريم بكلام امرأة حمقاء لا تحسن أن تتكلم لحمقها ، فهى تهذى بما لا يفيد من كلام مشذب مختلط لا يقترن بعضه ببعض ولا يشبه بعضه بعضا ، ككلام من مسه خبل . . وأهانه الله حين أراد أن يسامى النبى - ﷺ - فى معجزاته ، فجاء ما صنعه وبالا عليه وتحقيرا لشأنه .

وأراد الخبيث أن يكثر الأتباع حوله فأغراهم بوضع التكاليف الشرعية عنهم ، وأعفاهم من أداء الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا ، وأباح لهم

---

(٢٢٨) تَلَّهُم : ألقاهم وصرعهم

(٢٢٩) مثبج : مضطرب

(٢٣٠) ملجلج : متردد

(٢٣١) الورهاء : الحمقاء - شذُبه : خلطه - لَبْس : اختلاط - الخبل - بالسكون الفساد ، وبالفتح : الجنون

مايشتهون ، فكثرت الغوغاء حوله ، واجتمع الضلال لديه .

وما أعجب ذلك حقا . وأشد منه عجبا أن يظل معترفا بنبوة النبى - ﷺ - قائلا : إنه شريك له فى هذه النبوة .

وكتب للنبى - ﷺ - رسالة يشير فيها الى ذلك قال :

من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . أما بعد ، فإنى أُشركت معك فى الأمر ، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر .

وأرسل مسيلمة هذه الرسالة مع رسولين هما : ابن النواحة وابن أثال . فحين قرأ النبى - ﷺ - الرسالة قال للرسولين : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول كما قال .

فقال النبى - ﷺ - : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنق كل منكما .

وكتب النبى - ﷺ - لمسيلمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى - أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

رسالة قصيرة ، ولكن فيها غناء كثيراً ، وكانت العاقبة للمتقين حقا . لقد انتهز مسيلمة غفلة قومه وسذاجتهم ، واستغل العصبية العربية استغلالا جيدا لتنمية الحقد ضد القرشيين ، وإثارة الخواطر ضدهم ، وكان هذا من أسباب ظهور حمى التنبؤ التى استفلحت فيما بعد . لقد كانوا يعلمون صدق النبى - ﷺ - ويعرفون أنه مبعوث العناية الالهية لهم ،

ولكنهم كانوا ينفسون على قريش هذه المكانة العظيمة التى أتاحتها الأقدار لهم . كيف تجمع قريش بين الزعامة والنبوة ؟ . . . وكانوا يقولون : كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر ، ويقصدون بكذاب ربيعة مسيلمة ، وبصادق مضر النبى - ﷺ - وكان النبى - ﷺ - قد عرف ذلك فى حياته . . . فقد قال : « بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلىَّ فى المنام أن أنفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كَذَّابين يخرجان يدعيان النبوة . .

وكان الكذابان هما مسيلمة الكذاب فى اليمامة ، والأسود العنسى فى اليمن .

وقد شجع ذلك على ظهور التنبؤ والارتداد حتى أدى ذلك إلى حربهم فى عهد أبى بكر حربا لا هوادة فيها ، انتهت بهزيمتهم شر هزيمة ، وتفرق أتباعهم عنهم .

وكان مسيلمة قد استفحل أمره وجمع للمسلمين رجالا وعُدَّة ، فوجه اليه أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش حاصره فى حديقة سميت حديقة الموت لكثرة من استشهد فيها ، واستطاع خالد أن يقتله . ويقطع دابر الفتنة . .

بين مسيلمة وسجاح

واذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فلنشر إلى قصة لقاء مسيلمة بسجاح بنت الحارث وكانت قد تنبأت هى الأخرى - أى ادعت النبوة - فلم تقف حمى التنبؤ عند حدود الرجال ، بل تعدته إلى النساء .

وهى امرأة من بنى تميم ، وكانت بنو تميم قد تخاذلت فى أمر الردة بعد وفاة النبى - ﷺ - واختلفوا فى ذلك اختلافا شديدا ، فبينما هم على ذلك إذ فاجأتهم سجاح بنت الحارث مقبلة من الجزيرة تقود بنى ربيعة ، فأتاهم أمر كان أعظم مما هم فيه من الاختلاف .

وكانت قد ادعت النبوة فى الجزيرة ، فاجتمع عليهابنو تميم وعدد كبير من ثعلب ، وكما زعم مسيلمة أنه يوحى اليه ، زعمت هى كذلك انه يوحى اليها ، وادعت أنه نزل عليها : يأيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يبغون .

واجتمعت تميم كلها تنصرها وتؤيدها ، ومن بينهم وجوه من العرب واصحاب عقول بكل أسف . ولكن العصبية إذا اشتعلت انقادت لها العقول وخضعت أمامها الاحلام .

كان من بنى تميم الأحنف بن قيس وحارثة بن بدر .

وكان مؤذنها رجلا يقال له : شبيب بن ربعى الرياحى .

فقالت - وقد ركبها شيطان السجع - : أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم اغدوا على الرباب[٢٣٢] فليس من دونهم حجاب .

وهجمت بمن معها على من أمامها ونهبت مالقتيه فى طريقها من قبائل العرب . .

ثم قالت لأجنادها : اقصدوا اليمامة .

---

(٢٣٢) الرباب أحياء ضبة سموا بذلك لترابهم وتعاقدهم .

فقيل لها : إن شوكة أهل اليمامة قوية ، وقد غلظ أمر مسيلمة . .

فقالت : يامعاشر تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل هامة ، وأضرموا نارا ملهامة حتى تتركوها سوداء كالحمامة ، وان الله ـ تعالى لم يجعل هذا الأمر فى ربيعة ـ تعنى بذلك مسيلمة ـ وانما جعله فى مضر . .

وقالت لهم : اقصدوا هذا الجمع ـ أى جمع مسيلمة ـ فاذا قصدتموه عكرتم على قريش . صفوها .

وسارت سجاح فى قومها وكانوا عددا لا يكاد يحصى . واتجهت نحو اليمامة . .

وبلغ مسيلمة الخبر فضاق به ذرعا . .

وتحصن فى حصن اليمامة .

وأحاطت سجاح به بجيوشها ـ وأرسل مسيلمة إلى وجوه قومه يقول لهم : ماترون ؟

فقالوا ـ بعد أن رأوا ما لا قبل لهم به ـ : نسلم هذا الأمر لها ، فان لم نفعل فهو البوار والهلاك .

ولكنه كان رجلا داهية ، يحسن استعمال الحيلة ، ويعرف ألوان الختل والمكر ، فقال لهم بدهائه : سننظر .

ثم بعث اليها ، وقال : إن الله قد أنزل عليك وحيا ، وكذلك أنزل علىّ . فهلمى نجتمع فنتدارس ماأنزل الله ، فمن عرف الحق تبعه ، واجتمعنا فأكلنا العرب أكلا بقومى وقومك .

فوافقت على ذلك .. واستعدت للقاء به ..

فأمر بضرب قبة من أدم ، فَضُربت ، وأمر بالعود المندلى فَبُخِّرت به القبة ..

وقال لأتباعه : أكثروا من الطيب فإنه يلوى عنق المرأة . ويلين من عريكتها .

وجاءته منفردة إلى القبة . وما أن شمت رائحة الطيب والبخور المتصاعد حتى استدار رأسها ونسيت ما جاءت من أجله ، وما أسرع ما استطاع مسيلمة أن يطويها تحت جناحه ، وأن يجعلها تستكين له ، وتقبل أن تكون زوجة له ، وهكذا جاءت سجاح إليه شامخة ، فخرجت راضخة ، وأقبلت إليه محاربة فعادت مستسلمة ، وقدمت طامعة فرجعت خانعة ..

لقد قالت سجاح لمسيلمة وقد سُحِرت به : اخطبنى إلى أوليائى يزوجوك ثم أقود معك تميما ...

وقالت سجاح لقومها : لقد قرأ علىَّ مانزل عليه فوجدته حقا .

واتفقت بنوحنيفة مع بنى تميم ، واتجها معا لحرب المسلمين ، ولكن الله كسر شوكة الجميع ، وشتت شمل هذا الجمع ..

أما مسيلمة فقد قتل شر قتلة ..

وأما سجاح فقد أراد الله بها خيرا ... فقد وفقها الله الى الاسلام ، فأسلمت وحسن إسلامها[٢٣٣] .

---

(٢٣٣) شرح مقامات الحريرى جـ٢ ص ٢٢٢

خبر الاسود العنسى

أما الأسود العنسى فهو عبهلة بن كعب بن غوث . من بنى عنْس ولقب بالأسود ، وقال بعضهم : اسمه هو لقبه

وقيل : لقبه ذو الخمار لأنه كان يخمر وجهه . وقيل : بل كان يقوده شيطان يأخذ بلبه اسمه الخمار فلقب به .

خرج الأسود باليمن فى سبعمائة مقاتل وكان يركب من بلد إلى بلد ، وكتب إلى عمال النبى - ﷺ - يقول : أيها المتمردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ماأنتم عليه .

ثم ركب فتوجه إلى نجران وغلب عليها ، ثم قصد الى صنعاء ، فخرج إليه عاملها شهر بن باذان فتقابلا ، وغلب الأسود على صنعاء وتزوج من امرأة شَهْر بعد قتله . وكانت امرأة حسناء جميلة . صالحة تقية مؤمنة بالله ورسوله ، وهى ابنة عم فيروز الديلمى . .

وكان خروج الأسود فى أيام النبى - ﷺ - واستفحل أمره حتى غلب على اليمن كلها . . .

فتجمع عليه قوم من المسلمين ، وأجمعوا أمرهم على التخلص منه ، وصادف أن زوجته كرهته لفساده وشره وسوء سيرته وقبح طويته وكثرة فجوره . فأسرت إلى ابن عمها فيروز بذلك ، وقيل : بل أسرت بذلك إلى ابن عمها قيس بن مكشوح . الذى كان قد قال لها : ياابنة عمى قد عرفت

بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك ، وطأطأ فى قومك القتل ، وفضح النساء ، فهل عندك ممالأة عليه ؟

قالت : على أى أمر ؟

قال : إخراجه .

قالت : أوقتله .

قال : أو قتله .

قالت : نعم ، والله ماخلق الله شخصا هو أبغض إلىَّ منه ، فما يقوم لله على حق ، ولاينتهى له عن حرمة ، فإذا عزمتم أخبرونى أعلمكم بماق هذا الأمر . . .

وليس بغريب أن يتولى مثل هذا الشخص شيطانٌ يقوده ويوسوس إليه وربما أفضى له ببعض الأخبار ، حتى يتحقق وعيد إبليس باغواء بنى آدم وسوقهم إلى طرق الضلال لتكون نهايتهم جهنم وبئس القرار . يقول الرواة إن الأسود كان يقوده شيطان يلقى فى روعه بعض الأخبار التى تدخل الروع فى قلوب الناس حين يتحدث بها الأسود .

فيقال إن شيطانه ألقى فى روعه ماحدث من تآمر زوجته مع ابن عمها قيس ـ عليه . وربما استطاع هو أن يعرف هذا الأمر بوسيلة ما ، فاستدعى قيسا ومعه عشرة من قومه . ثم قال له : ياقيس ، إنى أعلمت أنى إن لم أقطع يدك قَطَعْت رقبتى .

وشدد الأسود القول على قيس حتى ظن أنه هالك . ولكنه وجد أن الحيلة هى التى تنجيه . فالتفت إلى الاسود وقال له : إنه ليس من الحق أن أهلك

وأنت رسول الله ، فقتلى أحب إلىَّ من موتات أموتها كل يوم .

فرق الأسود له ، وأمره بالانصراف .

وخرج قيس إلى أصحابه ، وما كان يظن أنه ناجٍ ، فقال لهم : اعملوا عملكم .

وبينما هم كذلك يتشاورون إذا بالأسود قائم على رءوسهم ، وقد جمعت له مائة بدنه ، وخط لها خطا ، وقام بنحرها بيده دون أن تكون مقيدة أو محبَّسة ، وما تجاوزت بدنة منها الخط الذى خطه . .

فلما انتهى من عقر البدن التفت إلى فيروز يقول له : أحق مابلغنى عنك يافيروز ؟ لقد هممت أن أنحرك فألحقك بهذه البهم . وأبدى له الحربة .

فقال له فيروز : اخترتنا لصهرك ، وفضلتنا على الأبناء ، فلو لم تكن نبيا مابعنا نصيبنا منك بشىء ، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخره والدنيا ؟ فلا تقبل علينا أمثال مايبلغك ، فإنا بحيث ماتحب .

فرضى الأسود ، وأمره بأن يقسم لحوم تلك الأنعام .

فقسمها فيروز فى أهل صنعاء ، ثم أسرع اللحاق به ، فإذا رجل يحرضه على فيروز ويسعى إليه فيه .

وتسلل فيروز فاستمع إلى ذلك الرجل الذى أوشى به . ثم سمع الأسود يقول : أنا قاتله غدا وأصحابه فاغد علىَّ به .

ثم انصرف الرجل فإذا فيروز وراءه .

فقال الرجل : مه .

فأخبره فيروز بأنه سمع ما قال :

ودخل الأسود داره . وعاد فيروز الى أصحابه فأعلمهم بماسمع ، فاجتمع رأيهم على ضرورة التخلص منه بأسرع مايمكن .

وعاودوا زوجته فى أمره . فدخل إليها أحدهم ، فقالت : إنه ليس من الدار بيت إلا والحرس محيط به غير هذا البيت ، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق . فإذا أمسيتم فانقبوا عليه ، وليس من دون قتله شيء وسأضع فى البيت سراجا وسلاحا .

وخرج الرجل من عندها فإذا الأسود أمامه ، فثار فى وجهه قائلا : ما أدخلك على أهلى ؟ ثم وجأ رأس الرجل[٢٣٤] . وصاحت المرأة فأدهشته فترك رأسه ، ولولا ذلك لقتله فقد كان الأسود شديدا .

قالت له : ابن عمى جاءنى زائرا . فما شأنك به ؟
فقال الأسود : اسكتى لا أبالك ، قد وهبته لك . أى تركته من أجلك .
وخرج الرجل مسرعا إلى أصحابه يخبرهم الخبر ، ويحذرهم وهو يقول لهم : النجاء النجاء . .

فتحيروا ماذا يصنعون . . . . ؟
لقد اجتمعت الشبهات فى نفس القوم وحركتها هذه الدلائل التى رأوها . . وأوشك القوم أن ينكصوا عما عزموا عليه ، ولكن زوجة الأسود

---

(٢٣٤) وجأ رأسه : ضغط عليه بعنف

بعثت إليهم تقول لهم : لاتنثنوا عما كنتم عازمين عليه .
فدخل عليها فيروز الديلمى فاستثبت منها الخبر . . .

ودخلوا الى ذلك البيت فنقبوا من داخله بطائن ليهون عليهم النقب من خارج .

وجلس فيروز مع المرأة جهرة كالزائر .
فدخل الأسود ، ورآه عندها . فقال : ما هذا ؟
فقالت : إنه أخى من الرضاعة ، وهو ابن عمى .
فنهره الأسود وأخرجه . .

فلما كان الليل نقبوا ذلك البيت ، فدخلوا فوجدوا سراجا تحت جفنة . فأسرجوه . . وتقدموا على حذر .

وتقدم فيروز نحو الأسود فوجده نائما على فراش من حرير وقد غرق رأسه فى جسده وهو سكران يغط . .

كانت زوجته قد سقته الخمر صرفا حتى غلب عليه السكر ، وجلست بجواره .

وأسرع إليه فيروز فعاجله بضربة وأقبل رفاقه فاحتزوا رأسه وخار فى أثناء ذلك كأشد خوارثور . فأقبل الحرس يستطلعون الخبر ، فبادرتهم الزوجة تقول لهم : مالكم ؟ النبى يوحى إليه . فعادوا من حيث أتوا . .

وجلس القوم يتشاورون ماذا يصنعون ؟ وكيف يعلمون أشياعهم ؟ فاتفقوا على أنه إذا كان الصباح تنادوا بشعارهم الذى بينهم وبين إخوانهم المسلمين .

فلما كان الصباح نادى قيس بالأذان ، وقال : أشهد أن محمدا رسول الله ، وأن عبهلة كذاب ، وألقى إليهم رأسه .

فانهزم أصحابه ، وتبعهم الناس يأخذونهم ويرصدونهم من كل طريق يأسرونهم ، وظهر الاسلام وأهله .

وعاد عمال النبى - ﷺ - إلى أعمالهم التى كانوا قد غلبوا عليها وتركوها وكتبوا بالخبر الى النبى - ﷺ - الذى أعلمه الله به من ليلته .

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : أتى الخبر الى النبى - صلى الله عليه وسلم - من السماء الليلة التى قتل فيها الأسود العنسى ليبشرنا . فقال : « قتل العنسى البارحة ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين » قيل : من ؟

قال : « فيروز »

كانت مدة ظهور الأسود الى أن قتل ثلاثة أشهر وقيل أربعة أشهر . .

لقد مات هذا المتنبىء المزعوم وهو سكران ، وكانت نهاية سوء لرجل سوء . « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »

وارتضى المسلمون فى اليمن معاذ بن جبل الذى كان قد أرسله النبى - صلى الله عليه وسلم - إليها معلما وقاضيا - ارتضوه للصلاة بهم . فأقام لهم الصلاة فى صنعاء فلم يمكث سوى ثلاث حتى جاء الخبر بوفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٢٣٥)

---

(٢٣٥) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٦ ص ٣٠٥

وفد بنى عامر

وقدم وفد بنى عامر بن صعصعة ، وكان فيهم عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى . وأربد بن قيس بن جزء . وحيان بن أسلم أو جبار بن سلمى . .

كان هؤلاء النفر رؤساء القوم وشياطينهم .

وتقدم عامر بن الطفيل القوم فى الدخول على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناويا الغدربه . كان يحسد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ماأعطاه ربه من نعمة النبوة والرسالة واتباع الناس له ، وإشادتهم بذكره ، واعترافهم بفضله .

وكان يقول بينه وبين نفسه ، وبينه وبين خاصته : قد كنت آليت لاأنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، افأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟

واتفق مع أربد قال له : إنا إذا قدمنا على الرجل فإنى شاغل عنك وجهه . فاعله بالسيف . .

لقد جاءوا إذاً غادرين ، ولم يجيئوا كما جاء غيرهم من العرب مسلمين مذعنين .

وقد ظن عامر أن الأمر بالنسبة له هين . فما هو الا أن ينفرد برسول الله حتى يتخلص منه ، وماظن أن هناك عينا تحرسه وجندا من الله يحفظه ، وماطرأ على ذهنه قول الله تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « والله يعصمك من الناس »

إن خلق الغدر مفطور فى نفس هؤلاء الأقوام الذين لم تهذبهم معرفة ، ولم يعصمهم دين ، ولم ينههم خلق قويم . . شأنهم فى ذلك شأن الأعراب المقيمين فى البوادى لاهم لهم الا الاغارة والنهب والسلب .

وسمع بنو عامر بخبر الاسلام الذى دانت به العرب فى كل مكان فقالوا لعامر بن الطفيل : ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم . فكبر ذلك فى نفسه . وعزم على الغدر ، وبيت النية على ذلك ، وقال لأربد ماقال .

وحين وصل الوفد الى المدينة والتقوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - قال عامر للنبى : يامحمد خالنى - أى انفرد لى خاليا حتى أتحدث معك حديثا لايسمعه أحد .

فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : لا والله حتى تؤمن بالله وحده لاشريك له .

فأعاد عامر القول : يامحمد خالنى ، وجعل يتكلم وينتظر من أربد أن ينفذ مااتفقا عليه . .

ولكن أربد واقف لايصنع شيئا ، وقد يبست يده على السيف حتى إنه لم يستطع إخراجه من غمده .

وظل عامر يقرر قوله : يامحمد خالنى .
والنبى لايزيد على قوله له : حتى تؤمن بالله وحده لاشريك له .
ثم قال عامر : ماتجعل لى إن أسلمت ؟

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لك ماللمسلمين وعليك ماعليهم .

قال عامر : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل .

قال عامر : أنا الآن فى أعنة الخيل فى نجد ، أتجعل لى الوبر ولك المدر ؟
قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا .

فقام عامر وهو مغضب ، وانصرف وهو يقول : لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرسا . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثقة كاملة لوعد الله : يمنعك الله . فلما ولى نظر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى السماء وهى قبلة الدعاء ، وقال : اللهم اكفنى عامر بن الطفيل بما شئت ، وابعث له من يكفنى شره ، واهد قومه .

وحين خرجوا قال عامر لأربد : أين ماكنت أمرتك به ؟ وأيم الله ماكان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسى منك ، وأيم الله لاأخافك بعد اليوم أبدا .

فقال له أربد : والله ماهممت بالذى أمرتنى به الا دَخَلْتَ بينى وبينه أفاضربك بالسيف ؟

لقد منع الله رسوله من أربد وحفظه من غدره . .
قال ابن إسحاق : لقد كان أربد يرى بينه وبين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورا من حديد . وأورد على لسان أربد قوله : لما أردت سل سيفى

نظرت فاذا فحل من الابل فاغر فاه يهوى إلىّ فوالله لو سللته لخفت ان يبلغ رأسى

ولامانع من حدوث ذلك كله فقد تكرر منه الهم عدة مرات ، فكان فى كل مرة يحدث له فيها غير مايحدث فى المرة التى قبلها وهذا من عظم رعاية الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وحفظه إياه . .

وانطلق عامر وصاحبه حتى إذا كان ببعض الطريق فى مكان يقال له الرقم فى ضاحية من ضواحى المدينة بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه ، فقتله الله به شر قتله . استجابة لدعوة النبى - صلى الله عليه وسلم - عليه . .

وكان حين أصابه الطاعون جعل يقول وهو فى بيت امرأة من بنى سلول : أغدة كغدة البكر وموتا فى بيت سلولية ؟

كانت هذه المرأة بنت ذهل بن شيبان وزوجها مرة بن صعصعة - أخو عامر . .

وجعل يقول : ائتونى بفرسى . فأتوه به ، فركبه فمات على ظهره . .
لقد أراد أن يسبق الموت ولكن الموت سبقه .

قال بعض الرواة : لقد أراد أن يحارب الموت ، فأخذ رمحه ، وأقبل يجول ويقول : ياملك الموت ابرز لى ، فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتا .

كانت هذه حماقة من حماقات عامر أراد الله أن يصغر اليه نفسه . ويظهر

له عجزه وأنه لاحول له ولاقوة . . ولم يُجْدِه وعيده للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يسعفه فرس واحد ولارجل واحد من تلك الخيول والرجال التى قال عنها أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا . .

أما أربد ، فكان قد خرج بأصحابه بعد أن واروا عامرا التراب ، حتى قدموا أرض بنى عامر .

فلما قدموا جاءه قومه يقولون : ماوراءك ياأربد ؟

قال : لا شيء ، والله لقد دعانا الى عبادة شيء لوددت أنه عندى الآن فارميه بالنبل حتى أقتله .

ثم خرج بعد مقالته تلك ومعه جمل له يتبعه ، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتها .

وكان أربد أخا لبيد بن ربيعة الشاعر ـ لأمه . .

وفى شأن عامر وأربد نزل قوله ـ تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ

وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢٣٦)

وقال لبيد بن ربيعة يرثى أخاه أربد :

ماإن تعدى المنون من أحد لا والد مشفق ولا ولد

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السماك والأسد

فعين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام النساء فى كبد

وعين هلا بكيت أربد إذ ألوت رياح الشتاء بالعضد(٢٣٧)

وقد هدى الله لبيد بن ربيعة بعد ذلك الى الاسلام ، وكف فى ظله عن قول الشعر مطلقا .

رد شبهة :

ذكر بعضهم أن عامر بن الطفيل أسلم ، وهو معدود فى الصحابة وذكروا فى ذلك حديثا مرويا عنه ـ أنه قال : يارسول الله زودنى كلمات أعيش بهن ، قال : « ياعامر أفش السلام ، وأطعم الطعام ، واستحى من الله كما

---

(٢٣٦) الرعد ٨ : ١٣.

(٢٣٧) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠٧

تستحيى رجلا من أهلك ، وإذا أسأت فأحسن فإن الحسنات يذهبن السيئات »

ولكنا نقول : إن عامرا الذى ورد فى شأنه ذلك غير عامر بن الطفيل العامرى .

فعامر الذى لقنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الكلمات أسلمى من بنى أسلم وافق اسمه واسم أبيه هذا الرجل العامرى . . ولايشك أحد فى أن عامر بن الطفيل العامرى مات كافراً مدعواعليه من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقد أسلم من كان مع عامر بن الطفيل وأربد بن قيس من بقية الوفد استجابة لدعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم أيضاً . .

حجة الوداع

هل حج النبي - ﷺ - وهو بمكة

على بن أبي طالب يلحق بالنبى من اليمن

أنواع الإحرام

كيف لبى النبى - ﷺ - ؟

كيف حج رسول الله ؟

خطبة الوداع

المعانى التى اشتملت عليها الخطبة

إبطال النسىء

طوف رسول الله

المأثور من دعاء النبى - ﷺ -

اليوم أكملت لكم دينكم

طواف الوداع

العودة إلى المدينة

حجة الوداع

فى ذى القعدة سنة عشر تجهز النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأداء فريضة الحج ، وأمر الناس أن يتجهزوا معه . .

وخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لخمس ليال بقين من ذى القعدة ، بعد أن استعمل على المدينة أبا دجانة الساعدى ، واسمه سباع بن عرفطة الغفارى .

وقد سبق أن علمنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يحج من المدينة الا حجة واحدة ، ولكنه اعتمر ثلاث مرات قبلها .

فقد روى البخارى ومسلم عن هدبة عن همام عن قتادة عن أنس أن النبى ـ صلى لله عليه وسلم ـ اعتمر أربع عمر كلهن فى ذى القعدة ، إلا التى فى حجته .

أما بيان هذه العُمر فهى عمرة الحديبية ، وعمرة القضاء ، وعمرة الجعرانة ، ثم العمرة التى اعتمرها مع حجته فى السنة العاشرة من الهجرة .

هل حج النبى بمكة قبل الهجرة ؟

فى حديث رواه البخارى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حج وهو بمكة قبل الهجرة حجة واحدة .

وان كان ذلك يرد عليه أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتعرض للناس فى موسم الحج يعرض عليهم رسالة ربه ، ويستدعى ذلك حجه معهم ، ومن أقواله فى ذلك : « من رجل يؤوينى حتى أبلغ كلام ربى ـ عز وجل ؟ » .

حتى قيض الله جماعة من الأنصار قبل هجرته بثلاث سنوات فبايعوه وأووه ونصروه، وكان يلتقى بهم كل عام فى العقبة . .

استعداد الناس للحج معه

وحين أذن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحج فى السنة العاشرة أقبل المسلمون من كل حدب وصوب يلبون دعوته ، ويحرصون على أن يحضروا الموسم معه تبركابه وتعلما منه . حتى ضاقت جنبات المدينة بهم .

ثم خرج صلى الله عليه وسلم ، وخرج الناس معه ، فلما كان بذى الحليفة استوى على راحلته ، فلما أخذت به فى البيداء لبَّى ، ولبى الناس معه ، وأهلَّ وأهلَّ الناس معه . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ترجل وأدهن ولبس إزاره ورداءه لم ينه عن شيء من الأردية ولا الأزر الا المزعفرة التى تردع الجلد ـ أى تغير لونه الى الصفرة ـ

وكان قد صلى الظهر فى المدينة أربعا ، وصلى العصر فى ذى الحليفة ركعتين .

ولم يعتن النبى - صلى الله عليه وسلم - بالمظهر الذى يحرص عليه الناس فقد ورد عن أنس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حج على رحل قديم وتحته قطيفة ، وقال : « حجة لارياء فيها ولا سمعة »

وفى رواية : حج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رحل قديم وقطيفة تساوى - أو لاتساوى - أربعة دراهم ، فقال : « اللهم حجة لارياء فيها »

وروى إسحاق بن سعيد عن أبيه قال : صدرت مع ابن عمر ، فمرت بنا رفقة يمانية وزحالهم الأدم ، وخطم إبلهم الخرز ، فقال عبد الله - أى ابن عمر - : من أحب أن ينظر الى أشبه رفقة - وردت العام - برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه إذ قدموا فى حجة الوداع فلينظر إلى هذه الرفقة . .

لقد أراد النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يعلم أمته الزهد والتواضع ، كما أراد أن يعلمهم تحمل المشاق فى سبيل الله ، فلم يشأ أن يجعل حجه مظهرا من مظاهر التباهى والتفاخر الذى يظهر فيه الناس الآن ويتنافسون فيه ، فيحملون أنفسهم مالايطيقون .

كما كان يعلمهم كيف يصبرون على أذى الطريق ، وعنف الرفيق . . . .
روت أسماء بنت أبى بكر قالت : خرجنا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - حجاجا ، حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلست عائشة إلى جنب رسول الله - ﷺ - وجلست إلى جنب أبى ،

وكانت زاملة ـ أى ناقته . رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزاملة أبى بكر واحدة . مع غلام أبى بكر . فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه فطلع عليه ، وليس معه بعيره .

فقال : أين بعيرك ؟

فقال : أضللته البارحة .

فقال أبو بكر : بعير واحد تضله ؟

فطفق يشتد عليه ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبتسم ويقول : « انظروا إلى هذا المحرم ماذا يصنع ؟

إن الحاج لاينبغى له أن يغضب أو يثور أو يشتم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله ـ تعالى :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (٢٣٨)

وبات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذى الحليفة ، وهى من المدينة على ثلاثة أميال وهى وادى العقيق ، وصلى بها المغرب والعشاء .

حتى إذا أصبح صلى بأصحابه وأخبرهم أنه جاءه الوحى من الليل بما

---

(٢٣٨) البقرة ١٩٧

يعتمده فى الإحرام .. وأمره أن يصلى فى هذا الوادى المبارك .

وقد أُمر فى هذه الرؤيا أن يقيم بوادى العقيق الى صلاة الظهر ، وأمر أن ينوى عمرة فى حجه ، وأقام بوادى العقيق حتى صلى الظهر ، ثم أشعر بدنته ، ثم ركب فأهل بعمرة وحج .

وأشعر بدنته أى حز[٢٣٩] سنامها حتى يسيل منه الدم وهذه علامة يعلم بها الحاج أن هذه البدنة هدى مقرب الى الله ـ تعالى ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أشعر بدنته فى صفحة سنامها الأيمن .

وقلدها .. لقد فعل ذلك بيده الشريفة ليقتدى به غيره من

أمته ـ وكان النبى ـ ﷺ ـ قد ساق معه مائة بدنة تولى هو بيده إشعار واحدة منها وتقليدها ، وتولى غيزه من المسلمين إشعار الباقى وتقليده ـ حتى إذا جاء أوان ذبح هذا الهدى ذبح بيده الشريفة ثلاثا وستين بدنة بعدد سنى عمره المبارك ، وتولى على ـ كرم الله وجهه ـ ذبح الباقى ..

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد اصطحب معه نساءه فى هذه الحجة . ولا عجب ، فقد انتدب المسلمين جميعا لمشاركته فجاءوا من كل مكان ليكون لهم شرف مصاحبته ... فمن باب أولى أن تكون نساؤه مصاحبات له فى هذه الرحلة المباركة .

---

(٢٣٩) قال الفقهاء : يسن تقليد الهدى ان كان معه ، ثم اشعاره بعد ذلك ، والتقليد هو تعليق قلادة فى عنقه ليعلم به المساكين فتطمئن نفوسهم ، والاشعار هو أن يشق من السنام قدر الانملة أو الانملتين ، وانما تقلد الابل والبقر ولا يشعر إلا الابل وماله سنام من البقر ، أما الغنم فلا تقلد ولا تشعر .

ماحدث لعائشة

وللنساء أعذار خاصة لا تكون للرجال ، فقد تفاجأ بالعادة الشهرية فيكون ذلك عائقا لها عن الطواف . وقد كان فى اصطحاب النبى - ﷺ - نساءه حكمة تتعلم منها النساء كيف يكون الحج اذا ما فاجأ إحداهن ذلك العذر .

ولنستمع إلى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - تحدثنا عما وقع لها فى اثناء حجها مع رسول الله - ﷺ - .

قالت - فيما يرويه ابن هشام - : سرنا لا نذكر ولا يذكر الناس الا الحج ، حتى اذا كنا بسرف ، وقد ساق رسول الله - ﷺ - الهدى ومعه اشراف الناس . أمر الناس أن يُهِلُّوا بعمرة إلا من ساق معه الهدى .

قالت : وحضت ذلك اليوم .. ولا شك أن عائشة ارتاعت لذلك وفزعت فأخذت تبكى -

قالت : ودخل علىَّ رسول الله - ﷺ - وأنا أبكى .

فقال : مالك ياعائشة ؟ لعلك فوجئت بالحيض ؟

قالت : قلت : نعم ، والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا فى هذا السفر .

- لقد قالت ذلك خوفا من أن يترتب على حيضتها عائق يعوقها من إتمام الحج .

ولكن النبى - ﷺ - طمأنها وقال لها : لا تقولى ذلك ، فانك تقضين كل مايقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت .

قالت : ودخل رسول الله - ﷺ - مكة ، فحل كلُّ من كان لا هدى معه ، وحل نساؤه بعمرة .

قالت : فلما كان يوم النحر أتيت بلحم بقر كثير فطرح فى بيتى .

فقلت : ما هذا ؟

قالوا : ذبح رسول الله - ﷺ - عن نسائه البقر . حتى اذا كانت ليلة الحصبة[٢٤٠] بعث بى رسول الله - ﷺ - مع أخى عبد الرحمن بن أبى بكر فأعمرنى من التنعيم مكان عمرتى التى فاتتنى .

وقد استفاد الفقهاء من هذا حكم المرأة التى يعتريها الحيض فى أثناء الحج فانها تفعل كل شىء الا الطواف .

عَلِيّ يلحق بالنبى من اليمن

وكان الامام على - كرم الله وجهه - قد بعثه النبى - ﷺ - إلى اليمن بعد أن كان قد بعث خالد بن الوليد .

وقال النبى - ﷺ - لعلى : مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب - يبقى - معك فليعقب ومن شاء فَلْيُقْبِلْ . .

فبقى البراء بن عازب مع علىّ فغنم فى وجهه هذا أواقى ذات عدد . .

وكان السبب فى بعث عَلِيّ بعد خالد هو ما يقصه أبو بريدة - رضى الله عنه -

قال : أبغضت عليا بغضا لم أبغضه أحدا قط ، وأحببت رجلا من قريش لم أحبه إلا عَلَى بغضه عليا .

---

(٢٤٠) أى ليلة المبيت بالمحصب ، وهو موضع رمى الحجار بمنى ، وقيل : هو الشعب الذى مخرجه إلى الابطح بين مكة ومنى ينام فيه ساعة من الليل ثم يخرج إلى مكة

قال : فبعُث ذلك الرجل على خيل ، فصحبته ، ما أصحبه إلا على بغضه علياً ، قال : فأصبنا سَبْياً - فكتب إلى رسول الله - ﷺ - : ابعث إلينا من يخمسه - أى يقسمه أخماسا - .

فبعث إلينا عليا . وفى السبى وصيفة من أفضل السبى .

قال : فخمس وقسم ، فخرج ورأسه يقطر فقلنا : يا أبا الحسن ، ما هذا ؟

فقال : ألم تروا إلى الوصيفة التى كانت فى السبى ، فإنى قسمت وخمست فصارت فى الخمس ، ثم صارت فى أهل بيت النبى - ﷺ - ، ثم صارت فى آل على . .

قال : فكتب الرجل الذى كان على الخيل إلى نبى الله - ﷺ - . فقلت له : ابعثنى بالرسالة . فبعثنى مصدقاً . فجعلت أقرأ الكتاب وأقول : صدق .

قال : فأمسك النبى - ﷺ - يدىْ والكتاب ، فقال : أتبغض علياً ؟

قال : قلت : نعم .

قال - ﷺ - : « فلا تبغضه ، وان كنت تحبه فازدد له حبا ، فو الذى نفس محمد بيده لنصيب آل على فى الخمس أفضل من وصيفة » .

قال : فما كان من الناس أحد بعد قول النبى - ﷺ - أحب إلىَّ من علىٍّ . لقد كان النبى - ﷺ - يحب عليا - رضى الله عنه - وهو جدير بهذا

الحب ، وكان يعرف أن بعض الناس ينفسون عليه ذلك الحب ولذلك كان يعمل على إزالة هذا الجفاء من نفوسهم كما رأينا فى هذه القصة ، وكما نرى فى القصة التالية :

حدث عمرو بن شاس ، وكان من أصحاب الحديبية قال :
كنت مع على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى خيله التى بعثه رسول الله - ﷺ - الى اليمن ، فظننت أنه جفانى بعض الجفاء ، فَوَجِدت فى نفسى عليه ، فلما قدمت المدينة اشتكيته فى مجالس المدينة ، وعند من لقيته .

فاقبلت يوما ورسول الله - ﷺ - فى المسجد ، فلما رآنى أنظر إلى عينيه نظر إلىَّ حتى جلست إليه .

فلما جلست اليه قال : « إنه والله يا عمرو بن شاس لقد آذيتنى » .
فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أعوذ بالله والاسلام أن أوذى رسول الله .

فقال : « من آذى عليا فقد آذانى »[(٢٤١)] .
لقد أشارت الأخبار السابقة الى بعض الأسباب التى من أجلها أرسل النبى - ﷺ - عليا الى اليمن ، وهى تقسيم الغنائم بين المجاهدين . وهذه قصة تشير الى سبب آخر وهو الأهم . .

قال أبو اسحاق راويا عن البراء بن عازب قال :
بعث رسول الله - ﷺ - خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم الى

---

(٢٤١)البداية والنهاية جـ ٥ صـ ١٠٥

الاسلام . فكنت فيمن خرج معه ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوه . ثم إن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث على بن أبي طالب ، وأمره أن يقفل خالدا ـ ومن معه ـ إلا رجلا كان ممن مع خالد فأحب أن يُعقب مع على ـ أى يبقى ـ فليعقب معه .

قال البراء : فكنت فيمن عقب مع على .

فلما دنونا من القوم خرجوا الينا ـ ثم تقدم فصلى بنا عَلِيّ ، ثم صفنا صفا واحدا ، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلمت همدان جميعا .

فكتب عَلِيٌّ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ الكتاب خر ساجدا ، ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان ، السلام على همدان »[٢٤٢]

لقد نجح على فيما لم ينجح فيه خالد . . ذلك أن خالداً رجل حرب ، والدعوة لها رجل من صنف آخر . .

وبعد نجاح مهمته قفل راجعا الى المدينة ، وكان رسول الله قد خرج إلى الحج ، فأمّر عَلِيٌّ رجلا على من معه ، وأسرع هو فى طريق مكة ليلحق الحج مع رسول الله ـ ﷺ ـ فلما قضى حجته أمره النبى ـ ﷺ ـ بالرجوع الى صحبه ليقدم بهم الى المدينة .

وكان على فى خروجه إلى مكة قد أهل بإهلال النبى ـ ﷺ ـ .

---

(٢٤٢) المرجع السابق

وروى ابن هشام قال : حين قدم علىٌّ من اليمن على النبى - ﷺ - وجد بعض القوم قد حلوا - فسأل عن ذلك فقالوا له : أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نحل بعمرة فحللنا فلما فرغ من إخبار النبى - ﷺ - عن سفره ، قال له النبى : انطلق فطف بالبيت وحلّ كما حَلَّ أصحابك .

قال : يارسول الله ، إنى قلت حين أحرمت : اللهم إنى أهلّ بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد - ﷺ - .

قال : فهل معك من هَدْى ؟

قال : لا .

فأشركه النبى - ﷺ - فى هديه ، وثبت على إحرامه مع رسول الله - ﷺ - حتى فرغ من الحج ، ونحر رسول الله الهدى عنهما .

أنواع الإحرام

وقد أخذ الفقهاء من ذلك أنواع الاحرام وهى :

إحرام المتمتع . ومعناه أن يحرم الحاج بالعمرة أولا فى أشهر الحج ، ويؤديها ثم يتحلل منها ، ثم يحرم بعد ذلك بالحج يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذى الحجة .

والحاج فى أثناء تحلله يفعل مايفعله المحل تماما ، ويباح له ما كان محظورا عليه فى أثناء الاحرام .

والمتمتع يجب عليه أن يقدم هديا يذبحه شكراً لله على نعمة التوفيق للجمع بين العمرة والحج على هذا الوجه فى سفر واحد ، وإلى هذا يشير قوله - تعالى -

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾(٢٤٣)

وهذا الهدى يذبح بمنى فى يوم العيد أو أيام التشريق الثلاثة التى تليه . ويمكن ذبحه بمكة بعد العودة من منى .

وهذا الهدى واجب على من اعتمر وحج فى موسم واحد . مقدما العمرة على الحج ، سواء أكان لنفسه أو لغيره .

ومن أنواع الإحرام القران .

ويقصد به الاحرام بالحج والعمرة معا دون فصل بينهما ، ويكون الحاج قد جمع بين النُّسُكَيْن ، فيطوف بالبيت طواف القدوم ولا يتحلل من إحرامه حتى يذهب الى عرفات ويقف بها فى اليوم التاسع ، ومنها إلى المزدلفة ، ثم يرمى الجمار يوم النحر ، ثم يتوجه إلى مكة ليطوف طواف الافاضة ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يتحلل بعد ذلك ويلزم القارن هدى أيضا يذبحه شكراً لله ـ تعالى ـ

ومن أنواع الاحرام الإفراد .

---

(٢٤٣) البقرة ١٩٦

وهو أن يفرد النية بالحج وحده ـ ويظل الحاج بملابس الاحرام حتى تتم أعمال الحج .

وكان حج النبى ـ ﷺ ـ حج قارن ، فلم يتحلل حتى نحر وإن كان قد أباح لأصحابه أن يتمتعوا .

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : إن رسول الله ـ ﷺ ـ أمر الناس فى حجة الوداع فقال : « من أحب أن يبدأ بعمرة قبل الحج فليفعل » . وأفرد رسول الله ـ ﷺ ـ الحج ولم يعتمر . أى لم يعتمر قبل الحج ـ كما يفعل المتمتع ـ

لقد كانت حال الناس فى حجهم على تلك الأحوال من القران والتمتع والافراد .

فقد روى أحمد فى مسنده أن عائشة قالت : أهل رسول الله ـ ﷺ ـ بالحج والعمرة فى حجة الوداع وساق معه الهدى ، وأهل ناس معه بالعمرة وساقوا الهدى ، وأهل ناس بالعمرة ولم يسوقوا هديا . قالت : وكنت ممن أهل بالعمرة ولم أسق هديا ، فلما قدم ـ ﷺ ـ قال : من كان منكم أهل بالعمرة فساق معه الهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة ولا يحل منه شىء حرم منه حتى يقضى حجه وينحر هديه يوم النحر ، ومن كان منكم أهل بالعمرة ولم يسق معه هديا فليطف بالبيت وبالصفا والمروة ثم ليقصر وليتحلل ، ثم ليهل بالحج وليهد ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله .

قالت عائشة : فَقَدَّم رسول الله الحج الذى خاف فوته وأخر العمرة .

كيف لبى رسول الله ؟

ذكر الرواة أن تلبية رسول الله - ﷺ - كانت هى :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لك لا شريك لك » .

وكان عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - يزيد فيها فيقول : لبيك لك وسعديك ، والخير فى يديك لبيك ، والرغباء إليك والعمل .

وربما كان يقول مع تلبية رسول الله - ﷺ - المأثورة : لبيك لبيك لبيك وسعديك والخير بيديك لبيك ، والرغباء إليك والعمل .

وقد ذكر ابن عمر أن والده - رضى الله عنه - كان يقول ذلك بعد أن يلبى بتلبية النبى - ﷺ -

وهذه التلبية المأثورة هى مايلبى بها المسلمون اليوم ، ولها سحر عجيب وتأثير غريب ، فما أن يسمعها المؤمن تتصاعد من حناجر الملبين حتى يتجاوب قلبه معها ، وتنقاد مشاعره نحوها ، وتنساب دموعه حارة على وجناته فى ضراعة صامتة إلى الله ، ونشوة قوية وشوق شديد إلى بيت الله الذى جعله حرما آمنا ومثابة للناس أجمعين فى مشارق الأرض ومغاربها . إنه نشيد سماوى وضع الله فيه سرا عظيما يجمع القلوب والمشاعر . . وما أعظمه من شعار يهتف به أولئك الحجاج المتجردون من ملابسهم ، فى رحلة سماوية لا هدف من ورائها الا رضا الله ورسوله .

أما تكرار التلبية فى هذا الشعار فلتأكيد معنى الاستجابة لأمر الله - تعالى - الذى دعاهم اليه فى بيته الحرام ، وفى هذا الشعار توثيق لحب هذا

المحبوب الأعلى وإقرار تام بالوحدانية له ، والتبرؤ من كل شرك معه . فلا مالك معه ، ولا منعم فى هذا الوجود سواه . .

والتلبية بهذا الشعار أمر تعارف عليه المسلمون جميعا ، ومازال منذ هتف به النبى - ﷺ - تردده القلوب والحناجر عبر الأزمنة بلفظه العربى الرصين ولو كان الذى يهتف به من أعماق الهند أو الصين ، لقد جرت به الألسنة على اختلاف لغاتها ، وفى ذلك دلالة على وحدة المشاعر والقلوب . .

ولا مانع أن يضيف المسلمون الى هذا الشعار مايناسبه مما يتصل بهذه المعانى الرائعة ، كما رأينا فى إضافة ابن عمر التى أشرنا اليها آنفا .

لقد فتح النبى - ﷺ - الباب أمام أصحابه ولم يغلقه ، وكان على مداومته لهذه الصيغة من التلبية يضيف إليها أحيانا - فيما يرويه أبو هريرة - لبيك إله الحق .

وروى حميد الأعرج عن مجاهد أنه قال : كان النبى - ﷺ - يظهر من التلبية : لبيك اللهم لبيك . . فذكر التلبية ، ثم قال : حتى اذا كان يوم فزاد فيها : لبيك إن العيش عيش الآخرة . .

وكان النبى - ﷺ - يرفع صوته بالتلبية ، فهى أمر لا ينبغى أن يتحدث به الانسان بينه وبين نفسه . . وان كان الله يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور - ولكن الحج مبنى على الإعلان والإعلام ، وفيه مظهر من مظاهر قوة الاسلام التى لا تتم الا بالتجاهر الذى يتصاعد شاقا عنان السماء ليخزى الشيطان ويثير الوجدان .

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أمرني جبريل برفع الصوت في الاهلال فانه من شعائر الحج » .

وروى زيد بن خالد قال : جاء جبريل الى النبى ـ ﷺ ـ فقال : مر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فانها شعار الحج .

وفى إضافة مايزيد على التلبية المأثورة مما يناسب معناها قال جابر بن عبد الله : . . . خرج ـ ﷺ ـ حتى إذا استوت به ناقته على البيداء أهلَّ بالتوحيد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

ولبى الناس ، والناس يزيدون ـ يا ذا المعارج ونحوه من الكلام ، والنبى ـ ﷺ ـ يسمع فلم يقل لهم شيئاً .

قال جابر : فنظرت مد بصرى بين يدى رسول الله ـ ﷺ ـ من راكب وماش ومن خلفه كذلك ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن شماله مثل ذلك .

قال : ورسول الله ـ ﷺ ـ بين أظهرنا عليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملناه ، فخرجنا لا ننوى إلا الحج حتى أتينا الكعبة .

كيف حج رسول الله ؟

ونمضى مع حديث جابر هذا لنعرف كيف حج رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ وفى معرفة ذلك عظة وعبرة وتعلم وإفادة من تلك المسيرة الطيبة المباركة

التى اصطحب فيها النبى - ﷺ - أصحابه معه فى أقدس رحلة عرفها التاريخ . وهم معه يحبونه أشد الحب ويودون أن لو فدوه بأنفسهم وأرواحهم . ويتعلمون منه مناسكهم استجابة لقوله - ﷺ - : « خذوا عنى مناسككم » . .

قال جابر : خرجنا ورسول الله - ﷺ - بين أظهرنا ، عليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملناه ، فخرجنا لا ننوى إلا الحج حتى اذا أتينا الكعبة فاستلم نبى الله - ﷺ - الحجر الأسود ، ثم رمل - أى أسرع - ثلاثة ومشى أربعة .

حتى اذا فرغ عمد إلى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٢٤٤)

وقرأ فى هاتين الركعيتن بالتوحيد - أى بـ « قل هو الله أحد » - ، « وقل يا أيها الكافرون .

ثم استلم الحجر ، وخرج الى الصفا ، ثم قرأ

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٢٤٥)

---

(٢٤٤) البقرة ١٢٥

(٢٤٥) البقرة ١٥٨

ثم قال : نبدأ بما بدأ الله به ، فرقى على الصفا ، حتى إذا نظر الى البيت كبر ، ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، وصدق وعده وهزم الأحزاب وحده .

ثم دعا . . ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه فى الوادى رمل ، حتى إذا صعد مشى ، حتى إذا أتى المروة رقى عليها .

حتى إذا نظر الى البيت قال عليها كما قال على الصفا .

فلما كان الشوط السابع عند المروة قال : ياأيها الناس ، لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ولجعلتها عمرة ، فمن لم يكن معه هدى فليحل وليجعلها عمرة .

فحل الناس كلهم . فقال سراقة بن مالك بن جعشم ـ وهو فى أسفل الوادى ـ يارسول الله ، ألعامنا هذا أم للأبد ؟

فشبك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : للأبد ـ ثلاث مرات .

ثم قال : دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة .

قال جابر : وَقَدِمَ عَلِيٌّ من اليمن بهدى ، وساق رسول الله ـ ﷺ ـ معه من هدى المدينة هديا ، فاذا فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قد حلت ، ولبست ثوبا صبيغا ، فأنكر عَلِيٌّ عليها ذلك ، فقالت : أمرنى أبى ولم ينكر علىّ .

قال على : فذهبت أستفتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الذى ذكرت فاطمة . . . . قلت : إن فاطمة لبست ثوباً صبيغاً وقالت : أمرنى أبى .

قال النبى - صلى الله عليه وسلم -: صدقت . أنا أمرتها .
قال جابر : وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لِعَلِىّ : بم أهللت ؟
قال : قلت اللهم انى أهل بما أهل به رسولك . قال : ومعى الهدى .
قال النبى - صلى الله عليه وسلم -: فلا تحل .

وكان جميع الهدى الذى أتى به علىّ من اليمن ، والذى أتى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مائة .

وقد سبق أن مرت بنا رواية تقول : إن عليا لم يسق معه هدياً ، وإن النبى - صلى الله عليه وسلم - أشركه معه فى هديه ولعل ما سبق هو الأرجح لما سيأتى . .

قال جابر : فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية - وهو اليوم الثامن من ذى الحجة - توجهوا إلى منى ، فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر .

ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة له من شعر فضربت له بنمرة .

فسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت قريش تظن أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت تصنع فى الجاهلية .

سار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد

ضربت له بنمرة فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء ـ اسم ناقته ـ فهيئت له ، فأتى بطن الوادى فخطب الناس ، وقال : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . . إلى آخر الخطبة التى سنعرض لها تفصيلاً إن شاء الله ـ تعالى ـ

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يُصِلّ بينهما شيئاً .

ثم ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً ، ثم غاب القرص .

وأردف أسامة بن زيد خلفه ، ثم دفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد شد القصواء من الزمام ليبطىء من سيرها ويقول وهو يشير بيده اليمنى : أيها الناس ، السكينة السكينة . وكلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لناقته العنان قليلاً حتى تصعد .

حتى أتى المزدلفة . فصلى بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى طلع الفجر .

فصلى الفجر بأذان وإقامة حتى تبين له الصبح .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعا فحمد الله ، وكبره ، وهلله ، ووحده .

فلم يزل واقفاً حتى أسفر الصبح فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن العباس ثم سلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى . حتى أتى الجمرة عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما بقى ، وأشركه فى هديه .

ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها .

ثم ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر . فأتى بنى عبد المطلب وهم يستقون على زمزم . فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه(٢٤٦) . .

خطبة الوداع

ثم نمضى مع حديث ابن إسحاق لنذكر خطبة الوداع المشهورة التى أصبحت دستوراً للأمة الاسلامية لما تضمنته من أحكام وقواعد . .

يقول : ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حجه ، فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التى بيَّن فيها ما بيَّن ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال :

« أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا

---

(٢٤٦) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٥ صـ ١٤٦

بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلَّغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظْلَمُون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عمى العباس ابن عبد المطلب موضوع كله . وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيع بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسيء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة وأن

لا يعصين فى معروف فإن عصين فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وانكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله . فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلّغت .

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه .

اسمعوا قولى واعقلوه . . إن كل مسلم أخ للمسلم ، وإن المسلمين جميعاً أخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلموا أنفسكم . اللهم هل بلغت ؟ »

قالوا : اللهم نعم .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم اشهد »

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الجملة ، وكان ربيعة بن أمية ابن خلف يكرر القول بعده رافعاً به صوته ، حتى يصل إلى جميع الناس فلا يكون لأحد حجة فى أنه لم يسمع .

تعليق على تلك الخطبة

ويبدو أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يلق خطبة واحدة فى حجة الوداع تلك التى ذاع شأنها يوم عرفة ـ ولكن تكررت منه خطب فى مواقف أخرى أشار إليها بعض المؤرخين .

ويعلق الدكتور حسين مؤنس على حجة الوداع قائلاً :

حجة الوداع معلم أساسى من معالم السيرة النبوية الشريفة فهى الحجة الوحيدة التى قام بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الاسلام .

وقد شاءت إرادة الله أن تتم على النحو الذى أتمها به رسول الله وفى الوقت الذى تمت فيه قبل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشهور حتى تكون إكمالاً وإتماماً لسنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العبادات ، ومن هنا ذهب الكثيرون من علماء القرآن إلى أن قوله ـ تعالى ـ

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (٢٤٧)

نزل فى أثناء هذه الحجة المباركة .

وأصحاب السير والتواريخ يجعلون حجة الوداع واحدة من مغازى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنها عندهم فتح من فتوح الله عليه .

وأما أصحاب الفقه فيجعلونها فى أبواب العبادات لأن الحج خامس أركان الاسلام بعد الشهادتين والصلاة والصيام والزكاة .

---

(٢٤٧) المائدة ٣

قال : وسأدير حديثى على المعانى التاريخية التى تضمنتها خطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء هذه الحجة . وهذه الخطب تُجْمَع فى العادة فى الكثير من كتب السيرة المعتمدة ، ومختصراتها تحت عنوان واحد هو : خطبة الوداع .

ولا حرج فى ذلك ما دامت هذه الخطبة الواحدة التى يوردونها تتضمن كل المعانى التى تضمنتها الخطب التى ألقاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء هذه الحجة ، ومن المؤكد أنها أكثر من خطبة واحدة ، والمقلل يجعلها خطبتين والمكثر يجعلها ثلاثاً . . وذلك سوى الأحاديث المفردة التى قالها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أثناء تلك الحجة ، وكلها تتضمن أحكاماً فقهية أحصاها الفقهاء .

فمن الخطب التى ألقاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة قبل التروية بيوم . . ذكر ذلك عمارة بن حارثة الظفرى قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب قبل التروية بيوم بعد الظهر ، ويوم النحر بمنى بعد الظهر .

ومن ذلك ما أشار إليه الواقدى من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب فى أيام التشريق . . ومع ذلك فقد جمعت خطبة عرفة كثيراً من المعانى التى تهم المسلمين جميعاً .

المعانى التى اشتملت عليها خطبة عرفة

●● جذب الانتباه وشد الاهتمام إلى ما سيلقى على الناس .

وذلك واضح فى مقدمة الخطبة حيث قال للناس : « والله ما أدرى لعلِّ

لا ألقاكم بمكانى هذا بعد يومكم هذا . رحم الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »

وهى عبارة دقيقة المعنى رائعة الحكمة . إلى جانب كونها أثارت أذهان المسلمين جميعاً إلى الإنصات والمتابعة .

●● احترام حقوق الغير من أموال ودماء

وقد أكد ذلك فى قوله : « اعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

ففى ذلك تأكيد لحرمة الأموال والدماء حرمة شديدة ، وتشبيه حرمتها بحرمة يوم النحر وحرمة الشهر الحرام وحرمة مكة .

وفى هذا دليل على عظم الاعتداء على أموال الناس ودمائهم .

وقد أكد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك لما يدركه من أن كافة الاضطرابات والفتن مترتبة على مظالم الناس فى الأموال والدماء .

●● تحريم أمر الجاهلية

وقد أشار ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذلك بقوله « ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع . . »

ومن ذلك الربا ، والأخذ بالثأر .

وقد بدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بربا عمه العباس فوضعه ـ أى أسقطه ـ ودم ربيع بن الحارث ابن عمه ـ فوضعه ليكون قدوة فى ذلك . . وليدرك الناس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يأمر بشيء أو ينهى عنه وهو بمنجاة منه . . وقد جاء فى الرواية التى ذكرناها أن الدم الذى وضعه هو

دم ربيع بن الحارث ، وفى رواية أخرى أنه دم إياس بن ربيعة ابن الحارث . .

وقصة ذلك أنه كان مسترضعاً فى بنى سعد ، فاعتدت عليه هذيل وقتلته .

وإياس من بنى عبد المطلب ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو وَلِىُّ دمائهم ، فقد تنازل نيابة عنهم عن المطالبة بدمه ليبطل بذلك كل ما كان من أمر الجاهلية من عادات مذمومة لكى يبدأ الناس مع الاسلام حياة جديدة لا صلة لها بالماضى .

لقد جاء الاسلام ليقر نظماً جديدة يُسعِدُ بها المجتمع ، بدلاً من تلك النظم التى كانت تسود المجتمعات ويشقى بها الناس .

وما ظنك برجل لم يرتكب جريرة قط يفاجأ بمن يقتله أخذاً بثأر رجل لا يعرف المقتول عنه شيئاً ؟ وكثيراً ما كان يحدث ذلك بل كثيراً ما يحدث الآن . . وهو مشاهد فى عصرنا الحديث الذى نسى الناس فيه التشريع الاسلامى تماماً إن الاسلام جعل لولى الدم الحق فى المطالبة بدمه وقال فى تشريعه الأزلى

« وَمَن قُتِلَ مَظلُومًا فَقَد جَعَلنَا لِوَلِيِّهِ ، سُلطَانًا فَلَا يُسرِف فِّي ٱلقَتلِ إِنَّه كَانَ مَنصُوراً[٢٤٨]

وأبطل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الربا . وأهدر ربا العباس ابن عبد المطلب فقال : إن أول ربا أضعه ربا عمى العباس . .

---

(٢٤٨) الاسراء ٣٣

وكان العباس قد أسلم قبل الفتح . ولكن أمواله الربوية ظلت فى ارتفاع . . . ولو كان العباس ترك الربا أو تنازل عن أموال الربا التى كانت له فى رقاب الناس لما أعلن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلغاءها ، ولما قال فى استهانة بالغة بأموال الربا إنها تحت قدمى ـ دلالة على بغضه لتلك العادات السيئة التى كانت رائجة فى الجاهلية ، والتى أذلت رقاب المعوزين المحتاجين الذين تضطرهم ظروفهم القاسية إلى الوقوع فى مخنقة الربويين .

●● الدعوة إلى إنصاف المرأة . .

وقد دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين الى معاملة النساء معاملة حسنة ، وقد وضعت خطبته تلك المعالم الصحيحة نحو إنصاف المرأة ، التى هى نصف المجتمع . . . وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحقيقاً لإنصافها : « اتقوا الله فى النساء فإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن ألا يدخلن بيوتكم أحداً ممن تكرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح . . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

والمراد بذلك أن على الزوجة أن لا تأذن لمن يكرهه الزوج بالدخول فى بيته . . . . والضرب غير المبرِّح هو الذى لا يكسر عظماً ولا يشين جارحة .

قال عطاء : سألت ابن عباس : ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه

وقد أفاض الفقهاء فيما فى هذه العبارة من فقه يتصل بمعاملة النساء وحقوق الرجال وحقوق الزوجات ، وفصلوا معانى ما أراد النبى ـ صلى الله

عليه وسلم ـ فى شأن معاملة النساء ، وهذا كله يدخل فى أبواب الفقه .

.ولكن الذى يهمنا هنا هو أن نبين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حريصاً فى خطبته تلك على دعوة أمته إلى الرفق فى معاملة النساء وبيان دورهم العظيم فى خدمة المجتمع ، وبيان حرمة عقد الزواج ومسئولية الرجال فى حسن معاملة زوجاتهن .

●● الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة . .

وقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حريصاً على دعوة أمته إلى التمسك بالكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة ، وقال فى ذلك : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبداً »

وفى رواية قال : « تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ـ كتاب الله تبارك وتعالى ، وأنتم مسئولون فما أنتم قائلون ؟ »

فبين ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن التمسك بالكتاب والسنة هو النجاة لأن فيهما العصمة والفلاح . وقد دعا القرآن الكريم الى ذلك صراحة فى كثير من آياته ، وأشار الى ما يتضمنه القرآن الكريم من منهج سليم وطريق قويم . قال تعالى

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (٢٤٩)

---

(٢٤٩) الإسراء ٩ ، ١٠

أما السنة النبوية فهى تفصيل وتوضيح لهذا القرآن قال تعالى

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون(٢٥٠) »

وما أضر بالمسلمين الآن إلا عدم تمسكهم بالكتاب والسنة ، ولو أنهم عادوا الى ماجاء به هذا الكتاب الكريم والسنة الشريفة لسعدوا فى دنياهم ونجوا فى أخراهم .

●● إبطال النسىء

وقد سبق أن أشرنا إلى النسىء فيما سبق من حديث . وبينا أنه تحايل على المقدسات الدينية وتلاعب بالشعائر المقدسة ، وقد جاء إبطال النسىء واضحاً صريحاً فى قوله ـ تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٧ ﴾ (٢٥١)

وقد أشارت الخطبة الى الأخوة الاسلامية فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن كل مسلم أخو المسلم ، وإنما المسلمون إخوة ولا يحل لامرىء مسلم دم أخيه ولا ماله إلا بطيب نفس منه » .

---

(٢٥٠) النحل ٤٤

(٢٥١) التوبة ٣٨

وهذا من القواعد الأساسية فى تركيب أمة الاسلام ، فهى أمة قائمة على الأُخُوَّة فى الدين وهى أمة من الإخوة ، ورابطة الاسلام رابطة أخوة ، فقد آخى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أفرادها قبل الهجرة وبعدها . وهذه الأخوة تقتضى احترام المشاعر والعلاقات ، فدم المسلم حرام على المسلم انتهاكه ، وماله حرام عليه اغتصابه ، ورأيه حرام عليه الاستهزاء به أو السخرية منه .

ولا يحل لامرىء أن يأخذ من مال الآخر شيئاً إلا بطيب نفس منه » وقد كانت هذه المبادىء مناط احترام لدى المسلمين الأوائل فشعروا بالأمن والاطمئنان وساروا فى حياتهم فى سعادة وأمان . . ونحن نتذكر ذلك الآن فنأسى على واقع المسلمين الذى تحولت العلاقة فيه الى صراعات ومطامع وانتهازات . . وتحولت مع ذلك حياتهم إلى جحيم وخوف وقلق ، وضاعت هيبتهم وذهبت كرامتهم ، وطمع فيهم أعداؤهم حتى حولوهم الى قطعان مشردين هائمين يستعينون بالطامع على الطامع ويستغيثون من الرمضاء بالنار . .

لقد تناولت خطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجة الوداع كل المعانى والقيم التى يمكن أن تخطر على بال كل مؤمن غيور على دينه ، وكل مفكر يحاول إرساء المبادىء النبيلة فى مجتمعه ، فلم يترك بذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعده مجالاً لمفكر ، أو حديثاً لمغتاب ، أو مقالاً لمستدرك .

لقد تناول كل الأسس التى يضعها القائد الأعلى لجنوده ، والزعيم الملهم لأمته ، والمستشار الناصح لمستشاريه ، والرائد البصير لأتباعه . . . . إنه النبى الذى علمه ربه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً . .

إن كل هذه المبادىء جمعتها خطبة واحدة هى خطبة الوداع التى ذكرناها آنفاً . . كما تفرقت هذه المعانى فى خطب أخرى ألقيت فى خلال موسم الحج . إلا أن أجمع خطبة كانت هى خطبة عرفة التى ذكرناها .

قال ابن إسحاق ـ فيما يرويه ابن هشام : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقف بعرفة قال : هذا هو الموقف ـ للجبل الواقف عليه ـ وكل عرفة موقف

وقال ـ حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة ـ : هذا الموقف وكل المزدلفة موقف .

ثم لما نحر بمنى قال : هذا المنحر ، وكل منى منحر .

فقضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحج وقد أراهم مناسكهم ، وأعلمهم مافرض الله غليهم من حجهم ـ من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت ، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم ، فكانت حجة البلاغ وحجة الوداع وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يحج بعدها .[252]

●●● يأس الشيطان

ولعل مايثلج صدور المسلمين تلك البشرى التى ساقها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم حين أبان لهم أن الشيطان قد يئس من أن يعبد فى أرضهم بعد اليوم فقال :

« يا أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه ولكنه قد

---

(٢٥٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ٢٣٢

رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه ، فقد رضى به »

لقد أشار النبى إلى زوال دولة الشرك والوثنية وذهاب عبادة الأصنام .

والمراد هنا أن الاسلام حصّن الانسان المسلم من عبث الشيطان به ، والشيطان قد يئس من أن يعبد أو يطاع فى أرض الاسلام

وهو لهذا يحتال على ابن آدم فيدخل إلى نفسه ويضله من ناحية يستهين بها الانسان ويحتقرها ، ظنا منه أنه لايأتيه من جهتها ضرر ، وهنا يكون الضرر لأن الشيطان يتدرج من الشىء الحقير يضلل به الانسان فإذا أطاعه تسلل إلى ماهو أكبر وأخطر حتى يفسد الدين جملة .

وقد أنظر الله إبليس إلى يوم يبعثون ، وإبليس قال : إنه سَيَجِدُّ فى إضلال من يتيسر له إضلاله إلا من اعتصم بالله . وتحصن بفهم حقيقى لطبيعة إبليس وأساليبه وطرائقه فى إفساد حياة الناس . فليس المقصود هنا مجرد عبادة الشيطان بل اتباع الشيطان والإصغاء الى صوت الغواية وهى راقدة فى قلوب الناس »(٢٥٣)

ولعل ذلك ينبه المسلمين إلى مايجب عليهم نحو قهر مكايد الشيطان والاستعاذة من شره ، وعدم الاستجابة لما يوسوس به فى نفوسهم من شر ، قد يرونه صغيرا ولكن عواقبه خطيرة . .

---

(٢٥٣) راجع بحث د . حسين مؤنس « خطب الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع العدد التذكارى بمجمع البحوث الاسلامية لمؤتمر السيرة بالقاهرة ١٩٨٥

الأماكن التى صلى فيها النبى فى طريقه الى مكة

فى أثناء سفر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة كان ينزل فى أماكن يؤدى فيها الصلاة ، وقد تحولت هذه الأماكن إلى مساجد فيا بعد - تبركا بصلاة النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد كان الصحابة والتابعون من بعدهم يتحرون هذه الآثار ويتتبعونها ويحرصون على النزول والصلاة فيها .

قال موسى بن عقبة : رأيت سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق فيصلى فيها ، ويحدث أن أباه كان يصلى فيها وأنه رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - يصلى فى تلك الأمكنة .

قال : وحدثنى نافع عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه كان يصلى فى تلك الأمكنة . وسألت سالما فلا أعلمه إلا وافق نافعا فى الأمكنة كلها إلا أنهما اختلفا فى مسجد بشرف الروحاء .

ويمكن تتبع هذه الأماكن عن طريق المساجد المنشأة بين مكة والمدينة . . والتى أخبر الرواة عنها أنها أنشئت فى المواقع التى صلى فيها النبى - صلى الله عليه وسلم -

●● مسجد ذى الحليفة . أقيم فى المكان الذى كان ينزل فيه الرسول حين يعتمر وحين حج حجة الوداع ، وكان ينزل تحت سمرة فى موضع المسجد الذى بهذا المكان .

● وكان عبد الله بن عمر يعلم المكان الذى كان يصلى فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقول : ثم عن يمينك حين تقوم فى المسجد تصلى ، وذلك المسجد على حافة الطريق اليمنى ، وأنت ذاهب إلى مكة بينه وبين المسجد الأكبر رمية بحجر .

● وعند العرق الذى عند منصرف الروحاء وقد أقيم هناك مسجد ، وكان عبد الله يترك المسجد الذى أقيم عن يساره ووراءه ويصلى أمامه لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى فى ذلك المكان .

● وعند الرويثة كانت توجد سرحة طويلة صلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك المكان .

● ومن وراء العَرْج فى طرف تلعة يوجد مسجد وعنده قبران أو ثلاثة وعلى القبور رضم من الحجارة عن يمين الطريق كان عبد الله بن عمر يذهب إلى هذا المسجد ليصلى فيه الظهر .

● وعند سرحات فى مسيل هناك كان عبد الله يصلى لأن النبى صلى الله عليه وسلم ـ صلى فى هذا المكان .

● وفى ذى طوى ـ كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينزل فيصلى الصبح حين يقدم مكة ، ومصلاه عند أكمة ليس فى المسجد الذى بنى هناك

دخول النبى مكة

بات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذى طوى ـ حتى أصبح ثم دخل مكة ، نهارا بعد أن اغتسل .

وكان ابن عمر إذا دخل أدنى الحرم يمسك عن التلبية اقتداء برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ودخل النبى مكة من الثنية العليا التى بالبطحاء .

ودخلها يوم الفتح كذلك .

وعند خروجه من مكة كان يخرج من الثنية السفلى .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين عاين البيت رفع يديه وقال : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً . . .

وكان يقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام . اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من حجه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً .

قال الإمام الشافعى راويا ماروى من حديث ابن عباس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كان يرفع الأيدى فى الصلاة ، وإذا رأى البيت ، وعلى الصفا والمروة ، وعشية عرفة وبجمع وعند الجمرتين وعلى الميت »

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجد من باب بنى شيبة ، وخرج من باب بنى مخزوم إلى الصفا .

وَلِبَابِ بنى شيبة حديث مأثور وشأن مشهور ، فحين انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش ، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه ، فاتفقوا أن يحكموا أول من يدخل من باب شيبة ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففرحوا به ، وقالوا : هذا الأمين وكلنا نرضاه .

فأمر بثوب فوضع الحجر فى وسطه ، وأمر كل قبيلة أن يأخذوا بطرف من الثوب ، فرفعوه ، وأخذه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوضعه مكانه . .

طواف رسول الله

وأول شيء بدأ به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم أنه توضأ ثم

طاف بعد أن استلم الركن ، فرمل ثلاثة ومشى أربعة .

وفى بعض الروايات قبَّل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الركن وسجد عليه .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايدع أن يستلم الركن اليمانى والحجر فى كل شوط .

والرمل ، هو الاسراع فى المشى ، وكانت له علة هى أن يرى المشركون قوة المسلمين بعد ماأرجفوا أنهم مرضى ضعفاء مهزولون . . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة . . وأصبحت سنة بعد ذلك يلتزمها المسلمون . .

وقد أثر عن عمر قوله : فيم الرَّمْلان والكشف عن المناكب وقد وطد الله الاسلام ؟ ونفى الكفر ؟ ومع ذلك لانترك شيئاً كنا نفعله مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقال بعض الرواة : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طاف على راحلته فى حجة الوداع ، فإذا انتهى إلى الركن أشار إليه .

ويبدو أنه طاف على البعير فى أحد أنواع الطواف التى حدثت . . . فقد كان هناك طواف قدوم ، ثم طواف إفاضة ، ثم طواف وداع ، فربما كان طوافه على الراحلة فى أحد الطوافين الأخيرين .

ومما يؤيد أن طواف القدوم كان على رجليه مارواه جابر بن عبد الله قال : دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى فأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم باب المسجد فأناخ راحلته ، ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر فاستلمه ، وفاضت

عيناه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثا ومشى أربعا . فلما فرغ قبَّل الحجر ووضع يده عليه ومسح بها وجهه . .

أين أقام النبى بعد الطواف والسعى

ثم سار ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد فراغه من طوافه وسعيه بين الصفا والمروة وأمره بالتحلل لمن لم يسق الهدى ـ والناس معه حتى نزل بالأبطح شرقى مكة . فأقام هناك بقية يوم الأحد ويوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، حتى صلى الصبح يوم الخميس .

كل ذلك يصلى بأصحابه هنالك ، ولم يعد إلى الكعبة فى تلك الأيام كلها .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يصلى يركز ـ عصا ـ أمامه .

التوجه إلى منى :

وبعد صلاة الصبح فى يوم الخميس وهو اليوم الثامن وهو يوم التروية ويقال له : يوم منى ، لأنه يسار فيه إليها ، ويقال لليوم الذى قبله يوم الزينة لأنه يزين فيه البدن . ويقال : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب الناس فى يوم التروية فأخبرهم بمناسكهم .

ثم ركب إلى منى قبل الزوال ، وقيل بعده . . . وقد أحرم الذين كانوا قد أحلوا من الأبطح . وهتف الناس بالتلبية . ولم يكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يهل حتى تنبعث راحلته .

وصلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الظهر والعصر بمنى ، وكذلك صلى المغرب والعشاء ، وصبح يوم التاسع .

ثم غدا إلى عرفات . وفيها صلى الظهروالعصر بعد أن خطب خطبته التى أوردناها آنفا

المأثور من دعاء النبى :

وقد نهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الصوم يوم عرفة للحاج ، ولم يصمه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجه . كما لم يصمه أحد من خلفائه الذين جاءوا بعده وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر من الدعاء فى هذا اليوم ويقول فى ذلك :

« أفضل الدعاء يوم عرفة » وخير ماقلت أنا والنبيون قبلى ـ لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير »

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : دعائى ودعاء الأنبياء قبلى عشية عرفة : لاإله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢٥٤)

ويعقبها بقوله : « وأنا على ذلك من الشاهدين يارب »

وكان يقول : « اللهم لك الحمد كالذى نقول وأفضل مما نقول ، اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، ولك يارب تراثى ، أعوذ بك من عذاب

---

(٢٥٤) آل عمران ١٨

القبر ووسوسة الصدر ، وشتات الأمر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ماتهب به الريح »

وكان يقول : « إن أكثر دعاء من كان قبلى ودعائى يوم عرفة أن أقول : لا اله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم اجعل فى بصرى نورا وفى سمعى نورا وفى قلبى نورا ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، اللهم إنى أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وشر فتنة القبر ، وشر مايلج فى الليل وشر مايلج فى النهار ، وشر ماتهب به الرياح وشر بوائق الدهر »

وكان يقول : « اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولايخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده . ورغم لك أنفه ، اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن ربى رءوفا رحيما ، ياخير المسئولين ، وياخير المعطين »

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير قدوة لأمته ، ولذلك كان يجتهد فى الدعاء فى ذلك اليوم ، ليتخذ منه المسلمون قدوة فيلجأون الى الله سبحانه داعين ضارعين .

وكان ـ كما رأينا ـ فى ألوان الدعاء السابق لايطلب شيئا ماديا ، ولكنه دعاء يتعوذ فيه من فتنة الدنيا وزينتها ويطلب فيه رضاء الله ، وثواب

الآخرة ، وكان يدعو لأمته بالرحمة والمغفرة .

عن عباس بن مرداس قال : دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشية يوم عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة فأكثر الدعاء ، فأوحى الله اليه : إنى قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضا ، وأما ذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها . فقال يارب إنك قادر على أن تثبيت هذا المظلوم خيرا من مظلمته وتغفر لهذا الظالم . فلم يجبه تلك العشية فلما كان غداة المزدلفة أعاد الدعاء فأجابه الله تعالى ـ إنى قد غفرت لهم . فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له بعض أصحابه : يارسول الله تبسمت فى ساعة لم تكن تبتسم فيها ؟

فقال : تبسمت من عدو الله إبليس ، إنه لما علم أن الله عز وجل قد استجاب لى فى أمتى ، أهوى يدعو بالويل والثبور ويحثو التراب على رأسه .
ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عبادة بن الصامت : أيها الناس إن الله قد تطول عليكم فى هذا اليوم فغفر لكم إلا التبعات فيما بينكم ووهب مسيئكم لمحسنكم أعطى محسنكم ماسأل فادفعوا باسم الله .

فلما كان يوم جمع قال : إن الله قد غفر لصالحكم وشفع لصالحيكم فى طالحيكم . تنزل الرحمة فتعمهم ، ثم تفرق الرحمة فى الأرض فتقع على كل تائب ممن حفظ لسانه ويده . وإبليس وجنوده على جبال عرفات ينظرون مايصنع الله بهم ، فإذا نزلت الرحمة دعا هو وجنوده بالويل والثبور . يقول : كنت أستفزهم حقبا من الدهر خوف المغفرة فغشيتهم(٢٥٥)

---

(٢٥٥) هذه الآثار ذكرها ابن كثير فى كتاب البداية والنهاية جـ ٥ صـ ١٧٤ وهى من كتب الصحاح

اليوم أكملت لكم دينكم

وفى يوم الجمعة ، يوم عرفة ، بعد العصر فى حجة الوداع سنة عشر ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقف بعرفة على ناقته العضباء ، فكاد عضد الناقة ينقد ـ أى ينفصل ـ من ثقل مانزل من الوحى فبركت ، لقد نزل جبريل عليه السلام بالوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله ـ تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣ ﴾ (٢٥٦)

قال القرطبى فى قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين كان بمكة لم تكن له إلا فريضة الصلاة وحدها ، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام إلى أن حج ، فلما حج وكمل الدين نزلت هذه الآية « اليوم أكملت لكم دينكم »

---

(٢٥٦) المائدة ٣

روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود الى عمر فقال : ياأمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرءونها لو أنها أنزلت علينا ـ معشر اليهود ـ لاتخذنا ذلك اليوم عيدا .

قال عمر : وأى آية ؟

قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »

فقال عمر : إنى لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه ، والمكان الذى أنزلت فيه . نزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعرفة يوم جمعة . وهكذا اتخذ المسلمون هذا اليوم الذى نزلت فيه عيدا . . بل هو الله الذى جعله لهم عيدا .

وروى أنها لما نزلت فى يوم الحج الأكبر ـ وقرأها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكى عمر فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مايبكيك ؟

فقال : أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا ، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : صدقت .

المسلمون يتسابقون فى الاحتفاظ بِشَعْرِ النبى :

بعد النحر حلق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطائفة من أصحابه وقصر بعضهم . ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهؤلاء وهؤلاء فقد قال :

يرحم الله المحلقين مرة أو مرتين . قالوا : يارسول الله والمقصرين ؟
قال : والمقصرين .

وسابق المسلمون يأخذون شعر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحتفظون به تبركا . وفى رواية أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلق شق رأسه الأيمن فقسمه بين الناس من شعرة أو شعرتين . وأعطى شعر شق رأسه الأيسر لأبى طلحة .

وعن ثابت عن أنس قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحلاق يحلق شعر ، وقد أحاط به أصحابه مايريدون أن يقع شعره إلا فى يد رجل منهم .

ثم لبس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثيابه وتطيب بعدما رمى جمرة العقبة ونحر هديه ، وذلك قبل أن يطوف بالبيت . .

وبعد أن طاف عاد الى منى فمكث بها ليالى أيام التشريق يرمى الجمرة إذا زالت الشمس كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة .

لقد صلى الظهر بمكة يوم النحر ، وشرب من زمزم . . . . . . أتى السقاية فقال : اسقونى ، فقالوا : إن هذا يخوضه الناس ولكنا نأتيك به من البيت ، فقال : لاحاجة لى فيه ، اسقونى مما يشرب منه الناس .

وفى رواية : جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى زمزم فنزعنا له دلوا فشرب منها ثم أفرغناها فى زمزم .

ولم يسع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين الصفاء والمروة لأنه كان قد سعى قبل ذلك وهو قارن بالإحرام .

وخطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقب عودته من الطواف خطبة ، ألح فيها على تعظيم حرمة المسلمين فقال فيما يرويه ابن كثير : يأيها الناس أى يوم هذا ؟

قالوا : يوم حرام

قال : فأى بلد هذا ؟

قالوا : بلد حرام .

قال : فأى شهر هذا ؟

قالوا : شهر حرام .

قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا .

أعاد ذلك مرارا . ثم رفع رأسه فقال : اللهم هل بلغت ، اللهم قد بلغت .

قال ابن عباس : فوالذى نفسى بيده إنها لوصيته إلى أمته ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

ولقد فرط المسلمون كثيرا فى تنفيذ هذه الوصية بكل أسف .

وهانحن الآن نكتب هذه العبارات والدماء تنزف من أشلاء المسلمين التى تمزقت على يد المسلين أنفسهم فى كثير من مناطق العالم الاسلامى

وهاهى البلاد الاسلامية تكيد لبعضها البعض ، وتتحالف ضد بعضها البعض وتعتدى على بعضها البعض ، وغير المسلمين شامتون يشجعون الفتنة وهدفهم القضاء على الاسلام .

إن هذا يثير فى النفس مشاعر الحزن والأسى على ماوصل اليه المسلمون من ضياع وتفرق وتخاذل .

فهل ياترى أصبح المسلمون كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

أما نحن فنشهد أن الرسول أبلغ وحذر ، وبشر وأنذر ، ولم يغادر الدنيا حتى ترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، ولكن الناس قصروا فى حفظ وصايا نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولامخرج لهم مماهم فيه الا بالرجوع اليها مرة أخرى والعودة الى أحكام كتابهم الكريم ففى اتباع ذلك الحل الناجع لكل مشكلاتهم . .

وكان منزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنى حيث المسجد الآن ، وأنزل المهاجرين يمنته والأنصار يسرته والناس حولهم .

وقد طلب بعض الناس أن يبنوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بناء يظله .

ولكنه قال : لا ، منى مناخ من سبق

طواف الوداع

ثم جاء يوم النفر وهو آخر أيام التشريق فصلى النبى ـ ﷺ ـ العصر بالأبطح وقيل : إنه صلى العصر والمغرب والعشاء ثم هجع هجعة ، ثم دخل مكة فطاف بالبيت . ثم قال : نحن نازلون غدا بخيف بنى كنانة ـ يعنى المحصب ـ حيث قاسمت كنانة قريشا على الكفر ، وذلك أن بنى كنانة حالفت قريشا على بنى هاشم أن لايناكحوهم ولا يبايعوهم ولايؤووهم حتى

يسلموا اليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

شتان بين اليوم والأمس .

لقد أصبحت الجزيرة العربية اليوم كلها مؤمنة ، تدين بدين ذلك الرجل الذى تقاسموا بالأمس ضده وتحالفوا عليه . .

وأصبح أولئك الذين كانوا يعادونه ويطاردونه ـ من بقى منهم على قيد الحياة ـ مسلمين يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

وصدقت كلمة الله « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس أن يكون آخر عهدهم البيت . . وكانوا قبل ذلك ينصرفون من كل وجه . .

وأراد النبى أن يطوف هو ومن معه من المسلمين طواف الوداع ، وكان قد نفر من منى قرب الزوال ، فلم يكن يمكنه أن يجىء البيت فى بقية يومه ، ويطوف به ويرحل الى ظاهر مكة من جانب المدينة لأن ذلك قد يتعذر على الجم الغفير من الناس .

فاحتاج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبيت قبل مكة ، ولم يكن أنسب له من ذلك المكان الذى أشرنا اليه « وكان هذا توافقا عجيبا .

وبعد أن صلى العشاء وهجع هجعة ، وكان قد أمر عائشة أن تعتمر من التنعيم مع أخيها عبد الرحمن فاعتمرت وفرغت من طوافها . .

وأقبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى البيت فطاف طواف الوداع . .

ووقف فى الملتزم بين الركن الذى فيه الحجر الأسود وباب الكعبة ، فدعا الله - عز وجل - وألصق جسده بجدار الكعبة . .

إنها لحظة مناجاة وضراعة ، يطلب المؤمن فيها ألا يجعل الله هذه المرة آخر عهده بالبيت .

وماأروع الإحساس بالفراق ، وأى فراق هذا ؟ إنه فراق هذا الرحاب الواسع الذى يضم فى حنان تلك الآلاف المؤلفة التى أقبلت فى شوق جارف تلبى دعوة الله ، وتضع يدها فى يمين الله ، وتسعد بضيافة الرحمن . .

إن وداع البيت الرحيب له لذعة ألم وشوق فى القلب تفيض من أجلها الدموع غزيرة وتتصاعد لها الأنفاس شوقا ويهتف المؤمن من أعماقه راجيا ربه بما شاء من دعاء ، مجددا معه العهد ، شاكرا له على نعمة التوفيق لزيارة بيته آملا فى العودة الى هذا الرحاب الطاهر مرات ومرات . .

العودة إلى المدينة :

وخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - من أسفل مكة . . من الثنية السفلى ، فقد دخل من طريق ، فليكن خروجه من طريق آخر ، وكان - صلى الله عليه وسلم - قد دخل مكة من الثنية العليا ، من طريق كداء ، وغادرها من طريق كدى .

وقد اصطحب معه من ماء زمزم شيئا ، وفى ذلك دعوة إلى استحباب فعل ذلك للحجاج والمعتمرين وقد روى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها كانت تحمل من ماء زمزم وتخبر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يحمله معه .

وفى الطريق الى المدينة ، وفى مكان يطلق عليه غدير خم ، نزل النبى - صلى الله عليه وسلم - وتحت شجرة هناك ألقى خطبة بين المسلمين بين فيها فضل على كرم - الله وجهه - وأزاح ماكان قد علق ببعض الأذهان بخصوص عَلِىّ - وذلك أن عليا كان قد خشن على بعض من كان معه فى اليمن ، ونزع منهم حللا أعطاها لهم الرجل الذى كان قد ولاه عليهم ، أثناء انصرافه لأداء الحج - وقد فعل الرجل ذلك دون إذن من عَلِىّ ، وكانت هذه الحلل ضمن غنيمة لاينبغى التصرف فيها الا بعد اقتسام الغنيمة . . والرجوع الى النبى - صلى الله عليه وسلم -

أراد النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يبين سلامة موقف عَلِىّ فقال : « أيها الناس لاتشكو عليا فوالله إنه لاخشن فى ذات الله - أو سبيل الله - من أن يشكى »

وقال أيضا : « من كنت مولاه فَعَلِىٌّ مولاه »

وقال أيضا : « كأنى قد دعيت فأجبت ، وإنى قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وسنتى فانظروا كيف تخلفونى فيهما ، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض وأوصيكم بأهل بيتى »

ثم قال : « الله مولاى وأنا ولى كل مؤمن »

ثم أخذ بيد علىّ وقال : « من كنت مولاه فهذا وليه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »[٢٥٧]

---

(٢٥٧) رواه النسائى عن زيد بن أرقم وقال الذهبى : حديث صحيح ، ورواه ابن كثير فى البداية والنهاية حـ ٥ صـ ٢٠٩

إن فى هذا الحديث بيانا لمنزلة أهل البيت وفضلهم ، وقد أثنى الله عليهم بقوله :

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(٢٥٨)

وقد حرص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوصى المسلمين كثيرا ـ وقد أحس قرب أجله ـ بأهل بيته . حتى لايتعرضوا للجفاء بعده . .

كما حرص أن ينزع من نفوس من وَجِدوا عَلَى عَلِيّ ـ رضى الله عنه ـ كل موجدة وغضب منه . . كما أوصى وأثنى على أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ وخصوصا السابقين منهم وذوى الفضل فيهم من أمثال أبي بكر والفاروق وذى النورين وبقية العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم . . ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ

ولذلك حين قدم المدينة ـ صعد المنبر فى مسجده الشريف ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ، إن أبا بكر لم يسؤنى قط ، فاعرفوا ذلك له ، أيها الناس ، إنى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين راض فاعرفوا ذلك لهم .

أيها الناس ، احفظونى فى أصحابى وأصهارى وأحبابى لايطلبكم الله بمظلمة أحد منهم .

أيها الناس ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين ، واذا مات أحد منهم فقولوا فيه خيرا : بسم الله الرحمن الرحيم »

---

(٢٥٨) الاحزاب ٣٣

ولقائل أن يقول ، فما باله - ﷺ - لم يخص الأنصار فى ذلك بحديث وان كانوا قد دخلوا فى عداد الأصحاب والأحباب ؟

ونرد على ذلك فنقول : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - خص الأنصار فى مرض موته فى آخر أحاديثه الشريفة التى تحدث بها . . . . فقد روى ابن سعد فى طبقاته قال : حين مرض النبى - صلى الله عليه وسلم - قالت عائشة : أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نصب عليه من سبع قرب من سبعة آبار ففعلنا .

فلما اغتسل وجد الراحة ، فصلى بالناس ثم خطبهم ، واستغفر للشهداء من أصحاب أحد ، ودعا لهم ، ثم أوصى بالأنصار فقال :

يامعشر المهاجرين ، إنكم أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لاتزيد . . . على هيئتها التى هى عليه اليوم ، هم عيبتى التى أويت اليها ، أكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

وفى رواية . قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مرضه الذى توفى فيه : إن لكل نبى تركة أو ضيعة ، وإن الأنصار تركتى أو ضيعتى ، وإن الناس يكثرون الأنصار يقلون - فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم .[(٢٦٠)]

واستجاب المسلمون حقا لوصاة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - . وسيأتى بمشيئة الله حديث مفصل عن الأحداث التى وقعت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى مناسبتها

---

(٢٥٩) عيبتى : أى موضع سرى والمطلعون على خفايا أمرى

(٢٦٠) الطبقات الكبرى جـ٢ قسم ٢ صـ٤٢

الأَعْلَام فى القرآن الكريم

الأَعْلَام جمع عَلَم - بفتح العين واللام -

وتطلق هذه الكلمة على معان عدة .. أهمها : الشَّقُّ فى الشفة العليا . أو فى أحد جانبيها - فيقال : رجل أَعْلَم ، أى مشقوق الشفة ، وتقول : عَلَمْت شفته أَعْلِمُها عَلْمًا - بفتح العين - ومنها : الراية التى يجتمع إليها الجند ، والمنار الذى يهتدى به الناس ، والعلامة التى يتميز بها الشىء ، ولذلك يقال لعلامات الطريق : معالم الطريق جمع مَعْلَم .

والعلم هو السيد فى قومه ، وأعلام القوم سادتهم .

وقد يطلق العلم على الجبل ، قال - تعالى -

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ (٢٦١)

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ (٢٦٢)

ومنه قوله الخنساء ترثى أخاها صخرا :

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

هذا بعض ما يوحى به هذا اللفظ من معان ، وكلها تهدى إلى المعنى الاصطلاحى الذى يذكره النحاة ..

والعلم عند النحاة هو الاسم مطلقا ، أى الاسم الذى يعين المسمى .. ويشمل أعلام الأناسى وغيرها من حيوان وجماد ، ويشمل كذلك اللقب والكنية .

---

(٢٦١) الرحمن ٢٤

(٢٦٢) الشورى ٣٢

أسماء السور

والقرآن الكريم غنى بالأعلام ، وردت فيه أعلام كثيرة ، كان لذكرها دلالات وإشارات لا تخفى . وفى مقدمة ذلك أسماء السور نفسها ، فاسم السورة عَلَم عليها ، وما سميت بذلك الاسم الذى يدل عليها إلا لمعنى عميق وحكمة عالية . .

يقول الامام السيوطى : إن أسماء السور ثبتت بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كان المشركون يقولون : سورة البقرة وسورة العنكبوت ، ويستهزئون بها فنزل قوله - تعالى -

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (٢٦٣)

قال : وقد كره بعضهم أن يقال : سورة كذا لما رواه الطبرانى والبيهقى عن أنس مرفوعا : « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء ، وكذا القرآن كله ، ولكن قولوا : السورة التى تذكر فيها البقرة والتى يذكر فيها آل عمران ، وكذا القرآن كله » .

وقد عقب السيوطى على هذا الأثر بقوله : إسناده ضعيف ، بل ادعى ابن الجوزى أنه موضوع .

والذى لا شك فيه أن أسماء السور ثبتت ، ومضى بها العرف ، وأصبحت معروفة لدى الناس جميعا منذ جمع المصحف حتى وقتنا هذا وإلى أن يطوى

---

(٢٦٣) الحجر ٩٥

الله الأرض وما عليها ، فقد تعهد الله بحفظ كتابه فقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢٦٤)

وقد جاءت تسمية السور لأغراض ومعان دقيقة . وغالبا مايكون العلم الذى سميت به قد ورد حديث عنه أو إشارة إليه فى السورة - أراد المولى - عز وجل - أن يلفت الأذهان إليه ، وينبه العقول إلى الانتفاع به .

وهذا لا يمنع أن يكون للسورة تسميات أخرى وردت بها الآثار .

فسورة البقرة مثلا ، سميت بذلك لما ورد فى السورة من قصة البقرة التى أمر بنو إسرائيل بذبحها .

وإن كان لها أسماء أخرى هى صفات تدل على عظمتها .

فقد سميت بفسطاط القرآن ، وسنام القرآن .(٢٦٥)

وقال الزركشى مشيرا إلى سبب تسمية السور : ينبغى النظر فى اختصاص كل سورة بما سميت به ، ولاشك أن العرب تراعى فى كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى الشىء - من خلق أو صفة تخصه أو حكمة أو عبرة تنبه إليها تلك التسمية - ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن ، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقَرينة قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها ، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من شىء كثير من أحكام النساء ، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها ،

---

(٢٦٤) الحجر ٩

(٢٦٥) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ صـ ١٩٤

وإن كان قد ورد لفظ الأنعام فى غيرها ، إلا أن التفصيل الوارد فى قوله ـ تعالى ـ

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (٢٦٦)

لم يرد فى غيرها . . . . كما ورد ذكر النساء فى سور غير سورة النساء إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد فى غير سورة النساء ، وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة فى غيرها فسميت بما يخصها .

فإن قيل : قد ورد فى سورة هود ذكر نوح وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى ، فلم خصت باسم هود وحده ، مع أن قصة نوح فيها أكثر وأطول ؟

---

(٢٦٦) الأنعام ١٤٢ : ١٤٤

قيل : تكررت هذه القصص فى سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأكثر مما وردت فى غيرها ، ولم يتكرر فى واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود كتكرره فى سورته ، فانه تكرر فيها فى أربعة مواضع والتكرار من أقوى الأسباب التى ذكرنا .

فإن قيل : فقد تكرر اسم نوح فيها فى ستة مواضع قيل : لما أفردت لذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها ـ فلم يقع فيها غير ذلك ، كانت أولى بأن تسمي باسمه من سورة تضمنت قصته وقصة غيره »[٢٦٧] . .

ويمكن القول بأن تسمية السورة بقصة أو شيء بارز فيها يشير إلى ما يكمن فى ذلك من معان يجب أن تتنبه الأذهان إليها .

قال الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره : « اعلم أن الله ـ عز وجل ـ سمى السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام ، وببعضها كالبقرة ، وبالحيوانات الصغيرة وهى الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو ألطف من ذلك كالنور . كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وببعض الأخلاق كالتوبة ، وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم ، وببعض الأوقات ، كالليل والفجر والضحى ، وببعض المعادن كالحديد ، وببعض الأماكن كالبلد والبروج ، وببعض النباتات كالتين . وبكل شيء مما نراه وما لا نراه ، فما لا نراه كالمرسلات والنازعات والجن وغير ذلك » .

---

(٢٦٧) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ١ صـ ٢٧٠

تسمية سورة البقرة :

والمتأمل فى أسماء هذه السور يراها ترمز إلى حقائق . . . . . من ذلك على سبيل المثال ما نراه من سبب تسمية سورة البقرة بهذا الاسم .

لقد وردت قصة بقرة بنى إسرائيل فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢٦٨)

---

(٢٦٨) الآيات من ٦٨ : ٧٣ سورة البقرة

فى هذه القصة من العبر والعظات والمعانى ما هو كفيل أن يوجه الناس إليه أنظارهم ، ولذلك سميت السورة باسم البقرة وهى مدار هذه القصة .

ومن هذه العبر : ماتشير إليه القصة من عناد بنى إسرائيل وتشددهم فى أمور لا تستحق أى تشدد ، فكانت مغبة ذلك راجعة عليهم لا على غيرهم . فقد راجعوا موسى ـ عليه السلام ـ فى أمر البقرة أكثر من مرة ، ولو أنهم استجابوا إليه من أول مرة لما حُملوا أنفسهم عناء كبيرا فى طلب بقرة تجمع كل هذه الصفات التى أوردتها الآيات ، حتى إنهم لم يتمكنوا من الحصول عليها إلا بملء جلدها ذهبا كما ذكر المفسرون ، ولذلك ضرب المثل بتعنت بنى إسرائيل فقيل :

لا تكونوا كبنى إسرائيل شددوا فشدد عليهم .

ومع أن السورة فيها آيات كثيرة توضح فساد الاسرائيليين وعنادهم وكفرهم بعد إيمانهم ، وترددهم الشديد الذى يوضح سوء نواياهم وقبح سرائرهم إلا أن أوضح مثل يفصل ذلك هو هذه القصة التى حكيت فى أروع بيان وأجمل نسق ، ويا ليتهم آمنوا بعد أن أنطق الله قتيلهم بضربه بجزء من البقرة ، فأخبر بمن قتله ، وعلى الرغم من ذلك قست قلوبهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم عقب ذكر القصة فى قوله :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤ (٢٦٩)

---

(٢٦٩) البقر ٧٤

إن هذه القصة تضع أمامنا صورة لهذا العناد حتى نحذره ونحذر أصحابه ونعلم أى لون من الناس أصبح المسلمون يختلطون بهم فى المدينة ، بعد أن أصبحت مهاجر الدين الجديد ومستقر المسلمين بعد الهجرة .

ولابد من الإشارة الى ما ألمع إليه بعض المفسرين حول هذه القصة بأن رفع قيمة ثمن هذه البقرة حتى بذل فيها - كما يقولون - ملء جلدها ذهبا - جاء نتيجة لبر الوالدين ، فقد كان صاحب هذه البقرة بارًا بأمه فأراد الله أن يكافئه على هذا البر فى الدنيا قبل أن يكافئه فى الآخرة .

ثم انظر الى قوله - تعالى - :

« كذلك يحيى الله الموتى »

أليس هنا موطن عبرة ينبغى للعاقل أن يتدبره ؟ فيعرف قدرة الله العظمى ، وأنه عز وجل قادر على إحياء الخلق وبعثهم وحسابهم وإثابتهم ومعاقبتهم .

ثم انظر الى مايبطن فى أخلاق الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر بعد أن أنقذهم موسى من التردى الذى كانوا فيه فما أن وطئت أقدامهم أرض سيناء حتى طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلها صنما فزجرهم ، ولكنهم اغتنموا فرصة ذهابه لمناجاة ربه فاتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار وعبدوه من دون الله ، فأراد الله أن يبين لهم بطريق عملى أن الحيوان الذى لا يستطيع ان يدفع عن رقبته مدية الجزار وسلخه وتقطيع أجزائه لا يصلح أن يكون إلها يعبد ؟

وبذلك حطمت هذه البقرة بذبحها الشرك فى النفوس عند ذوى الفطنة والفِطَر السليمة والقلوب الواعية والعقول المستنيرة .

هذا بعض ما يمكن استفادته من سر تسمية سورة البقرة بهذا الاسم .

سورة آل عمران :

ونستطيع أن نستخلص من تسمية سورة آل عمران بهذا الاسم كثيرا من العبر والعظات .

لقد سميت بذلك لأنها تريد أن تفتح أذهاننا إلى أن الله يخص برحمته من يشاء من عباده ، ويصطفى للهداية من يريد .

لقد ذكرت سورة البقرة السابقة عليها طوائف من الضالين منهم المنافقون الذين أشارت اليهم السورة فى أولها ـ فى قوله تعالى ـ

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢٧٠)

ومنهم المشركون ومنهم أهل الكتاب المنحرفون . .

وجاءت سورة آل عمران لتنبه إلى أن هناك طائفة من المهتدين اصطفاهم الله وخصهم برحمته وهدايته

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢٧١)

لقد أشارت الآيات السابقة على هذه الآية فى سورة آل عمران والسورة التى قبلها الى طبيعة الشاكين والمشككين والضالين والمضللين ـ وبخاصة بنو

---

(٢٧٠) البقر ١٠

(٢٧١) آل عمران ٣٣ ، ٣٤

إسرائيل - وكيف أنهم يغيرون ويبدلون ويقلبون وجه الشيء ، ولا يرضون بشيء ولا يصبرون على اختبار ، ولا يثقون فى الله . . . . . امتلأت قلوبهم بالشك والحسد .

فانظر إلى من اصطفاهم الله واجتباهم كيف يكون حالهم ، وكيف يكون إيمانهم ويقينهم ، إنهم لله . . . حركاتهم وسكناتهم به ، ولا يملكون معه شيئاً . فقد فوضوا أمرهم إليه ، واعتمدوا - فى ثقة كاملة - عليه . .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾[٢٧٢]

إنه إيمان عظيم ، ويقين راسخ ، وتوكل كامل ، ولجوء إلى الله ، واستعانة به وحده . هذه هى صفات المؤمن الحق .

ثم انظر إلى رعاية الله حين تحف بإنسان يصطفيه ويجتبيه ، إنه يمده بكل حيطة وعناية ، ويكفيه كل هم . وفى مقدمة ذلك هَمُّ الرزق الذى كفله الله للخلق جميعا ، ولكن كثيرا من الناس عموا عن ذلك فشقوا وأشقوا . وقد تنبه لهذا المعنى الدقيق بعض العلماء المتذوقين فقالوا :

« انشغالك بما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك »[٢٧٣]

---

(٢٧٢) آل عمران ٣٥ ، ٣٦

(٢٧٣) ابن عطاء الله الكسندرى فى حكمه

لقد أقر الله عين مريم البتول المؤمنة الواثقة التى نذرتها أمها لله ، فكفل لها رزقها من حيث لا تحتسب . .

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ (٢٧٤)

ذلك تعليم للناس ألا تلهيهم الدنيا عن خالقهم . وعليهم أن يكون سعيهم فيها موصولا بمعرفة الله والثقة فيه ، وأن تكون الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم ، لقد خلقهم الله لعبادته ومعرفته ، فما لهم يشغلون أنفسهم عن هذه الغاية الرفيعة بغايات أخرى تافهة ؟

أن من طبيعة المؤمن أن يكون مستسلما لله ومفوضاً أمره إليه ، كما فوض هؤلاء الذين اصطفاهم الله أمرهم إليه ، ولذلك نجد أن هذه السورة قد بدأت بهذه المعانى التى اتصف بها أولو العلم الحقيقيون الذين لا يُعَنُّون أنفسهم بما ليس من حقهم ، وهم يقولون : « آمنا به كل من عند ربنا » ويطلبون أن يثبت الله أقدامهم على طريق الحق

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (٢٧٥)

---

(٢٧٤) آل عمران ٣٧
(٢٧٥) آل عمران ٨

ولا تلهيهم زهرة الدنيا الفانية وزينتها الزائلة كما ألهت آل فرعون والذين من قبلهم ، والذين أغرقهم الله من أجل بنى إسرائيل الذين أنقذهم الله بموسى - عليه السلام -

لقد كان بنو إسرائيل جديرين بأن يتعظوا بهذا المصير الذى حاق بمن آثروا الدنيا على الآخرة ، ولكنهم فاقوا هؤلاء فى التكالب على حطام الدنيا الفانى ومتاعها الزائل ، وأمعنوا فى الضلال فقتلوا الأنبياء والمرسلين والذين يأمرون بالقسط من الناس .

لقد فتحت السورة أعينهم على المثل الكامل فى آل عمران لعلهم يتعظون ويهتدون وفى هذا المثل عبرة لكل مؤمن . ولكل من يريد أن يتأسى بأفراد هذه الأسرة المصطفاة . .

إن فى كل فرد من أفراد هذه الأسرة مثلا يحتذى . .
فأم مريم زوجة عمران آثرت الله على نفسها فوهبته ما فى بطنها ليكون نذيرا فى بيته المقدس . .

ومريم البتول أحصنت فرجها ، وفضلها الله على نساء العالمين فى عصرها . وزكريا الذى كفلها كان نبيا اصطفاه الله واجتباه ، وكان مثلا كاملا فى اللجوء إلى الله . والاستسلام لقدره وقضائه .

وابنهُ يحيى الذى لم يجعل الله له من قبل سميا كان قدوة كاملة فى النزاهة والعفة والتذكير بالله والدعوة اليه والاستشهاد فى سبيل ذلك .
وعيسى روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم . .

هذه مثل عليا وضعها الله أمام الناس عامة وأمام بنى اسرائيل خاصة . فاذا كان المسلمون مطلوب منهم الاقتداء بهؤلاء فأهل الكتاب أولى بهذا ، لأنهم يدعون أنهم على ملة عيسى ، وهو منهم براء لما زيفوه على لسانه من أباطيل ، وشوهوا به رسالته من أضاليل .

وقد أعلنت السورة صراحة ـ أن هؤلاء الذين يزعمون نسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام ـ أن إبراهيم برىء منهم ، وأن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ، وهذا النبى ـ ﷺ ـ . .

وهكذا نستطيع أن نمضى مع بقية السور ، فنلتقط منها الحكمة التى تختفى وراء هذا الاسم الكريم الذى سميت به . ونتدبر فى معناه وما يهدى إليه من مثل ، ولا نمر مر الكرام على هذا الاسم دون أن نعرف حكمته ومغزاه .

فانظر إلى تسمية السور بالرعد وابراهيم والحجرْ والنحل والنمل والشعراء والعنكبوت ـ وغيرها من السور . . . وحاول ان تستنبط من وراء هذه التسميات الدلالات العميقة والحكم الرفيعة التى تشير اليها .

وهذه بعض نماذج نستشهد بها . .

سورة الرعد

إن لفظة الرعد تلفت أنظارنا إلى هذه الظاهرة الكونية التى تحيط بنا ، والتى تدل دلالة قوية على قدرة الله ـ تعالى ـ فنعرف سر هذه الظاهرة وندرسها دراسة علمية متخصصة متدبرة ، ونهتدى من ورائها إلى أسرار علمية تقودنا الى غيرها ، وترشدنا الى ما يفيدنا فى حياتنا ، ويعمق إيماننا بالله واليوم الآخر ، ونعرف أن الاسلام ليس دينا للآخرة فقط ، ولكنه دين

للآخرة والدنيا انظر الى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝١٣ ﴾(٢٧٦)

إن نسق التعبير يوحى بكثير من الدلائل ، فهذه ظواهر طبيعية يترتب بعضها على بعض ، برق فسحاب ثقال ، فرعد ، فصواعق تصيب المجادلين فى الله بغير علم ، وهو وحده القوى القادر العظيم المتعال الذى له دعوة الحق . .

إن القرآن يخاطبنا عن طريق هذه التسمية طالبا منا أن نتنبه لقدرة الله ـ تعالى ـ الخارقة وعظمته القاهرة ، ويطلب منا أن نحث النظر فى معرفة ظواهر الكون المختلفة للتعرُّف عليه والاهتداء إليه ، وفى الوقت نفسه نفتح لأنفسنا آفاقا من العلم تجعلنا نتفوق فى حياتنا ، وننتفع بما يمكن الانتفاع به .

سورة الحِجر

ربما كان اسم الحِجر الذى سميت به هذه السورة ـ على ما فيها من معانى رائعة عظيمة ـ فيه إرشاد لنا إلى أن الترف ومظاهره فى العمران ليس دليلا على تقدم الانسان ورقيه ، بل ربما كان سببا فى محقه وضياعه .

(٢٧٦) الرعد ١٣

إن التقدم الحق ليس فى هذه المظاهر المادية التى تغصُّ بها الحياة الآن ، ولكن التقدم الصحيح هو أن يكون الانسان فى تقدمه عارفا بربه ، معظما إياه ، مقرا بوحدانيته وقدرته ، معترفا بتفرد الله وقيوميته ، شاكرا لأنعمه ، متعاطفا مع غيره ممن هم فى حاجة إليه ، غير تيَّاهٍ بما مُنِحَه من نعمة وأُعْطيه من فضل ، ليس معربدا بقوته وموجها لها فى الشر والأذى واغتصاب الحقوق والعدوان . . إنه اذا لم يتق الله فيما خوَّله إياه ولم يرع جانبه فيما وهبه من مواهب استحق الخسف والبوار . كما حدث لأصحاب الحِجر الذين أعمتهم المادة عن طريق الحق ، وأضلهم الترف عن اتباع رسولهم ـ عليه السلام ـ وصدق الله إذ يقول منبها الأذهان فى هذه السورة :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٢٧٧)

أى المتفكرين المتفرسين .

سورة العنكبوت :

وربما كان اسم العنكبوت يشير الى ما ألهم الله هذه الحشرة العجيبة من قدرات ، فهى فى إمكانها أن تعلم الانسان ما لم يعلم ، إن فى لعابها سحرا تصنع منه خيوطا محكمة النسج تبنى بها قلعة تحميها وتحرسها ، وتجعل منها شركا تصطاد بها فرائسها ، وعلى هذه الخيوط تتسلق وتعلو وتهبط ، دون أن تبذل فى ذلك جهدا أو مشقة .

وعلى ضعف بيت العنكبوت ـ الذى ضرب الله به المثل فى ضعف الشركاء الذين يتخذهم الكفار أولياء من دون الله ـ بيان لقدرة الله العظيم الخالق الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، فهو الذى ألهم كل

---

(٢٧٧) الحجر ٧٥

مخلوق حكمة تعينه على حياته ومعيشته ورزقه وَعَدْوِه . . وفي السورة لفت لأنظارنا ، حتى نفكر ونتدبر في هذا الكون المليء بالعجائب والمتناقضات ، حيث يوجد القوى والضعيف ، والمفترس والفريسة ، والهازم والمنهزم والمهتدى والضال ، ومع ذلك فالكون يسير في دقة متناهية ونظام عجيب متكامل . أليس ذلك دليلا على قدرة الله الواحد وعظمة الخالق الذى قدر فهدى ؟

هذه بعض مُذَكرات متواضعة حول أسماء بعض السور ، وهناك معان دقيقة ـ قطعا ـ لم نفطن لها ، وفي ذلك دعوة إلى استمرار التعلم والنظر . . ، فقد ورد أن العالم يظل عالما ما طلب العلم ، فمتى ظن أنه علم فقد جهل .

أعلام أخرى في القرآن

والقرآن غاص بالأعلام التى وردت في آياته ، فهناك أسماء الله ـ جل جلاله ، وأسماء الملائكة وأسماء الرسل وأسماء الأماكن وغير ذلك مما سنشير إليه . .

وقد جرت عادة العلماء أن يقسموا العلم إلى اسم وكنية ولقب .

والاسم مثل : محمد وأحمد وزيد وعمر . .

والكنية ما صدر بأب أو أم ، كأبي بكر ، وأم المؤمنين .

واللقب ما أشعر بمدح أو ذم ، فالمدح كالصدِّيق والفاروق . والذم كالعتل والزنيم .

وقد جمع القرآن الكريم ألوانا من الأعلام على اختلاف أنواعها ـ دعا الى ذكرها الإعجاز المحكم . واقتضاها البيان الحكيم .

ونرى لزاما علينا أن نبدأ في بيان ما ورد في القرآن الحكيم من أعلام

بأسماء الله الحسنى ، لأنها هى الأحق بالبدء والأولى بالسبق ، والأجدر بالفضل ، والأحرى بالتقديم فى الذكر .

بعض ما وقع فى القرآن من الأسماء والكنى

وقبل أن نتحدث عن اسماء الله الحسنى التى سنفرد لها حديثا خاصا إن شاء الله ، تقدم بين يديها بعض ما وقع فى القرآن الكريم من أسماء وكنى وألقاب . . .

أسماء الأنبياء

فمن الأعلام التى وردت فى القرآن الكريم اسماء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقد تحدثنا عنهم بالتفصيل قبل ذلك فى أعدادنا السابقة ، ولكنا نشير إلى بعض النكات الواردة حولها للإفادة أولا ، ولأن ما سنذكره لم يرد غالبا فيما سبق أن قدمناه .

قال الجواليقى ـ رحمه الله ـ : أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة وهم : آدم ، وصالح ، وشعيب ومحمد . . ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

● وآدم سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وقال بعضهم : بل هو سريانى ، وقال بعضهم : بل هو أعجمى مُعَرَّب .

وقد ذكر اسم « آدم » فى القرآن خمسا وعشرين مرة ، منها ما هو مذكور وحده ، ومنها ما هو مضاف الى بنيه أو ذريته .

ومن ذلك قول ـ تعالى ـ

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »(٢٧٨)

---

(٢٧٨) البقرة ٣١

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين »[٢٧٩]

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ومن ذرية آدم . . . »[٢٨٠]

● أما نوح ، فقد قال بعضهم : إنه أعجمى معرب ، ومعناه بالسريانية : الساكن .

وقال الحاكم فى المستدرك : إنما سمى نوحا لكثرة بكائه على نفسه ، وأما اسمه فعبد الغفار[٢٨١]

وقد ورد اسم نوح فى القرآن الكريم ثلاثا وأربعين مرة .

منها قوله ـ تعالى :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . . . . »[٢٨٢]

والمعروف أن نوحا كان أطول الأنبياء عمرا

● أما إدريس فقد قالوا : إنه جدُّ نوح ، ويقال له « خُنوخُ »

وهو اسم سريانى ، وقيل : عربى مشتق من الدراسة ، لكثرة درسه الصحف .

وقد ورد اسم إدريس فى القرآن مرتين هما :

« واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا »[٢٨٣]

---

(٢٧٩) الأعراف ٣١

(٢٨٠) مريم ٥٨

(٢٨١) الاتقان فى علوم القرآن جـ٣ ص ٦٨

(٢٨٢) النساء ١٦٣

(٢٨٣) مريم ٥٦

« وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين »[٢٨٤]

● أما ابراهيم فقد قال العلماء إنه إسم قديم ليس بعربي ، وقد تكلمت به العرب على وجوه ، فقالوا : إبراهام ، وإبراهيم ، وإبْرَهَم ، وأشهرها إبراهيم . وهو اسم سرياني معناه أب رحيم .

وقال بعضهم : مشتق من البرهمة ، وهي شدة النظر .

وورد اسم ابراهيم في القرآن الكريم تسعا وستين مرة . منها على سبيل المثال قوله ـ تعالى ـ :

« وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين »[٢٨٥]

● وأما اسماعيل وهو ولد إبراهيم ـ فقد ورد بالنون في بعض القراءات بدل اللام ـ ذكر ذلك الجواليقي في كتابه المعرب .

وذكر إسماعيل في القرآن اثنتي عشرة مرة ، منها قوله ـ تعالى :

« وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود »[٢٨٦]

● واسحاق ،وهو الولدالتالي لا إبراهيم بعد اسماعيل ـ عليهم السلام ـ وهو أحد الأنبياء والذين سماهم الله قبل أن يولدوا . ولد بعد اسماعيل بأربع عشرة سنة ، ومعنى إسحاق بالعبرانية : الضحاك ـ

---

(٢٨٤) الأنبياء ٨٥

(٢٨٥) البقرة ١٢٤

(٢٨٦) البقرة ١٢٥

وذكر إسحاق فى القرآن سبع عشرة مرة منها قوله ـ تعالى ـ :

« قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا . . »[287]

● وأما يعقوب فهو ولد إسحاق ، وهو الذى بشر به القرآن قبل أن يولد . .

« فبشرناهم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب »[288]

وقد ذكر يعقوب فى القرآن الكريم ست عشرة مرة .

ويعقوب له اسم آخر هو إسرائيل الذى ذكر فى القرآن الكريم ثلاثا وأربعين مرة ، منها قوله ـ تعالى ـ

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين »[289]

● وأما يوسف فقد ذكر فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة ، ونزلت سورة باسمه تقص قصته كاملة ، وورد اسمه فيها خمسا وعشرين مرة ، وفى غير هذه السورة ورد مرتين ، مرة فى سورة الأنعام فى قوله تعالى

« ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف . . . »

ومرة فى سورة غافر فى قوله ـ تعالى ـ :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به . . . »[291]

---

(287) البقرة ١٣٣

(288) هود ٧١

(289) البقرة ٤٠

(290) الأنعام ٨٤

(291) غافر ٣٤

وهو الذى أعطى شطر الحسن . وقال بعضهم : إن الذى ورد فى سورة غافر ليس هو يوسف بن يعقوب بل هو حفيده .

● وأما لوط فهو ابن هارون بن آزر ، وهو ابن أخو ابراهيم ـ عليه السلام ـ وقد ذكر فى القرآن الكريم سبع عشرة مرة ، منها قوله ـ تعالى ـ :
« قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط »(٢٩٢)

● وهود ، وكان أشبه الناس بآدم ـ عليهما السلام ـ ، وقيل : كان اسمه عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

وقال بعضهم : الراجح فى نسبه أنه هود بن عبد الله بن رباح بن حارد بن عاد .... وهى سلسلة تغلب عليها الأسماء العربية .

وذكر هود فى القرآن الكريم عشر مرات منها قوله ـ تعالى :
« قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ... »(٢٩٣)

● وقد ذكر صالح فى القرآن الكريم تسع مرات ، منها قوله ـ تعالى ـ
« وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين »(٢٩٤)

وهو من الأسماء العربية التى لايشك فى عربيتها ، ووصفه بعضهم بأنه كان رجلا أحمر يميل الى البياض ، سبط الشعر ، ومكث فى قومه أربعين عاما يدعوهم الى الله .

كانت منازلهم بين الحجاز والشام ، ومات بمكة .

---

(٢٩٢) هود ٧٠

(٢٩٣) هود ٥٣

(٢٩٤) الأعراف ٧٧

● أما شعيب فقد ذكر فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة منها قوله ـ تعالى :
« قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا . . . »[٢٩٥]

وقالوا فى نسبه : هو ابن ميكاييل ، وقيل : ابن ميكيل بن يشجن ، وكان يلقب بخطيب الأنبياء .

وقد أرسل ـ كما يقول العلماء ـ إلى أمتين : مدين وأصحاب الأيكة . وكان كثير الصلاة وعمى فى آخر عمره .

● وأما موسى عليه السلام ـ فهو ابن عمران ولا خلاف فى نسبه .

وهو اسم سريانى . وقيل سمي به لأنه ألقى بين شجر وماء ، فالماء بالقبطية « مو » والشجر « سا » وقد وصفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه آدم طوال جعد كأنه من رجال شنودة .

وقد كثر ذكر موسى فى القرآن الكريم حتى وصل إلى مائة وست وثلاثين مرة . . أولها فى البقرة فى قوله ـ تعالى ـ
« واذ واعدنا موسى أربعين ليلة . . . . »[٢٩٦]

وآخرها فى سورة الأعلى فى قوله ـ تعالى
« إن هذا الفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى »[٢٩٧] .

● وهارون أخو موسى ، شقيقه ، وقيل : أخوه لأمه فقط ، وقيل : لأبيه فقط . وكان أطول من موسى وأفصح ، ومات قبل موسى .

---

(٢٩٥) هود ٨٧
(٢٩٦) البقرة ٥١
(٢٩٧) الأعلى ١٩

وورد ذكر هارون فى القرآن الكريم عشرين مرة منها قوله ـ تعالى :
« وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة »(٢٩٨) .

ومعنى هارون بالعبرانية : المحبب . وقد كان محبوبا فى بنى إسرائيل .
قال النبى ـ ﷺ ـ في حديث الإسراء : « صعدت إلى السماء الخامسة فإذا
أنا بهارون ، ونصف لحيته بيضاء ، تكاد لحيته تضرب إلى سرته من طولها ،
فقلت : ياجبريل ، من هذا ، قال : المحبب فى قومه هارون بن عمران .

● وأما دواد ـ عليه السلام ـ فهو ابن إيشى ـ بكر الهمزة . . ـ بن عَوْبَد ـ
يوزن جعفر . .
جاء فى الترمذى أنه كان أعبد البشر .

ووصفه كعب الأحبار بأنه كان أحمر الوجه ، سيط الرأس ، أبيض
الجسم ، طويل اللحية فيها جعودة ، حسن الصوت والخلق ، جمع الله له
بين النبوة والملك .

ذكره الله فى القرآن الكريم ست عشرة مرة منها قوله ـ تعالى :
« فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت . . »(٢٩٩) .

● وسليمان ولد داود ـ عليهما السلام . .
وذكر سليمان فى القرآن سبع عشرة مرة . منها قوله ـ تعالى ـ :

---

(٢٩٨) البقرة ٢٤٨
(٢٩٩) البقرة ٢٥

« واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا »[٣٠٠] .

ووصفه الرواة بأنه كان أبيض جسيما وسيما وضيئا جميلا خاشعا متواضعا ، وكان أبوه يشاوره فى كثير من أموره مع صغر سنة لوقور عقله وعلمه .. وقد شهد القرآن له بالفهم فى قوله - تعالى -
« ففهمناها سليمان وكلا اتينا حكماً وعلماً »[٣٠١] .

● وأما أيوب فقد ذكر فى القرآن الكريم أربع مرات منها قوله تعالى -
« وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب . . . »[٣٠٢] .

وكان أيوب فيما يروى بعض الرواة بعد شعيب ، وقال بعضهم : كان بعد سليمان ، وهو الذى يضرب به المثل فى الصبر على البلاء :
● وذو الكفل ، قيل : هو ابن أيوب . جاء فى المستدرك عن وهب أن الله بعث بعد أيوب ابنه بشر بن أيوب نبياً . وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده ، وكان مقيما بالشام حتى مات ، وعمره خمس وسبعون سنة . وقال بعضهم : إنه إلياس .. وقال بعضهم : إنه يوشع بن نون »[٣٠٣] .

---

(٣٠٠) البقرة ١٠٢
(٣٠١) الأنبياء ٧٩
(٣٠٢) النساء ١٦٣
(٣٠٣) راجع الاتقان فى علوم القرآن جـ ٤ ص ٧٥

وقد ذكر ذو الكفل فى القرآن الكريم مرتين . فى قوله ـ تعالى :

« واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين »(٣٠٤) .

وفى قوله ـ تعالى :

« واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار »(٣٠٥)

● وأما يونس فهو ابن متى ، وهو ذو النون —

وقد ذكر يونس فى القرآن اربع مرات ، منها قوله ـ تعالى :

« وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . . . »(٣٠٦) .

● والياس هو ابن ياسين بن فنخاص ، وهو من سبط يوشع ، وكان من المعمرين . . وهو اسم عبرانى وهمزته همزة قطع وتزداد فى آخره ياء وسين كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ

« سلام على إلياسين »(٣٠٧) .

وذكر إلياس فى القرآن الكريم مرتين ، ومن ذلك قوله ـ تعالى :

« وإن إلياس لمن المرسلين »(٣٠٨) .

بالإضافة إلى إلياسين فى الآية التى ذكرناها .

---

(٣٠٤) الأنبياء ٨٥

(٣٠٥) ص ٤٨

(٣٠٦) النساء ١٦٣

(٣٠٧) الصافات ١٣٠

(٣٠٨) الصافات ١٢٣

● وأما اليسع فهو ابن أخطوب ، والعامة تقرؤه بلام واحدة وقرأ بعضهم : « اليسع بلامين وبالتشديد ـ وعلى هذا فهو أعجمى .

وقيل : إنه عربي منقول من الفعل وسع يسع . ولكنه غريب . وقد ذكر فى القرآن مرتين منها قوله ـ تعالى ـ

« واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » .[309] .

● وزكريا هو من ذرية سليمان بن داود ، وقتل بعد مقتل ابنه يحيى . وهو اسم أعجمى ، وفيه خمس لغات أشهرها المد ، والثانية القصر . وورد فى يائه التشديد والتخفيف ، وورد بحذفها فيصبح الاسم زكر ، على وزن قلم .

وجاء زكريا فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع منها قوله ـ تعالى ـ :

« فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . . . »[310] .

● ويحيى هو ابن زكريا الذى بشر باسمه قبل ولادته ، ولم يسم بهذا الأسم أحد قبله ، ولد قبل عيسى بستة أشهر ، ونبىء صغيراً ، وقتل ظلما . قيل سمى بذلك لأن الله أحياه بالإيمان ، وقيل : لأنه استشهد والشهداء أحياء . .

---

(٣٠٩) الأنعام ٨٦

(٣١٠) آل عمران ٣٧

وقد ذكر فى القرآن الكريم خمس مرات منها قوله ـ تعالى ـ

« إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين »[٣١١] .

● فأما عيسى ـ عليه السلام ـ فهو ابن مريم . ورد ذكره فى القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة ، منها قوله ـ تعالى ـ

« وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »[٣١٢] .

وهو اسم عبرانى ، وقيل : سريانى ، ويلقب بالمسيح

● أما خاتم الأنبياء محمد ـ ﷺ ـ فقد ورد فى القرآن الكريم باسمه محمد ، أو باسمه أحمد وله أسماء كثيرة أخرى . جاء « محمد » أربع مرات منها قوله ـ تعالى ـ

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »[٣١٣] .

وجاء أحمد مرة واحدة فى قوله ـ تعالى ـ

« ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »[٣١٤] .

وله ألقاب كثيرة نودى بها فى القرآن الكريم ، فقد نودى بقوله ـ تعالى ـ يأيها الرسول ، يأيها النبى ، يأيها المزمل ، يأيها المدثر . .

---

(٣١١) آل عمران ٣٩

(٣١٢) البقرة ٨٧

(٣١٣) آل عمران ١٤٤

(٣١٤) الصف ٦

وجملة الأنبياء الذين وردت أسماؤهم فى القرآن الكريم خمسة وعشرون نبياً ، هم الذين ذكرناهم . .

وقد قدمنا ذكرهم بين يدى أسماء الله الحسنى لأن هؤلاء الأنبياء هم الذين حملوا أعباء الرسالة وجاءوا بها من عند الله ليهدوا الناس إلى الله ، ويعرفوهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا . . « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . . . . »[٣١٥] .

وسنرجىء الحديث عن بقية ما ورد فى القرآن الكريم من أعلام بعد التحدث بتوفيق الله عن أسماء الله الحسنى . . »



(٣١٥) النساء ١٦٥

وبعد :

لقد عرضنا فى هذه السلسلة حتى الآن عبر خمسة عشر مجلداً استغرقت خمسة وسبعين عدداً قصص الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، ومادار حولهم وحول عصورهم من أحداث . . .

واستطردنا من خلال ذلك إلى التحدث عن بعض العلامات والوقائع المشهورة ، وألقينا عليها الضوء . . وأفردنا لذلك أعداداً خاصة . . كما رأينا ذلك فى أعداد الكعبة المشرفة ، وزمزم ، والمسجد الأقصى ، والجن ، والروح ، والملائكة ، والعالم الآخر ، وغيرها . .

وتحدثنا فى هذه السلسلة عن السيرة النبوية المشرفة ، حديثاً تفصيلياً ، تناول نشأة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيئته وأسرته ، وبعثته وهجرته وجهاده وغزواته وسراياه . . ولم يكن حديثنا عن ذلك تقليدياً ، ولكنه كان حديثاً تأملياً يربط الماضى بالحاضر ويقدم العبرة التى يجب أن يأخذها المسلمون لحاضرهم الذى يجب أن يكون مشرقاً كما كان ماضيهم كذلك .

وقد انتهى المجلد الخامس عشر بغزوة تبوك التى أعقبناها بتحليل

يناقش قدرة النبى ﷺ العسكرية والسياسية ويشير إلى أن النبى ﷺ كان هو القائد المثالى بحق الذى يجد فيه قواد العالم الحديث مثلهم الأعلى . .

ونحن فى تناول موضوعاتنا التى نتحدث عنها فى ضوء القرآن الكريم نريد أن نربط قراءنا الكرام بهذا الكتاب الخالد ، ونضع أيديهم على نقاط كثيرة يمر الناس عليها مرور الكرام مع أنها تحمل كثيراً من الدلائل والعظات ، ذلك لأن هذا الكتاب لاتوجد فيه كلمة واحدة لاتشير إلى حدث من الأحداث المهمة ، أو لاتقدم معنى رائعاً ، أو لا تلفت النظر إلى حكمة عظيمة قال تعالى فى شأنه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد »

وصدق النبى إذ يقول : « فيه خبر ماقبلكم ونبأ مابعدكم وحكم مابينكم »

ومن بين ماتناولناه الأعلام الواردة فى القرآن التى نرى أن لها أهمية خاصة ، ويمثلها أسماء السور التى تشحذ الأذهان إلى مقاصد السورة وأهدافها ، وتثير الاهتمام إلى مايجب أن يأخذه قارىء السورة من عبرة وتذكرة . . .

ونحن من أجل ذلك نقدم أسماء الله الحسنى ـ وهى قمة الأعلام ونور القرآن وقوى الأرواح ـ فى أعدادنا القادمة إن شاء الله لما نرى من حاجة الجماهير الإسلامية الى معرفة معانيها ، ولأن عرضها يتطلبه إكمال هذه السلسلة التى كان من حسن الطالع أنها وجدت الاستجابة الطيبة لدى المسلمين فاستقبلوها استقبالاً حسناً يشير إليه تكرر طبعاتها .

ونحن إذ نحمد الله على ذلك ونشكره على توفيقه لنا نرجوه ألا يحرمنا نعمة هذا التوفيق ، وأن يجعله مصاحباً لنا فى عرض ماتبقى من هذه السلسلة التى سوف تعرض إن شاء الله أسماء الله الحسنى ، ثم بقية الأعلام فى القرآن الكريم ، ثم الحديث عن أهل البيت الذين ورد فى حقهم « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ثم الحديث عن أصحاب رسول الله الذين نزل فى شأنهم قرآن يتلى . . ومايفتح الله به من فضله وكرمه . .

والحمد لله أولاً وأخيراً . . وهو نعم المولى ونعم النصير . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس القصص القرآنى

انتهى بحمد الله
المجلد الخامس عشر